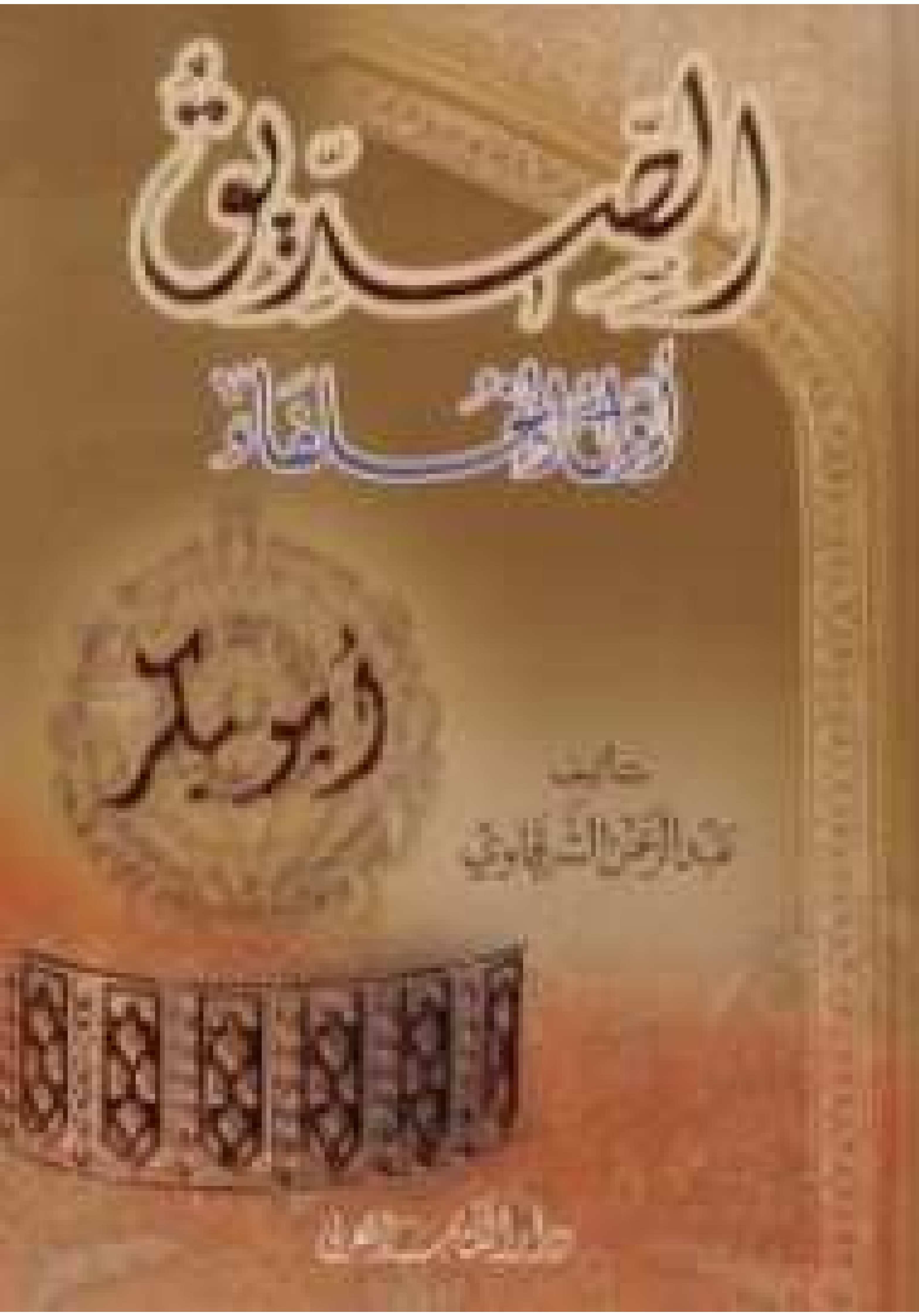

الصديق
أول الخلفاء
أبو بكر
تأليف
عبد الرحمن الشرقاوي

فهرس

إهداء

إلى عشاق عملاق القلم..
عبد الرحمن الشرقاوي
من قراء وتلاميذ ومريدين.
إلى السائرين على دربه.. يحملون مشاعله
ويرفعون لواء الكلمة الشريفة..
في كل زمان.. ومكان.
إلى من يعيش للحب.. والخير.. والفضيلة
لكي يصنع مع كل البسطاء الشرفاء
روعة العصر الجديد
إلى شهداء الحق.. والعدالة.. والحرية.
إلى كل مناضل من أجل الإخاء
والمساواة وانتصار الحقيقية
إلى كل من يؤمن أن شرف
الكلمة.. ونبالة الموقف
هما أبقى ما يبقى من
المرء..
نهدي هذا الكتاب.

أسرة عبد
الرحمن الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كم هو شاق على النفس.. عسير علـى القلـب.. أن أحمل القلم بعدك يا والدي الحبيب وهيهات لقلـم أن يحمـل بعدك.. لأكتب مقدمة مؤلفك الأخير "الصديق أول الخلفـاء". وهي تلك المقدمة التي كنت أنتظر بفروغ صبر كتابتك لها.. كما كان ينتظر معي جيل بأسره.. بل أجيال بأسرها..

كنت لها الأستاذ والمعلم والرائد والإمام المقبول. ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله عز وجل ولا راد لقضائه. وفاضت روحك الطاهرة لتترك لنا مهمة استكمال مسيرتك العظيمة. ويا لها من مهمة.. ويا لها من مسيرة.

وكان علي أن أحمل قلمي وفؤادي يعتصره الألم والعالم من حولي يترنح من هول الفجيعة القاسية.. لأحدث الدنيا عن عملاق القلم عبد الرحمن الشرقاوي.

هذا الرجل العظيم الذي كانت رسالته التي منحها حياته

جميعا هي الدفاع عن الحق والخير والحرية وأحلام البسطاء الشرفاء في غد أفضل يسوده الإخاء والعدالة والمساواة والتحرر من قهر قوى الشر والظلام.

اتسع قلبه الكبير لآلام البشر وآمالهم كونت أفكاره وأعماله الخالدة حضارة أدبية زاهرة أغنت وجدان جيلنا كله ولسوف تستمر – بمشيئة الله - منارة إشعاع أدبي رفيع في وجدان أجيال قادمة، تدفعهم في طريق التقدم، وتضيء أمامهم آفاقا رحبة من تراثنا الإنساني الزاخر.

كانت حياته مجموعة من المواقف التي تتسم بالفروسية والنبل. حتى في خصومته كان شريفا عفا مرتفعا، حتى في خواطره كان شاعرا فذا عملاقا يذيب أفئدة القراء في كلماته ويأسرهم بعظيم فكره وروعة بيانه.

عاش معلما ورائدا وأستاذا عز أن يكون له نظير في فنه وخلقه، وإماما رائعا في العلم والنبالة والجهاد لهذا الزمان. غرس فينا الشوق للعدل والنضال من أجل إقراره منذ طفولتنا. وعلمنا الجهاد من أجل تحرير العقول والإرادات من أي سطوة أو وصاية. وعرفنا منه كيف نتحرى الصدق في أي قول أو فعل.

وحثنا على مقاومة الظلم والتضحية في سبيل المبدأ فهذا هو شرف الحياة.

حضنا على طلب العلم وعلمنا معنى شرف الخصومة وسمو الحوار واحترام وجهات النظر الأخرى وفضيلة التواضع.

هذا هو ما أنشانا عليه.. الصدق والبر ورعاية الوالدين، ومكارم الأخلاق، والرحمة والود، والعدل والمساواة والشجاعة والكرم، وحق الإنسان في الحرية قولا وفعلا وموقفا، وواجبه المقدس في الدفاع عن المستضعفين وعن حرية الآخرين.

وكم عانى في سبيل إقرار كل هذه القيم وكافح

واستشهد من أجلها. كان يؤمن بإمكانية تصفية الخلافات بين الأحزاب المختلفة ويدعو دائما لموقف جبهوي موحد من كافة الأطراف الوطنية.

لكم عانى وكابد هموم وطنه حتى على مستوى حياته الشخصية فكان قلبه يدمى لأي تجاوز يراه ولكم أمرضته تلك الهموم والأعباء.

وكان لي مثلا أعلى في صفاء النفس وسعة الأفق ورهافة الحس، وتدفق الحنان، وتوقد الذهن وسخاء العطاء.

كبير القلب يلتمس حتى في غضبه الأعذار للآخرين، صادق الوعد، تقيا ورعا.. عذب الحديث حلو المعشر، برا طاهرا سباقا إلى الخير.. تواقا للفضائل.

كان – رحمه الله - زاهدا في أي جاه أو منصب يرى أن الرجل بقيمه ورحابة شخصيته هو الذي يضيف للمنصب وليس العكس، مترفعا عن المغانم، عازفا عن طلب الثروة والمال ولو شاء لكان أغنى أغنياء عصره، لكنه كان يردد دائما دعوة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه "يا دنيا غري غيري"، ويتلو الآية الكريمة: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون في الأرض علوا ولا فسادا".

صدق الله العظيم.

وكان نداؤه الساحر الأصداء، ودعوته التي حمل لواءها في سنواته الأخيرة: "عودوا إلى الإسلام الحق تجدوه أكثر تقدما من كل الفلسفات والنظريات البشرية".

وكم سهر الليالي عاكفا متبتلا في محراب الفكر الإسلامي يزيح عنه الغبار، ويحرره من الخرافات والتفاسير المتهافتة، ليؤكد أن رسالة الإسلام كانت في جوهرها ثورة اجتماعية وإنسانية، تنطلق من كلمة لا إله إلا الله، لتهدم كل

صنوف الاستعباد والعبودية إلا الله وحده سبحانه – ليس كمثله شيء - ولتحرر المستضعفين في شتى بقاع الأرض.. وتحطم كل قوانين القهر الاجتماعي والتسلط الروحي على رءوس صناعها. ولكم واجه من عقبات ومشى في دروب مزروعة بالألغام، محفوفة بالأعاصير.

ولكنه لم يأبه بهذا كله وظل كالطود الشامخ يناضل في إصرار ملتزما بقضايا وطنه وحقوق الإنسان في غد أفضل قائلا في عذوبة وحنان فياض: "إن ما يجمعنا كثير وما يفرقنا أقل القليل.. فلنتجه إلى ما يجمعنا ولنلتزم به ليكون هو الفاعل في حياتنا، وليعذر بعضنا البعض فيما نختلف فيه فهو قليل.. قليل".

حتى جاء مؤلفه الأخير "الصديق أول الخلفاء" عام ٧٨٩١ مستكملا لسلسلة مؤلفاته الإسلامية الكبيرة بدءا بكتاب "محمد رسول الحرية" سنة ٢٦٩١ ومرورا بمسرحيتيه الشهيرتين "الحسين ثائرا" و "الحسين شهيدا" ١٧٩١، و "قراءات في الفكر الإسلامي" ٥٧٩١، ثم "أئمة الفقه التسعة" سنة ٢٨٩١، و "ابن تيمية" ٢٨٩١، ثم "علي إمام المتقين" ٣٨٩١، وخامس الخلفاء "عمر بن عبد العزيز" ٥٨٩١، و

"الفاروق عمر بن الخطاب" ١٩٨٦، وأخيرا هذا الكتاب الذي أتمه قبل رحيله بشهور وقال عنه: "سألني الكثيرون لماذا اخترت الكتابة عن أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين؟" وأجاب في نهاية هذا الكتاب قائلا:

"ذلك أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – جمع الفضل والقوة، وعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون، مما تلقاه عن الرسول ❐. علمهم أن الله قرن الإيمان بالعمل الصالح كلما ذكر الإيمان في القرآن. والإيمان يقتضي النهوض بالعبادات على أكمل وجه، أما العمل الصالح فهو الجد والكد لعمارة الأرض، والجهاد في سبيل الله، ولنشر مكارم الأخلاق، وحسن المعاملة، وتحقيق المصالح العامة للأمة".

ولكم يدين الإسلام والمسلمون لأبي بكر!

وسيظل الإسلام والمسلمون مدينين له بجمع القرآن، بعد أن قتل أكثر حفاظ القرآن في حروب الردة..

لم يحكم الصديق إلا عامين ونحو ثلاثة أشهر، ولكنه حقق فيها انتصارات كالمعجزات، يصعب إنجازها في أعوام طوال!! ستظل العروبة مدينة له بأنه أول من وحد أقطارها،

بعد أن مزقتها الردة الأولى، وإن كانت تعاني عذاب الفرقة ووهنها بعد الردات الأخيرة!

ستظل الإنسانية مدينة له بقيام العدل، وبفرض الإحسان والعدل والإخاء على العلاقات بين الحكام والمحكومين، حتى في عصور الظلمات الداجية، في وجه التحكم والقهر والاستبداد!

ستظل الإنسانية مدينة له بحماية حرية العقيدة، وحرية الفكر، وحرية التعبير في زمن التعصب الغشوم، والمظالم الشرسة!! ستظل القيم الرفيعة والمثل العليا ومكارم الأخلاق مدينة للصديق بأنه أول من نور أرجاء العالم، منذ نشر الإسلام خارج بلاد العرب، فأضاء بمبادئه السامية، دجى الليل الحالك الذي كان يغشى دولة الفرس والروم، وهما حينئذ أكثر العالمين! وتظل الحضارة نفسها مدينة لهذا الشيخ الجليل، بأنه على الرغم من حزنه النبيل غرس في الأرض بذور العدل والحرية، وسقاها أزكى دماء الشهداء، فآتت من كل الثمرات عطاء جزيلا، حقق عبر التاريخ تقدما عظيما في العلوم والثقافة والفكر والفنون، وجعل الحياة متاعا رفيعا سحري المذاق، وسخر للإنسان قوى الطبيعة، وأغنى وجدان

العالم كله من عصر إلى عصر، إذ كانت عواصم الإسلام مضيئة بالمعرفة العليا، وما عداها من العواصم يئن تحت أطباق من الظلمات، ظلمات بعضها فوق بعض، ولا يقوى على أن يخطو نحو التقدم، إذ الأقدام تغوص في أوحال الجهالة!

ستظل الحضارة نفسها مدينة للصديق، هذا الشيخ الورع الأسيف صاحب الجسد النحيل، والعقل الجبار، ذي القوة الروحية الخارقة النابعة من إيمان بالله عظيم.. لأنه بجهاده الرائع، وبالصبر والمثابرة، جعل هذا الكوكب جديرا بأن يحيا فيه الإنسان.

وبعد فقد أراد كاتبنا الكبير في هذا الكتاب شكلا فنيا رفيعا أقرب إلى الفن القصصي، اعتمد فيه كسائر مؤلفاته الإسلامية على حقائق التاريخ الثابتة، ليعرض مبادئ الإسلام وقيمه، من خلال تصوير أدبي لخليفة رسول الله ❐ أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين رضي الله عنه وعنهم جميعا.

وإني إذ أدعو الله مخلصا أن ينتفع به القراء كما كان يدعو أبي دائما.. فإني أحتسب في سبيل الله كل ما كابد فيه مؤلفه الكبير من مشقة وجهد.. كما عاش حياته مجاهدا صلبا في سبيل الله.

وفقنا الله إلى ما فيه خير الإسلام، والأمة الإنسانية.

والله ولي التوفيق.

د. أحمد عبد الرحمن الشرقاوي

ديسمبر ٧٨٩١

الفصل الأول

الصادق.. والصديق

- ١ -

أقبل رجل من الكوفة على الإمام علي كرم الله وجهه، فقال له إنه سمع نفرا من الإنس يسبون أبا بكر وعمر! ثم قال الرجل لعلي: "يا أمير المؤمنين، لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترءوا على ذلك!".

فانتفض الإمام، وأمر مناديه بأن يجمع الناس في المسجد، فنادى: "الصلاة جامعة!".

حتى إذا ازدحم المسجد بالناس، أخذ الإمام على يد ذلك الرجل، فدخل به المسجد، ثم صعد الإمام على المنبر، وقد تغير لون وجهه الذي كرمه الله، ثم قبض على لحيته البيضاء، وإن الدموع لتنحدر عليها.

ثم قال من خلال الدموع: "ما بال أقوام يذكرون أخوي رسول الله ❐، ووزيريه، وصاحبيه، وسيدي قريش، وأبوي المسلمين؟! وأنا بريء مما يذكرون، وعليه معاقب، صحبا رسول الله ❐ بالجد والوفاء... فقبض وهو عنهما راض، والمسلمون راضون. فوالذي فلق الحبة، وبرأ (أي

خلق) النسمة لا يحبهما إلا مؤمن فاضل، ولايبغضهما إلا شقي مارق! حبهما قربة (أي تقرب إلى الله تعالى)، وبغضهما مروق...".

وسكت الإمام هنيهة يكفكف دمعه، ثم قال متوعدا: "ألا ولا يبلغني عن أحد أنه يبغضهما إلا جلدته حد المفتري" (أي ثمانين جلدة).

وفي يوم آخر سأله شيخ من أشياعه وهو على منبر الخلافة: "يا أمير المؤمنين، نسمعك تقول في الخطبة: "اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين، فمن هم؟".

قال: "حبيباي أبو بكر وعمر، إماما الهدى، وشيخا الإسلام، ورجلا قريش المقتدى بهما بعد رسول الله ❐. من اقتدى بهما عصم، ومن تبع آثارهما هدي على الصراط المستقيم، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله".

ودخل على الإمام في بيته أحد شيعته، فقال: "السلام عليكم يا خير الناس بعد رسول الله ❐". فقال الإمام علي كرم الله وجهه: "مهلا!.. ألا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله

❐، أبو بكر ثم عمر، ولا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن!".

وكان علي بن أبي طالب عليه السلام – السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - قد ألف أن يجلس إلى الناس في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، يقول للناس: "اسألوني قبل ألا تسألوني"، ثم انتقل بعادته تلك إلى البصرة، ثم إلى الكوفة لما استقر بها، وكان الناس يسألون أمير المؤمنين في كل أمر من أمور دينهم ودنياهم، وكانوا يسألونه أكثر ما يسألونه عن تفسير القرآن، وهم يعرفون مبلغ علمه وفقهه بالقرآن والسنة، ويدركون أن أمير المؤمنين لا يبالي بأحد، وما نفر منه بعض الناس إلا أنه كان لا يبالي بأحد، ذلك أنه كان كما وصفه الشافعي فيما بعد: "كان زاهدا والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها، وكان عالما والعالم لا يبالي بأحد، وكان شجاعا والشجاع لا يبالي بأحد، وكان شريفا والشريف لا يبالي بأحد".

وشيعة الإمام علي يسمونه الصديق، لأنه أول من صدق بالرسالة المحمدية من الذكور، وهو بعد صبي، أما أبو بكر فهو أول من صدق من الرجال، فكان علي، إذا سئل عن تفسير الآية: "والذي جاء بالصدق وصدق به" قال" "الذي جاء

بالحق هو محمد، والذي صدق به أبو بكر ".. وكان يقول عن أبي بكر: "ذاك امرؤ سماه االله الصديق على لسان محمد، صلى االله عليه وسلم، وهو خليفة رسول االله (ﷺ) رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا، استخلفه على الصلاة وهي أفضل ديننا فارتضيناه لدنيانا.." وكان علي يحلف باالله: "إن االله أنزل اسم أبي بكر من السماء: الصديق..".

* * *

على أن لقب الصديق لم يكن جديدا على أبي بكر بن أبي قحافة فقد أطلقه عليه بعض الناس في الجاهلية، منذ أطلقوا على صديقه محمد بن عبد االله لقب الصادق الأمين، فما عرفوا من محمد غير الصدق والأمانة.

أما أبو بكر فقد كان في الجاهلية وجيها، وكان من رؤساء قريش، ومن تجارها الأغنياء، وكان أكثر قريش علما، وأدراها بالأنساب، وأحفظها لأيام العرب، أي بتاريخ الوقائع والحروب، وبما أنشئ فيها من شعر، وكان إليه أمر الديات، إذا عدا أحد على أحد فقتله أو أحدث به عاهة أو ضررا، قضى عليه أبو بكر بمقدار الدية التي يؤديها على أهل القتيل أو لوليه، أو للمعتدى عليه، فإذا أمر أبو بكر بالدية قالت قريش: "صدقوه"، وأبرموا ما قضى به، وإذا حكم

غيره لم يصدقوه، ولم يذعنوا لأمره.. من أجل ذلك سمي أبو بكر: "الصديق".

كما غلب عليه اسم: "عتيق".. ذلك أن أمه كان لا يعيش لها ولد، فلما أنجبته استقبلت به الكعبة، حيث دعت رب البيت: "اللهم إن هذا عتيقك من الموت، فهبه لي!" فلما عاش اسمته عتيقا... ولما شب أبو بكر صار لوجهه الأبيض صباحة ووضاءة، فلحق به اسم "عتيق" لجمال وجهه.. حتى إذا أسلم قال عنه الرسول (❐): من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى وجه أبي بكر الصديق.." وهكذا كان عتيق لقبا واسما لأبي بكر.

كما لصق به بعد إسلامه لقب الصديق.. ذلك أنه عاد من تجارة له بالشام في رحلة الصيف، فسمع في مكة طنينا كدوي النحل من الإنكار لمحمد الصادق الأمين، ولم يكد أبو بكر يدخل داره في مكة، حتى تكاثر عليه بعض أصدقائه من سراة قريش فقالوا له: "يا أبا بكر إن صاحبك يدعو إلى عبادة إله واحد، ويزعم أنه نبي يوحى إليه من السماء!". قال: "أو قال ذاك؟ إن كان قال هذا فقد صدق". ثم إنه أسرع إلى محمد، فسأله: "ما هذا الذي بلغني عنك؟!" قال: "وما بلغك

عنى يا أبا بكر؟" قال: "بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله". قال: نعم يا أبا بكر، قال أبو بكر: "والله ما جربت عليك كذبا، وأنت خليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك. مد يدك فإني مبايعك. أنا أشهد أن لا الله إلا الله وأنك رسول الله". "فأطلق على أبي بكر مرة أخرى: الصديق. وفي ذلك يقول الإمام علي: "سمي أبو بكر صديقا، لأنه بادر إلى تصديق الرسول ❐ ولازم الصدق، ولم تقع منه هنات في حال من الأحوال".

ومضى أبو بكر إلى أصحابه من أشراف مكة وأغنيائها، فحدثهم عن هذا الدين الجديد، وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وحدثهم عن الصادق الأمين محمد، وبأن الله أرسله للناس رسولا.. ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا. وكان منهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف.

وكان أبو بكر حين أسلم يملك نحو أربعين ألف درهم، فرصد أكثر ماله لدعم الدين الجديد، ولنشر دعوة الإسلام.. وقد دعا بعض العبيد والجواري إلى الإسلام فأسلموا، فعذبهم رءوس الكفر من سادة قريش، ممن خشوا مبادئ الإسلام على مكانتهم، وثرواتهم، ومصالحهم، وما

ألفوا عليه آباءهم، فعذبوا الجواري والعبيد عذابا أليما.. فكان أبو بكر يشتريهم ليستنقذهم من العذاب، وليحفظ عليهم إسلامهم، ويحميهم أن يفتنوا عنه.. وكان بلال ابن رباح العبد الحبشي أول من أعتقهم، كان عبدا لأمية بن خلف وهو من أثرياء مكة، فظ غليظ القلب، علم أن عبده بلالا قد أسلم، فأمر بطرحه نصف عار على الرمال الساخنة، في شدة الحر، وعلى صدره صخرة عظيمة، وأمر بجلده، وظل يقول له: "يا بلال.. لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، أو تموت هكذا" فما كان رد بلال إلا قوله: "أحد، أحد" أي الله واحد أحد..

مر أبو بكر ببلال وهو يعذب، فقال لأمية: "أما تتقي الله في هذا العبد المسكين؟!".. وكان أمية وغيره من المشركين يعرفون الله، ولكنهم يشركون به الأصنام، فيعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى!.

ورد أمية على أبي بكر: "أنت الذي أفسدت هذا العبد فأنقذه مما ترى".. فاشتراه أبو بكر بخمس أوقيات من الذهب، فلما تمت الصفقة، قال أمية: "لو أبيت إلا أوقية واحدة لأخذته!." قال الصديق: "لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته!".

وقال بلال للصديق بعد أن اشتراه: "إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني الله عز وجل فدعني لعمل الله عز وجل" قال أبو بكر: "إنما اشتريتك الله عز وجل".

فأعتق بلالا، ولكنه كان يبره، ويحسن إليه، ويتعهده حتى أصبح من أفضل الصحابة، وصار وهو الذي كان عبدا حبشيا، أقرب إلى الرسول ❐ من كثير من صحابته العرب، ولقد أبلى في الله أحسن البلاء، فكان عمر يقول في ذلك: "أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا" (يعني بلالا).

وأعتق أبو بكر أمة رومية اسمها زنيرة، كانت لعمر ابن الخطاب، فلما أسلمت وعمر حينئذ مشرك يشتد في البطش بالمسلمين، أخذ يضربها ضربا موجعا، حتى فقدت بصرها، فقالت قريش: "ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى" فقالت: "والله ما هو هكذا". ثم انفجرت بكل إيمانها القوي وثقتها في الله: "إن ربي لقادر على أن يرد لي بصري". فلما أصبحت رد الله عليها بصرها!.. فقالت قريش: "هذا من سحر محمد"، فاشتراها أبو بكر، فأعتقها. وقالت قريش: "لو

كان خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة" فقال الله تعالي: "وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه".

ولقد مر أبو بكر ذات يوم بعمر بن الخطاب، وهو يعذب جارية أخرى له، فيضربها ويظل يضربها، حتى يتعب، فيمسك عنها، ويقول لها: "أعتذر إليك! لم أتركك إلا مللا!" فتقول الجارية: "فعل الله بك وفعل"، فاشتراها أبو بكر وأعتقها..

وبلغ من اشتراهم أبو بكر وأعتقهم من العبيد والجواري سبعة: عبدين وخمس إماء، ودفع في ذلك مالا كثيرا.. فلما علم أبوه بذلك قال له: "يا بني، أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا (أي أقوياء)، يمنعونك ويقومون دونك (أي يحمونك)!" فقال أبو بكر : "يا أبت، إني أريد ما عند الله" فقال الله تعالي: **(فأما من أعطى واتقى* وصدق بالحسنى* فسنيسره لليسرى)**.

* * *

كان الرسول قد أمر المسلمين الأوائل أن يستخفوا بإسلامهم، خشية بطش قريش بهم، فأشار أبو بكر على الرسول بأن يسمح للمسلمين بأن يظهروا إسلامهم.. وكانوا

حينئذ تسعة وثلاثين رجلا، ولم يكن حمزة ولا عمر قد أسلما بعد، ولكن الرسول لم يستجب لأبي بكر، وقال له: "يا أبا بكر، إنا قليل" وما انفك الصديق يلح على رسول الله ❐، حتى جاء بالمسلمين إلى بيت الله الحرام، وتفرق المسلمون في أرجاء المسجد، وجلس رسول الله ❐، ووقف أبو بكر خطيبا على رءوس الناس، يدعوهم إلى الله ورسوله.. فوثب المشركون عليه وعلى المسلمين المتفرقين في نواحي المسجد، وضرب المشركون، وكانوا كثرة كاثرة شرسة، كل من عرفوه بالمسجد من المسلمين! وغالوا في ضرب أبي بكر، كي لا يجرؤ على آلهتهم مسلم بعده، فيقف خطيبا يدعو إلى الإسلام، وإلى إله واحد أحد لا شريك له!

وتداعى بنو تيم قبيلة أبي بكر، وهرعوا على المسجد، فأبعدوا المشركين عن أبي بكر، وحملوه إلى داره بين الحياة والموت، ثم عاد بنو تيم إلى المسجد، فعرضوا لضاربي أبي بكر وعلى رأسهم عتبة، وقال بنو تيم: "والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة". وعتبة حينئذ من سادات مكة..

قضى الصديق ساعات مغشيا عليه، وأهله يداوونه، فلما أفاق سأل: "ما فعل رسول الله؟" فلامه قومه على جهره بالدعوة إلى الإسلام، أمام رءوس مكة من أئمة الشرك.

إن العرب يقبلون على الكعبة يعبدون آلهتهم العديدة التي نحتوا لها تماثيل في الكعبة، ويقدمون القرابين من الذهب والفضة، ويشهدون منافع لهم.. لكم يكسبون من كل ذلك!! ولكن الدعوة إلى عبادة إله واحد لا شريك له ولا إله إلا هو، ستحرم أثرياء مكة وسادتها وملوك التجارة فيها مكاسبهم الفاحشة، ثم إنها تهز دعة الحياة التي ألفوها هزا عنيفا، وتزلزل ما استراحوا إليه من عقائد!!

وكانت بلاد العرب تضطرب بمذاهب كثيرة.. وكان كثير من أهل الحكمة، وأصحاب المعارف، والذين يتأملون في خلق السماوات والأرض.. كانوا كلهم قد ضاقوا بعبادة الأصنام، ومضوا يبحثون عن عقيدة تتسق وعقولهم.. أما

الذين كانوا في أطراف بلاد العرب فقد اعتنقوا بعض الديانات السماوية، وأما الذين عاشوا في قلب الجزيرة كأهل مكة، فقد كانوا يبحثون عن دين إبراهيم.. ومنهم من اعتزل عبادة الأصنام.. وكان أبو بكر من هؤلاء، وكان منهم زيد

بن عمرو بن نفيل، نبذ الأصنام، وحرم على نفسه الميتة والدم ولحم الخنزير، وكان منهم أمية بن أبي الصلت، وهو شاعر، قرأ ما جاء في الصحف الأولى: صحف إبراهيم وموسى، وقرأ الإنجيل، واعتزل الأوثان، وأبى أكل ما يذبح لها قربانا، ووقع في ظنه أن الله سيختاره رسولا نبيا، وكانت الحياة تنتظر نبيا رسولا، ليخرج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور.

قال أبو بكر رضي الله عنه : "كنت جالسا في فناء الكعبة، وكان زيد بن نفيل قاعدا، فمر به أمية بن أبي الصلت فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير. قال: هل وجدت؟ قال: لا وآل من طلب. قال:

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والحنيفة بور

أما إن هذا الذي ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين".

قال أبو بكر: "فذهبت إلى ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر في السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث. فقال ورقة: ولكن أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أن هذا النبي المنتظر من أوسط العرب نسبا،

ولي علم بالنسب، وقومك (قريش) أوسط العرب نسبا. فقلت: يا عم، وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، ألا أنه لا ظلم ولا تظالم".

* * *

ولد أبو بكر بعد سنتين وبضعة أشهر من عام الفيل الذي ولد فيه الرسول.. واسم أبو بكر هو عبد الله، وكنيته أبو بكر، (والبكر هو الفتي من الإبل)، وكان خدنا للنبي ❐، وصفيا له في الجاهلية.. نشآ معا، واعتزلا معا لهو مكة، واهتما معا بالبحث عن الله، والتزما معا مكارم الأخلاق، وأفضل ما في الجاهلية من شمائل، ولم تكن الجاهلية شرا كلها، فقد كانت لهم قيم شريفة يتفاضل بها الرجال: الكرم، والصدق، والأمانة، والنجدة، والإيثار، والمروءة، والعفاف.

وقد صحب أبو بكر محمدا في تجارته إلى الشام، وكان

معه حين ذهب مع عمه أبي طالب واجتمع ببحيرا الراهب، الذي أخبر أبا طالب أن محمدا ولد أخيه، هو النبي المنتظر، الذي يجدونه عندهم في التوارة والإنجيل.

ولما نضج أبو بكر، أصبح أوسع أهل قريش معرفة، وأعلمهم بالأخبار والآثار، وصار تاجرا غنيا، حسن الخلق،

صادق الوعد، وكان رجال قريش يألفونه، ويأتونه لعلمه، وحسن عشرته، إذ كان رضي النفس، عذب المنطق، راجح العقل، يتصف بالحكمة، ولين الجانب، وبرقة ناعمة يغشاها التوتر، فتتحول إلى حدة باطشة إذا خان أحد عهده، أو استخف بطيبته، ورقته، ودعة نفسه، وحاول استغلالها.. فهي رقة تنبع من الطيبة لا الضعف، وهي تتحول إلى حدة عارمة إن اصطدمت بما تنكره الطيبة من شر أو رذيلة.

وهو لم يسجد لصنم منذ بلغ الحلم، وأدرك ما تضطرب به الحياة الدينية في مكة من أباطيل.. قال: "لما ناهزت الحلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مخدع فيه أصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشم العوالي، وخلاني وذهب، فدنون من الصنم وقلت له: إني جائع فأطعمني، فلم يجبني، فقلت له: إني عار فاكسني، فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه!".

كان أبو بكر تتقاسمه الطيبة والحدة، وكان أبيض، نحيفا، خفيف العارضين، يمشى منحنيا، سريع الخطوات، حكيما، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، وكان كثير الشعر، وحين دهمه الشيب، صبغ بالحناء.. وكانت

تخالج حكمته حرارة العواطف الجياشة.. وهذا الرجل النحيف، يملك قوة روحية هائلة، ففي أثوابه أسد مرير، يفتك بمن يستخف بما يؤمن به!

اشتد بطش سادة قريش بالمسلمين، كلما لاقوهم في البيت الحرام يرتلون القرآن.. وكان أبو بكر لا يفارق النبي، ويتلقى عنه الأذى، وينصح قومه أن يكفوا عنه وأن يسمعوا له، ويتدبروا قوله، ويتأملوا فيما جاء به من الكتاب والحكمة، لعلهم يهتدون.. ولكن غضبهم على محمد، كان يصم آذانهم عما جاء به من الهدى، ويجعل بينهم وبين أبي بكر سدا.

ولما أسري برسول الله ❐ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أمسى وأصبح يحدث الناس بقصة الإسراء والمعراج، فكذبه الناس حتى بعض الذين كانوا قد أسلموا! وارتدوا عن الإسلام!.. وأسرع بعضهم إلى أبي بكر فقال له: "هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس!" قال: "أقال ذلك؟" قالوا: "نعم" قال: "لئن قال ذلك لقد صدق" قالوا: "أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح؟" قال: "نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، في خبر السماء!" ثم أقبل على رسول الله في المسجد،

فسمع منه وصفا دقيقا شاملا لبيت المقدس، وكان أبو بكر قد رآه أكثر من مرة خلال رحلاته، وما كان النبي قد رأى ذلك البلد قط، فلما انتهى النبي من كلامه أعلن أبو بكر على الملأ أنه يصدق محمدا الصادق الأمين، ثم قبل ما بين عينيه وقال له: "أشهد أنك رسول الله". فما زاده حديث الإسراء إلا إيمانا.

قال الرسول: "وكنت يا أبا بكر الصديق".

ثم ها هو ذا أبو بكر يلازم النبي، ويتأسى به، ويحذو حذوه في كل ما يأخذ وما يدع، وفي المواطن التي يرق فيها ويرحم، والمواطن التي يغلظ فيها ويشتد.. ولكأنه اتخذ الرسول مثله الأعلى.

* * *

نزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) فجاءت امرأة أبي لهب في يدها شيء ما، والنبي وأبو بكر في المسجد، فلما رآها الصديق نصح للرسول بأن يختفي من أمامها، فقد كانت امرأة شرسة، تلقي بالحطب المشتعل في طريقه، وترمي عليه الأشواك ما تبالي بما يصيبه منها.. قال أبو بكر: "يا رسول الله، قد أقبلت، وإني أخاف أن تراك". فقال: "إنها لن تراني". وقرأ قوله تعالى: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك

وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا). فوقفت حمالة الحطب أمام أبي بكر وهو جالس، وأظهرت ما في يدها، فإذا هو حجر مسنون الأطراف، ثم أنشدت:

"مذمما أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا".

ثم قالت لأبي بكر: "يا بن أبي قحافة، ما بال صاحبك ينشد في الشعر؟" قال: "والله ما صاحبي بشاعر"، فقالت: "أليس قد قال: "في جيدها حبل من مسد"!؟ فما يدريه ما جيدها؟!" همس النبي: "قل لها هل ترين عندي أحدا؟" فلما قال أبو بكر ذلك، قالت: "أتهزأ بي يا بن أبي قحافة؟! والله ما أرى أحدا عندك! وقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الحجر" فقال أبو بكر: "ورب هذا البيت ما هجاك".

فولت وهي تقول: "قد علمت قريش أني ابنة سيدها".

وكان رسول الله يقول : "ألا تعجبون مما صرف الله عني من أذى قريش؟ يهجون مذمما، وأنا محمد!".

وكانت قريش إذا أرادت أن تسبه لم تسمه محمدا، بل مذمما، فلا يناله من سبابها شيء!

على أن قريشا أسرفت في إيذاء المسلمين، وفكر الرسول في أن أرض الله واسعة، فطلب من المسلمين أن يهاجروا فيها.. فليهاجروا بدينهم إلى ملك مسيحي عادل، لا يظلم عنده أحد، هو نجاشي الحبشة (الحبشة في ذلك الزمان هي اليوم إثيوبيا والصومال وإريتريا.

وكان للحبشة صلات ببلاد العرب، وكان كبار تجار مكة يأتونها بتجارتهم، ومنهم من نشأت بينه وبين النجاشي صلات ومودات: مثل عمرو بن العاص، وغيره من أثرياء قريش.

فلما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، ذهب عمرو بن العاص في أثرهم، محملا بهدايا ثمينة للنجاشي، ورشا بعض بطانته، وحاول عمرو أن يستنفر سخط النجاشي على المهاجرين ليطردهم، فزعم له أن هؤلاء المسلمين يقولون في مريم قولا عظيما!.. فدعاهم النجاشي وسألهم عن قولهم في مريم، فقال جعفر بن أبي طالب: إن المسلمين يقولون في مريم ما أوحاه الله من القرآن إلى نبيهم. ثم تلا الآيات من أول سورة مريم.

"واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا* فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا* قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا* قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا* قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا* فحملته فانتبذت به مكانا قصيا* فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا* فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا* وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا* فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا* فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا* يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا* فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا* قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا* وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا* وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا* والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت

ويوم أبعث حيا* ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون".

فجاشت نفسي النجاشي، وفاضت دموعه خشوعا.. وقال: "إن هذا الذي جاء به نبيكم محمد ليخرج هو والذي جاء نبينا من مشكاة واحدة".

وأعلن الملك المسيحي الورع أنه يبسط حمايته على المسلمين عنده، وأعاد لقريش هداياهم الثمينة، ورد عمرو بن العاص ردا منكرا.. على الرغم مما بينهما من مودة.

* * *

وكان أبو بكر يتهيأ للهجرة في أرض الله الواسعة، وإنه لفي طريقة إلى السفينة التي ستبحر به إلى الحبشة، إذ لقيه صديق من كبار حلفاء قريش، فسأله: "أين تريد يا أبا بكر؟" قال: "أخرجني قومي فأريد أن أسبح في الأرض، وأعبد ربي" فقال له صاحبه: "فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل (اليتيم أو العيال أو العبء)، وتعين على نوائب الدهر، فأنا لك جار، واعبد ربك ببلدك".

وعاد به صاحبه إلى مكة، فاجتمع بأشراف مكة وكبرائها، فمدح أبا بكر، وأعلنهم أنه يجبره، فقالوا: "إذن فمر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما يشاء، ولا يؤذن ولا يستعلن (يعلن) به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا".

فلبث أبو بكر فترة لا يتعبد أو يقرأ القرآن إلا في داره. وبعد أيام أقام في فناء داره مسجدا، فكان يصلي فيه، ويرتل القرآن بصوته الخاشع المتهدج، وكان لا يملك عينيه، فإذا قرأ القرآن ارتفعت نبراته على خفقات الشجن، وتراسلت آيات القرآن شجية النغمات، تتسلق أسوار الدار والمسجد، وتشيع في طرقات مكة ورعا حنونا، ورغبة جسورا في اقتحام الخطر نحو العدل، إلى عالم آخر من المودة والإخاء والسعادة.. فتنادت النساء وأبناؤهن. وتداعوا جميعا إلى بيت أبي بكر يسمعون تلاوته المؤثرة، ويصغون له، وينصتون، وقلوبهم تخفق من الرهبة، وعيونهم تفيض من الدمع، وأشواقهم إلى بزوغ فجر زمن جديد تؤجج عقولهم التي كادت تخبو، لكثرة ما تعودت الخنوع..!!

وراع أشراف مكة المشركون، لكثرة من تجمع على أبي بكر من نسائهم وأبنائهم، فأسرعوا إلى صاحبه لينهاه، فقد فتن به النساء، كما فتن به الأبناء، وإنهم لفي سن البحث عن المجهول، والشك، والولع في اجتناء الحقيقية، مهما تكن المخاطر.. تلك السن المضطرمة بالأمل المشوب بالحنين الحزين إلى الخفاء والمغامرة.

وأقبل صاحب أبي بكر، وخاض إليه الزحام الخاشع الورع، حتى إذا انتهى أبو بكر من تلاوته، ذكره صاحبه بأنه لا يستطيع أن يجيره من قريش، إن هو ظل يجهر بترتيل القرآن! فقال له أبو بكر: "فإني أرد إليك جوارك، وأرضي بجوار الله عز وجل!".

- ٢ -

أسرف بعض أشراف مكة على الصديق فأغروا به السفهاء والأراذل لينالوا من مكانته، وليزروا على هيبته.. حتى ليلقاه أحدهم فيناديه ساخرا منه: "يا أبا الفصيل!" بدلا من أن ينادوه: "يا أبا بكر" (فالبكر هو الفتى من الإبل، أما الفصيل فهو الطفل الضعيف منها).

وفي الحق أن قريشا تغيظوا على أبي بكر، منذ وجدوا نساءهم وأبناءهم قد فتنوا بما يرتله من القرآن، حتى لقد أسلم كثير منهم على يديه!

وكان من بين هؤلاء الفتيان الذين أسلموا فتى في السابعة عشرة هو سعد بن أبي وقاص، وصبي في الثانية عشرة، هو الزبير بن العوام. فكان عم الزبير يعلقه من يديه، ويوقد تحت قدميه النار، ويأمره أن يخرج من الإسلام، فيقول الفتى المؤمن: "لا أكفر أبدا!".

وأراد عقلاء قريش أن يجربوا وسائل أخرى مع أبي بكر، فعمدوا على رجل منهم له علم وحكمة، هو طلحة، وحرضوه على أبي بكر، ليناظره أمام الناس، عسى أن يحرجه، ويفض اجتماع من اجتمعوا عليه ويبطل تأثيره!..

فذهب في نفر من المشركين إلى أبي بكر، وحوله جماعة من المسلمين، فقال طلحة متحديا: "يا أبا بكر، قم إلي" فقال أبو بكر في هدوء وقور: "إلام تدعوني؟" قال: "أدعوك إلى عبادة اللات والعزى". فسأله أبو بكر: "ما اللات والعزى". قال طلحة: "بنات الله" فقال أبو بكر ساخرا مبتسما: "الله أبوهن! فمن أمهن..؟!" فبهت طلحة وارتج عليه، واستنجد بمن جاءوا معه وقال لهم: "أجيبوا أبا بكر" ولكنهم لم يحروا جوابا!. فسكت طلحة بن عبد الله قليلا، ثم قال: "قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".

فمضى به أبو بكر إلى الرسول، فأسلم، وحسن إسلامه.

وزاد بطش قريش بالمسلمين، وكان الرسول قد لقي جماعة من أهل يثرب في موسم الحج، فأسلموا، وبايعوه على أن ينصروه ويمنعوه هو ومن تبعه من المسلمين.

فأمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى يثرب وقال لهم: إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها، فخرجوا أرتالا مهاجرين إلى أنصار الله ورسوله، وعاد الذين كانوا قد

هاجروا إلى الحبشة من قبل، فلحقوا بهم في يثرب، ليعيشوا معا في حمى الأنصار وحمايتهم.

ولم يبق في مكة من المسلمين مع الرسول إلا أبـو بكر وعلي، فقد استبقاهما ❐ في مكة.. ولكن أبا بكر سـأل الرسول أن يأذن له في الهجرة، فأجابه الرسول: "لا تعجـل لعل الله يجعل لك صاحبا، فإني أرجو أن يؤذن لي" فقال أبو بكر: "أترجو ذلك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي!" قال: "نعم".

فأخذ أبو بكر يعد عدتـه للهجـرة، وجهـز نـاقتين صلبتين، فكان يعلفهما صباح مساء بنبات من الصحراء يقوي الإبل، ويجعلها أكثر احتمالا وصبرا، واستمر على ذلك نحو أربعة أشهر حتى أذن للرسول بالهجرة.. روى الإمام علـي كرم الله وجهه أن جبريل حين جاء للرسول يؤذنه بـالهجرة سأله النبي ❐ : "من يهاجر معي؟" قال جبريل: "أبـو بكـر، وهو الصديق". فعجل الرسول إلى أبي بكر يبشره بذلك، في وقت لم يكن الرسول ❐ قد تعود أن يأتي فيه أبا بكر رضـي الله عنه.

وفي ذلك قالت عائشة رضـي الله عنهـا: "كـان لا يخطئ رسول الله ❐ أن يأتي بيت أبي بكر طرفي النهـار –

إما بكرة وإما عشية – حتى إذا كان اليوم الذي أذن له فيه بالهجرة والخروج من مكة، بين ظهراني قومه، أتانا في نحر الظهيرة (أي في شدة حرها)، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ❐ مقبل متقنع في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فدى له أبي وأمي، إن جاء به في هذه الساعة لأمر!

فجاء رسول الله ❐ فدخل فقال: قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله! قال: نعم".

قالت عائشة: "ما شعرت قبل ذلك بأن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن له الرسول ❐ بصحبته، فقال أبو بكر: بأبي أنت يا رسول الله، فخذ إحدى راحلتي هاتين (يعنى الناقتين). وقدم له أفضلهما. وقال: اركب فداك أبي وأمي. قال: إني لا أركب راحلة ليست لي. قال: فهي لك يا رسول الله. قال: لا ولكن بالثمن الذي ابتعتها به (اشتريتها به)، قال، قد ابتعتها بكذا وكذا. قال: قد أخذتها بذلك".

وخرج رسول الله من مكة في اليوم الذي حددته قريش لقتله.. لم يعلم بخروجه أحد إلا علي، فقد أمره الرسول أن يبقى بمكة حتى يؤدي للناس ما كان عنده من

ودائع، وكان الناس على الرغم من كل شيء يأتمنون محمدا على ودائعهم دون أي رجل آخر! وبقي علي بمكة ليفتدي الرسول بنفسه! فنام في فراشه، وأرسلت كل قبيلة أقوى فتى فيها ليقتلوا الرسول في ضربة فيضيع دمه بين القبائل، وشهروا السيوف، وتقدموا ليطعنوا من بالفراش، فلم يكد أحدهم يزيح الغطاء عن وجه النائم في الفراش، حتى صدموا بأنه علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله!! فعلموا أن محمدا قد هاجر ساخرا بهم!!

كان الرسول قد خرج على أعين الناس، ولكنهم عموا عنه، حتى إذا ترك آخر بيوت مكة، تلفتت عينه وقد خفيت عنه الديار أو كادت، وتلفت القلب!! وأجاءه الأسى إلى قمة ربوة ينظر عبر المدى البعيد إلى البيت الحرام، وفاض حنينه، ودمعت عيناه ونظراته تودع مكة وقال: "إنك لأحب أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت!..".

ومضى بصاحبه أبي بكر.. انطلقا في دروب مجهولة، ومن خلفهما قريش، مجنونة من الغيظ، تطاردهما في كل الدروب المعروفة!..

وتروي أسماء بنت أبي بكر أن أباها أعطاها مالا، وقال لها: "ابتاعي (اشترى) بهذه الدراهم خبزا ولحما فإن رسول ❐ يعجبه اللحم".

وقص المشركون أثر قدمي الرسول، فوجدوا الأثر قد انقطع عند باب أبي بكر، وأسماء خلف الباب تعالج ما اشترته من اللحم، فدقوا عليها الباب في عنف، فلما فتحت سألوها: "أين أبوك؟" فأجابت: "إني مشغولة في عمل ولا أدري أين أبي".

وتكمل أسماء: "فرفع أبو جهل يده – وكان فاحشا خبيثا – فلكم خدي لطمة طرح منها قرطي، ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجه رسول الله ❐، حتى أقبل رجل من الجن، من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس يتبعونه، يسمعونه صوته ولا يرونه، حتى خرج من أعلى مكة، يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبرثم تروحا

وقد فاز من أمسى رفيق محمد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم

ومقعدها للمؤمنين بمرصد

فلما بلغ هذا الشعر حسان بن ثابت، عارضه بقصيدة جاء فيها:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم

وقدس من يسري إليه ويغتدي

ترحل عن قوم فضلت عقولهم

وحل على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم

وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد

ومنها:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله

ويتلو كتاب الله في كل مشهد

وإن قال في يوم مقالة غائب

فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

ليهنأ أبا بكر سعادة جده (أي حظه)

بصحبته، من يسعد الله يسعد

وقد كان دليل الرسول وصاحبه عبد الله بن الأريقط، وهو حاذق بدروب الصحراء أو الجبال، استأجره الرسول ليدله على طريق غير مألوف من مكة إلى المدينة، وواعده غار ثور بعد ثلاثة أيام.. وكان يخدم الرسول وصاحبه مولى لأبي بكر اسمه عامر بن فهيرة.

وقد مروا في طريقهم إلى جبل ثور بخيمة أم معبد، وهي امرأة من خزاعة، جسور، صاحبة نجدة وعفة وكرم، "فسألوها تمرا ولحما يشترونه، فلم يصيبوا عندها من ذلك شيئا، وكان القوم مرملين (نفد زادهم)، مسنتين (أصابتهم سنة قحط وجدب) فنظر رسول الله ❐ إلى شاة في كسر الخيمة (أي جانبها) فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: خلفها الجهد عن الغنم (أي لم تخرج لترعى مع القطيع لهزالها). قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها. فدعا بها رسول الله ❐ فمسح لها ضرعها، وسمى لها ودعا لها فتفاجت عليه (فتحت ما بين رجليها) ودرت (أي خرج من ضرعها اللبن) فدعا بإناء.. فحلب لبنا كثيرا، ثم سقى حتى شرب آخرهم، ثم حلب ثانيا حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، وارتحلوا جميعا عنها، فقل ما لبثت

حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق عنزات عجافا، يتمايلن هزالا، فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين لك هذا يا أم معبد، قالت: مر بنا رجل مبارك!.. قال: صفيه لي، قالت: رجل ظاهر الوضاءة أبلج (مشرق) الوجه، حسن الخلق في عينيه دعج (سواد).. إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق.. كأن منطقه خزرات نظم يتحدرن.. هو أنضر الثلاثة، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره.. قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه".

(راجع التجاري والبغوي والزرقاني)

"ولقد أمست قريش فسمعت في الليل على جبل أبي قبيس في ظاهر مكة، صوتا يقول:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد

بمكة لا يخشى خلاف المخالف

(والسعدان مثنى سعد)

فلما أصبحت قريش سأل أبو سفيان: من السعدان؟! سعد بكر؟ سعد تميم؟ سعد هذيل؟

فلما كانت الليلة التالية ارتفع الصوت نفسه على جبل
أبي قبيس يقول:

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا
ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا
على الله في الفردوس منية عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى
جنان من الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة. (الطبري وآخرون).

* * *

ولقد وصف أبو بكر رحلة الهجرة بمخاطرها ومشقاتها.. قال رضي الله عنه: "... ثم ارتحلنا من مكة فأحيينا ليلتنا حتى إذا أظهرنا (دخلنا في وقت الظهر)، وقام قائم الظهيرة، رميت بعيني حتى أرى ظلا نأوي إليه فإذا أنا بصخرة فانتهيت إليها فإذا بقية ظلها فسويته، ثم فرشت للنبي ❐ ثم قلت: اضطجع يا رسول الله. فاضطجع. ثم ذهبت هل أرى من الطلب (جمع طالب) أحدا، فإذا أنا براعي غنم

يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي نريد (يعني الظل) فسألته فقلت: لمن أنت يا غلام؟ قال: لفلان (رجل من قريش) فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض عنها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فحلب لي كثبة (أي قليلا) من لبن، وقد رويت (أي شرب حتى ارتوى)، ومعي لرسول الله ﷺ إدواة (قربة صغيرة) على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فوافيته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله. فشرب، فقلت: قد آن الرحيل يا رسول الله فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة ابن مالك بن جعشم الكناني على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، وبكيت، فقال: (لا تحزن إن الله معنا). فلما دنا منا وكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب يا رسول الله، بكيت. فقال: ما يبكيك؟! قلت: والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك. فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: اللهم اكفناه بما شئت. فساخت (غاصت) فرسه في الأرض على بطنها، فوثب عنها ثم قال: يا محمد لقد علمت أن هذا عملك،

فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهما فإنك ستمر على إبلي وغنمي في مكان كذا فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله ❐: لا حاجة لي فيها، ودعا لـه رسول الله ❐ فانطلق راجعا إلى أصحابه".

وكان الرسول وصديقه قد أقاما في غار ثور ثلاثة أيام سويا: وكان أبو بكر وهما في طريقهما إلى الغار "يمشى مرة أمام الرسول، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره، فقال له الرسول: ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك! قال: يا رسول الله أذكر الرصد (جمع راصد) فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك".

وقد تقطرت قدما رسول الله دما وهو يصعد جبل ثور حتى إذا انتهيا إلى الغار قال أبو بكر للرسول ❐: "والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك". فدخله، فوجد في جوانبه ثقبا (جمع ثقب)، فشق إزاره وسد به تلك الثقب، وبقي منها اثنان فألقمهما رجله. ثم قال لرسول الله ❐: "ادخل يا رسول الله". فدخل فوضع رأسه في حجر

أبي بكر ونام. فلدغ في رجله من الجحر، فلم يتحرك مخافة أن يستنبه رسول الله، فسقطت دموعه على وجه الرسول. فقال: مالك يا أبا بكر؟! قال: لدغت فداك أبي وأمي". فعالجه الرسول ❐.

"ولما نظر أبو بكر إلى خارج الغار قال للنبي: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا، فقال لصاحبه: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وأقبلت فتيان من قريش يطاردونهما، حتى إذا كانوا على مقربة من الغار، انطلق رجل منهم لينظر في الغار، فرأى حمامتين وحشيتين قد وقفتا بفم الغار، فرجع إلى أصحابه فسألوه: مالك لا تنظر في الغار؟! قال: رأيت حمامتين فعلمت أن ليس فيه أحد".

ومكثا في الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، فيمضي عنهما آخر الليل، فيصبح عند قريش كأنه بات فيهم، فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه وأخبرهما به حين يحل الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة شاة، فلما كان صباح الليلة الثالثة أتاهما الدليل براحليتهما وانطلق بهما آخذا طريق ساحل البحر الأحمر، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بزاد كثير من الخبز واللحم،

وأرادت أن تعلق الزاد فلم تجد غير نطاقها، فشقته اثنين، فعلقت السفرة (طعام المسافر) بواحد وانطلقت بالآخر فسميت ذات النطاقين.

فلما هدأ عنهما المطاردون انطلقا، يحدوهما دليلهما ابن الأريقط إلى يثرب، حيث جعل الله فيها للمهاجرين أنصارا وإخوانا، ودارا يأمنون بها..

ولقيا في الرحلة كثيرا من المشقات والأهوال والمخاطر حتى انتهيا إلى يثرب، التي خرج كل أهلها في زينتهم يستقبلون الرسول بالأغاني.. وأطلقوا على يثرب مدينة رسول الله، وغلب عليها اسم المدينة، وفي هذه المدينة المنورة بدأت مرحلة جديدة.. كان لأبي بكر فيها بلاؤه العظيم.

يا لتلك الأيام الخفاقة بالروعة، المضطرمة بالخطر!! قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يصف روعةتلك الأيام، ويمدح بلاء الصديق فيها: "لما كان بعد وفاة أبي بثلاثة أيام اجتمعت قريش تريد قتل رسول الله ❐، فلم يعنه يومئذ إلا أبو بكر، ولأبي بكر يومئذ ضفيرتان، فأقبل يجادل هذا ويدفع هذا، ويقول: (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد

جاءكم بالبينات من ربكم) والله إنه لرسول الله. وتقطعت في ذاك اليوم إحدى ضفيرتي أبي بكر..".

وقال علي للناس: "ناشدتكم الله أي الرجلين خير: مؤمن آل فرعون أم أبو بكر؟ فأمسك القوم، فقال الإمام: "والله ليوم من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون! ذاك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه، وهذا بذل الله نفسه ودمه..".ثم

زاد الإمام: "أبو بكر هو السباق، والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا فيه أبو بكر.." وقال لأحد مجادليه: "ويلك! إن الله ذم الناس، ومدح أبا بكر، فقال: (إلا تنصروه فقد نصره الله ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) فرحمة الله على أبي بكر".

هكذا كان علي مع أبي بكر رضي الله عنهما.. وكان أبو بكر يرعى وقار علي، ويوده، على الرغم من فارق السن بينهما، فابن أبي طالب أصغر منه بنحو ثلاثين عاما وكان أبو بكر يحب أن ينظر في وجه علي، فلما سئل عن ذلك قال: "النظر لوجه علي عبادة! كان رسول الله ❐ يحب أن ينظر في وجه علي!..".

وكان أبو بكر رضي الله عنه في التصاقه الحميم بالرسول ، يعرف أكثر مما يعرف أي صحابي آخر، أي حب عظيم يحمله قلب الرسول لعلي كرم الله وجهه!.. وأبو بكر يدرك أكثر من أي صحابي آخر دلالة ما قاله الرسول عن صفيه وحبيبه يوم غدير خم وهو قول أكده الرسول مرة أخرى في حجة الوداع. إذ سأل الرسول () أصحابه، رضي الله عنهم، ثلاث مرات: ألست أولى بكم من أنفسكم؟" قالوا: "بلى يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، أنت أولى بنا من أنفسنا". فأمسك بيد صفيه علي ورفعها، وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار".

(راجع الترمذي والنسائي والإمام أحمد بن حنبل).

ومن تقدير الرسول وحبه عليا، أحب الصديق عليا، وقدره، فقد كان لأبي بكر في رسول الله أسوة حسنة، فهو يسير على نهجه في كل أمور الدين والدنيا، فيما يكره، وفيما يحب.

ذات يوم أقبل علي بن أبي طالب على الرسول وهو جالس في المسجد بين أصحابه، وأبو بكر على يمينه، وبحث علي عن مكان يجلس فيه فلم يجد، ونظر الرسول في وجوه أصحابه عسى أن يفسحوا لعلي، فلم يفسح له أحد، فتزحزح أبو بكر من مكانه، وقال لعلي مرحبا: "ها هنا يا أبا الحسن" فجلس علي بين الصادق والصديق. فأضاءت البسمة وجه الرسول وسره ما فعله أبو بكر، وقال: "يا أبا بكر، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل!".

* * *

لم يكد الرسول يستقر في مدينته، حتى كتب صحيفة لليهود، وادعهم فيها، وهم حينئذ أصحاب شوكة وسلطان.. ففي أيديهم أكثر أموال المدينة وتجارتها، وكل ما في المدينة من ذهب.. ثم إنهم أهل كتاب، وكان الرسول ❐ يرى أهل الكتاب أدنى إليه من أهل الشرك!!

وفي الصحيفة التي كتبها الرسول، عهد من المسلمين بأنهم يقرون اليهود على أموالهم وممتلكاتهم ودينهم..

والصحيفة تعاهد بين المسلمين واليهود على أن للمسلمين نفقتهم ولليهود نفقتهم، وأن بينهم الصلاح والبر دون الإثم، وأن النصر للمظلوم.

وعلى الرغم مما كسبه يهود يثرب من موادعة المسلمين، فقد انقضوا فيما بعد على الصحيفة، ونقضوا الميثاق! ذلك أنهم كرهوا وجود المسلمين بينهم، وبرِموا بالتعايش معهم، وخافوا الدين الجديد على مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية، إذ يقوم نظام المال عند يهود المدينة على الربا، وهو ما يحرمه الإسلام..! فما صبر اليهود على قوم مهاجرين، أقبلوا على المدينة بقيم جديدة تزلزل أعراف المدينة زلزالا شديدا؟! وهكذا انقض اليهود على الصحيفة، فنقضوها، واستقووا على المسلمين بأموالهم وحصونهم، فعربدوا عليهم، ووثبوا بهم، مما اضطر المسلمين بعد سنوات إلى إخراج اليهود من الحجاز، بعد أن شاقوا الله ورسوله، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين !

* * *

كان أول ما بادر إليه الرسول بعد أن وادع اليهـود، أن ألف بين قلوب المهاجرين وقلوب الأنصار الذين ضـيفوا إخوانهم المهاجرين، ومنعوهم مما يمنعـون منـه أنفسـهمونساءهم وأبناءهم، وأخذوا يقاسمونهم معيشتهم، ذلـك بـأنالأنصار يحبون من هاجر إليهم، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة.

ولكن المهاجرين على الرغم من ذلك كانون يعانون وحشة الغربة، واختلاف البيئة والتقاليد، ويغشاهم الحنين إلى وطنهم مكة، ولم يكن هذا الحنين يخلو من الأسـى، ولكنـه أسى مشوب بالإصرار على أن يحتملوا، وعلى أن يصـبروا ويصابروا، وعلى أن يبذلوا حتى الأنفس دفاعا عما يؤمنـون به..!

ولقد أدرك الرسول ❐ ما سيكابده المهاجرون مـن إحساس ممض بوحشة الاغتراب، على الرغم من كل شيء! فأراد أن يعالج إحساسهم هذا، فرأى ❐ أن يؤاخي بينهم وبين الأنصار.. ولم يقصر المؤاخاة على المهـاجرين والأنصـار فحسب، ولكنه لحكمة أرادها، ولرشد تحراه، كان يؤاخي في بعض الأحايين بين مهاجر ومهاجر مثله.

وقف الرسول يخطب أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: "تآخوا في الله أخوين أخوين" ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فرفعها، وقال: "هذا أخي".

كما آخى الرسول بين عمه حمزة أسد الله وزيد بن حارثة، مولاه ومتبناه، وكان حينئذ يسمى زيد بن محمد، فلما قال الله تعالى: (ادعوهم لآبائهم)، دعا النبي زيدا لأبيه، وسماه زيد بن حارثة، وقد كان زيد وهو صغير عبدا، بيع للسيدة الطاهرة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فوهبته للنبي، فلما عرف أبوه مكانه، جاء إلى مكة ليسترده، فخيره الرسول بين البقاء والذهاب، فأبى زيد أن يذهب مع أبيه، وآثر البقاء مع الرسول والسيدة أم المؤمنين خديجة، فتبناه الرسول، حتى إذا حرم الله التبني، جعله الرسول مولاه، وتولاه (أي ولي أمره).

أما أبو بكر فقد آخى الرسول بينه وبين خارجة بن زهير الخزرجي الأنصاري، وقد نزل أبو بكر في داره بالسنح خارج المدينة، وتزوج ابنته، فقد ترك أبو بكر امرأته مع بنيه في مكة.

وعلى الرغم من هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وعلى الرغم من بر الأنصار بالمهاجرين، لم يفارق المهاجرين الإحساس بالغربة، والحنين إلى الوطن..

كانت مكة قمة المجتمع التجاري، أما المدينة فكانت الحياة فيها وكل علاقتها تقوم على الزراعة، وكانت بها تجارة، ولكنها لا تشكل في مقومات الحياة ما تشكله التجارة من حياة مكة.. فصعب على المهاجرين أن يألفوا حياة المدينة، ولقد سأل بعض كبار التجار من المهاجرين عن سوق المدينة، ثم ذهبوا إليه فاشتروا وباعوا وربحوا وكان في طليعتهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، ولقد حاول بعض المهاجرين تعلم الزراعة، ولكن حياة الحقول ما زالت غريبة عليهم!..

لم يستطع المهاجرون أن يندمجوا بعد في هذا المجتمع المدني، بكل غربة مناخيه، وغرابة علائق الإنتاج فيه، وإن كانوا ليحمدون لإخوانهم الأنصار صدق المودة، وكرم الضيافة.

ثم داهمت الحمى بعض المهاجرين، وكان بالمدينة بعوض كثير، يعيش ويتوالد على بقايا الماء المتخلف من ري

الحقول.. وكان البعوض ينشر الملاريا، حتى لقد أصبحت مرضا متوطنا في المدينة، وسميت بحمى يثرب!

والبعوض، ورطوبة الجو، والحمى المتوطنة، أمور لم يعرفها المهاجرون في وطنهم مكة قط، حيث ألفوا جفاف الهواء، جيلا بعد جيل، منذ أنزل جدهم الأكبر إبراهيم ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، ودعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم.

وكان من أوائل المهاجرين الذين أصابتهم حمى المدينة أبو بكر، وبلال بن رباح، وعامر بن فهير، وكلاهمااستنقذه أبو بكر من بطش العذاب في مكة، فاشتراه وأعتقه وتولاه.

كان أبو بكر حين هاجر مع الرسول إلى مكة قد حمل معه خمسة آلاف درهم، هي كل ما تبقي من ثروته الكبيرة، التي أنفقها في سبيل الله، وحرر بها من أسلم من العبيد والجواري.. وكان أبو بكر حريا بأن يربح في المدينة أكثر مما أنفق في مكة، إن هو ذهب إلى سوق المدينة، فاشتغل بالتجارة كغيره من كبار التجار المهاجرين، فهو تاجر حاذق، يكسب من فوره ثقة الآخرين، لحسن خلقه،

وصدقه، وعذوبته، ودعته، وحكمته. ولكن الحمى أمسكته ببيته بالسنح خارج المدنية.. وأهله في مكة لم يترك لهم مالا، ولكنهم صامدون.. دخل أبو قحافة عليهم وقد ذهب بصره، فقال: "والله إني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه". فقالت أسماء بنت أبي بكر: "لا لقد ترك لنا مالا!" وجاءت بأحجار غطتها بثوب، وجعلت جدها يضع يده على الثوب وحسبه مالا.. فطابت نفسه!

ثم إن ابن أريقط عاد مكة فأخبر بمكان أبي بكر أكبر أبنائه، وهو عبد الله بن أبي بكر.. فاحتال عبد الله حتى خرج إلى أبيه بعياله، وفيهم عائشة، ومع طلحة بن عبد الله أدنى الأقارب، فلما بلغوا المدينة، واستقروا بها تزوج الرسول عائشة بنت أبي بكر.

* * *

وأبو بكر يفكر فيما خلف بمكة، وفيما يستقبله بالمدينة! وتشتد الحمى فيهذي! ومما قالته السيدة عائشة في ذلك: "لما قدم رسول الله ❐ المدينة، وهي أوبأ أرض الله (أي أكثرها وباء) أصاب أصحابه بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه ❐، وأصابت أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة،

فاستأذنت رسول الله في عيادتهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فأذن لي، فدخلت عليهم وهم في بيت واحد فقلت له: كيف تجدك يا أبي؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله

والموت أدني من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري ما يقول!

ثم دنوت من عامر، فقلت: "كيف تجدك يا عامر؟

فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه

إن الجبان حتفه من فوقه

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بولد وحولي أذخر وجليل؟

وهل أردن يوما مياه مجنة

وهل يبدون لي شامة وجليل؟

(أذخر وجليل من حشائش مكة. مجنة سوق بالقرب من مكة. شامة وجليل جبلان بمكة).

فجئت رسول الله ❐، فأخبرته فقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى، فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها...".

وقدم من مكة رجل يدعى أصيل، سألته عائشة: "كيف تركت مكة يا أصيل؟" فمضى أصيل يصف مكة، فاغرورقت عينا رسول الله ❐ بالدموع، وقال: "لا تشوقنا يا أصيل!".

ولكن المهاجرين أخذوا يألفون المدينة يوما بعد يوم، وربط قلوبهم بها ذلك العطف الحنون الذي غمرهم به إخوانهم الأنصار، حتى لقد أضحى المهاجرون يجدون في بساتين المدينة ومزارعها من طيب الرائحة ما لم يعرفوه في مكة..

ثم أنى للرسول أن يبني مسجدا، يجعله مصلى لجماعة المسلمين، ودارا للندوة، ومعهدا للعلم، ومقرا للحكم..

فاختار بستانا كبيرا ليقيم في مكانه المسجد الجامع، وساوم أصحاب البستان، ولكنهم قالوا: "لا والله لا نطلب ثمنه إلا من الله". فأبى الرسول ذلك، وأصر على أن يؤدي إليهم

ثمن أرضهم، فاشتراها منهم بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر.

* * *

فلما كان يوم بدر، واحتشد المسلمون لجهاد مشركي مكة، نظر رسول الله فوجد أنه خرج بنحو ثلاثمائة من أصحابه المؤمنين، ليلاقوا ألفا من المشركين!.. فاستقبل القبلة، ورفع ذراعيه داعيا ربه: "اللهم آتني ما وعدتني! اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض أبدا!".

فما زال يهتف بربه، مادا يديه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، وقد فاضت عيناه من إشفاقه على الرسول، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، وقال له: "يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك! إنه سينجز لك وعدك، حسبك يا رسول الله! لقد ألححت على ربك".

ثم قال الله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة...).

سأل الإمام علي بعض أشياعه: "من أشجع الناس؟" قالوا: "أنت يا أمير المؤمنين" قال: "أما إني ما بارزت أحدا

إلا انتصفت منه ولكن أشجع الناس أبو بكر". وتعجب أشياع الإمام، فكيف يكون أشجع الناس هو ذلك الرجل الوديع النحيل، صاحب البدن الرقيق؟! فلما رأى الإمام علي في وجوه بعض شيعته الدهشة، قال: "لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ❐ عريشا (خيمة من خشب)، وقلنا: "من يكون مع النبي ❐، لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد، إلا أبو بكر شاهرا السيف، فوقف على رأس رسول الله ❐".

قال علي: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يوم بدر لي ولأبي بكر: "مع أحدكما جبرائيل، ومع الآخر

ميكائيل"). وقد بلغ أبو بكر في معركة بدر من التفاني مبلغا

نادر المثال... كان ابنه عبد الرحمن يقاتل المسلمين في جند المشركين، فلما أسلم قال لأبيه: "لقد أهدفت لي (أي ظهرت أمامي كهدف واضح) يوم بدر، فملت عنك ولم أقتلك". فقال له أبو بكر: "ولكنك لو أهدفت لي لم أمل عنك!".

وبعد أن انتصر المسلمون في بدر أسروا سبعين رجلا من المشركين، فشاور الرسول أصحابه في أمرهم.

فقال أبو بكر: "يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن نأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا".

وقال عمر: "ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخ له فيضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه، حتى يعلم الناس أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار!".

وقال عبد الله بن رواحة: "يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارا".

فلم يجبهم الرسول ❐، ثم دخل فقال ناس: "يأخذ بقول أبي بكر". وقال ناس: "يأخذ بقول عمر". وقال ناس: "يأخذ بقول عبد الله بن رواحة".

ثم خرج رسول الله ❐"، فقال: "إن الله ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللين، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: (من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم). ومثلك يا

عمر مثل نوح، قال: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) ومثلك كمثل موسى، قال: (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)".

وأخذ رسول الله ❐ الفداء من أسرى بدر.

قال عمر في ذلك: "فلما كان من الغد، غدوت على رسول الله ❐ فإذا هو قاعد مع أبي بكر، وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك؟ إن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما!".

فقال رسول الله: لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة (لشجرة قريبة) أنزل الله تعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم).. ثم أضاف الرسول: "إن العذاب لو نزل، لمسنا جميعا، ولما نجا منا أحد إلا عمر!".

ومن المواطن التي ظهرت فيها شجاعة أبي بكر ذلك اليوم الذي عز فيه على الصديق أن يهزم المشركون المسلمين، بعد أن انتصر المسلمون أول الأمر، ثم ترك الرماة مواقعهم على جبل أحد، لما رأوا زملاءهم المسلمين

يغنمون، واندفعوا إلى الوادي، مخالفين عن أمر رسول الله، وكان قد حذرهم من ترك مواقعهم، مهما يحدث، إلا أن يأتيهم أمر منه!.. وهكذا تقدمت قريش بخيلها التي كانت تتربص غير بعيد، بقيادة خالد بن الوليد، لا تستطيع أن تتقدم خشية رماة المسلمين المرابطين أعلى جبل أحد!. فلما تقدم خالد بفرسانه دارت الدائرة على المسلمين، وفقدوا سيد الشهداء: أسد الله حمزة بن عبد المطلب. ووقف المسلمون مهزومين تمزقهم الحسرات، فاندفع أبو بكر وحده، شاهرا سيفه، إلى جيش قريش، غير أن الرسول وقف دونه، وقال: "أغمد سيفك يا أبا بكر، ولا تفجعنا نفسك!".

ويوم حنين إذ أعجبت المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم من الله شيئا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وفروا عن الرسول وهو يناديهم: "هلم إلي! أنا رسول الله! أنا محمد بن عبد الله!".

يومها لم يثبت مع رسول الله إلا قليل على رأسهم أبو بكر وعمر وعلي وأسامة بن زيد أصغر المجاهدين سنا..

وفي تلك المعركة انفلتت امرأة أنصارية مسلمة تدعى أم سليم، وأخذت تضرب الفارين.. فلما سألها الرسول

عما تفعل، قالت: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله. أقتل هؤلاء الذين يفرون عنك، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل!" وكانت النساء المسلمات على عهد الرسول يخرجن في الغزوات، ليساعدن المجاهدين، ولربما قاتلن كالرجال!. وقد كان لثبات النفر القلائل مع الرسول وعلى رأسهم أبو بكر أثره في عودة الفارين، حتى اجتمعوا حول الرسول، واستقبلوا الأعداء، فاقتتلوا، وانتصروا آخر الأمر.

ولم تكن شجاعة أبي بكر نابعة من قوة بدنه، فقد كان ضعيف البنية إلى حد أغرى به أهل الفحش والخبث من كفار قريش، إلا أن علمه وحكمته أسبغا عليه هيبة خاصة، حمته من بطش الباطشين في كثير من الأحايين..

كانت حكمة أبي بكر هي مصدر شجاعته، وأصل قوته، وسر هيبته.. تلك الحكمة التي تصب في عروق صاحبها إحساسا خارقا متدفقا بالقدرة.. تلك القدرة التي تدفعه إلى اقتحام الغمرات، في جسارة وطمأنينة، واثقا بالنصر.. تلك الثقة التي يشيعها ويشعها الإيمان، وإنها لحكمة تعتاض عن ضعف الأبدان، بما للعقيدة من صلابة وعنفوان.

وفي الحق أن الصديق توفرت له شجاعة الحكمة التي يوفرها العقل المضيء بالمعارف، كما تيسرت به حكمة الشجاعة التي ييسرها القلب المليء بنور الإيمان.

ولكم أفاد الدين الجديد مما أتيح لأبي بكر من الشجاعة الحكيمة، ومن الحكمة الشجاعة.. وكان ذلك خلال حياة الرسول، وأبو بكر ينصره بالنفس والمال.. ثم بعد أن أصبح خليفة للرسول. وولي وحده أمر المسلمين..

ولقد انتفع الإسلام بشجاعة حكمة أبي بكر، وحكمة شجاعته، أكثر ما انتفع خلال الغاشية التي دهمت المسلمين أيام حديث الإفك، الذي دوت به المدينة حينما تخلفت السيدة عائشة عن ركب العودة مع الرسول من أحد أسفاره!!

وكذلك حين تمزق المسلمون يوم الحديبية. وهما موقفان أصيب فيهما أتباع الدين الجديد ببلاء في الله شديد.

* * *

أما حديث الإفك، فقد خاض فيه بعض رءوس النفاق في المدينة، كيدا للإسلام، وحسدا من عند أنفسهم، وإزراء على ثلاث قمم إسلامية: الرسول الذي جاء بالصدق وأبي بكر الذي صدق به، وأم المؤمنين عائشة أحب نساء الرسول

إليه وبنت صديقه وصديقه.. ذلك أن الخزرج كانوا يعدون التاج ليضعوه على رأس كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول، ليجعلوه ملكا على يثرب، فلما هاجر الرسول إلى يثرب، عدلوا عن ابن أبي بن سلول، وجعلوا أمرهم إلى الرسول، ورضوا به، وسلموا تسليما، فدخل قلب ابن أبي بن سلول حقد على الرسول والمسلمين، وإن كان قد أعلن الإسلام نفاقا منه!

وما سنحت له فرصة إلا طعن في الإسلام، وحاول أن يشوهه!. وقد ساقت له المقادير فرصة لم يكن يحلم بأن يهيئها لنفسه!.. فقد كان الرسول على سفر ومعه عائشة، وعدد من المهاجرين والأنصار، وفي طريق عودتهم إلى المدينة، نزلوا بمكان بعيد عنها، فباتوا ليلتهم ليدخلوا المدينة إذا كانوا من غدهم مبكرين..

وخرجت عائشة لبعض حاجتها، فلما عادت بعد حين، تحسست عقدها، فوجدته قد انسل من عنقها وهي لا تدري، فذهبت تبحث عنه في المكان الذي كانت قد ذهبت إليه، فوجدته.. وعادت إلى الركب وقد أخذ الناس في الرحيل، فحملوا هودجها ووضعوه على بعيرها، وهم

يحسبونها في الهودج، إذ كانت حينئذ نحيلة خفيفة الوزن، لم تصبها السمنة بعد.

فلما انطلق الناس بدونها، لم تستطع أن تدركهم، فلبثت في مكانها، إذ عرفت أنهم إن افتقدوها لرجعوا إليها!.. وإنها لمضطجعة في مكانها، إذ مر بها صفوان، فعرفها، فلما كلمته بأمرها قدم لها بعيره فركبت، واستأخر عنها، ثم جاء فأخذ برأس البعير، فانطلق ليدرك الركب الذين سبقوها، ولكنه لم يدركهم، فقد دخلوا المدينة منذ الصباح، ثم أقبلت عائشة بعدهم على بعير صفوان، وهو آخذ برأسه، فأطلق ابن أبي بن سلول حديث الإفك، وأشاعه من معه من المنافقين، وخدع به بعض المسلمين فصدقوه، على الرغم من أن ابن سلول كان يعلم أن صفوان هذا شاب حصور لا شأن له بالنساء!! ولكنه الحرص على تشويه نبي الله وزوجه وصديقه!!

واضطربت المدينة بحديث الإفك حتى زلزلت.. وهو حديث يطعن الرسول في عرض امرأته، ويطعن الصديق في عرض ابنته! ومرضت عائشة، فذهبت لتمرض في بيت أمها، ولقد عادها زوجها، فأحست بجفوته! ثم قام في الناس،

فقال: "أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهن غير الحق، واالله ما علمت عليهن إلا خيرا، ويقولون ذلك عن رجل واالله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي؟!".

ولقد تعذب الزوج بحديث الإفك، كما تعذب الأب.. أما الزوج فقد أخذ يدعو االله أن يجلو أمامه الحقيقة، وأما الأب فقد استعصم بالحكمة! فحديث الإفك يمزقه، فلم يجادل فيه أحدا، وخلد إلى الصبر الجميل، وهو يدعو االله أن يحق الحق.

ولقد عز على بعض كبار الصحابة ما يعنت الرسول من حديث الإفك! فأشار عليه علي بن أبي طالب أن يرمي حديث الإفك وراء ظهره، وأن يطلق عائشة ليستريح!.. قال: "يا رسول االله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف". ثم قال االله تعالى: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم).

وكان من الذين خاضوا في حديث الإفك قريب مسكين لأبي بكر اسمه مسطح، وكان ينفق عليه، فقال أبو

بكر: "لا أنفق على مسطح شيئا أبدا"، فقال الله: (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر: "والله إني لأحب أن يغفر الله لي" فأعاد إلى مسطح نفقته وقال: "والله لا أنزعها منه أبدا".

* * *

وفي عهد الرسول أنقذت حكمة أبي بكر المسلمين من محنة أوشكت أن تمزق صفوفهم يوم الحديبية، فقد خرج المسلمون لزيارة بيت الله الحرام، في ملابس الإحرام، ولكن قريشا صدتهم، وكتبت معاهدة مع الرسول التزم فيها ألا يزور البيت من عامه هذا، ورفضت قريش أن تكتب في المعاهدة كلمات فيها اعتراف بالإسلام فطلبت محو: "بسم الله الرحمن الرحيم" من صدر المعاهدة كما طلبت محو: "محمد رسول الله" وطلبت أن توضع بدلا من هذه الكلمات: كلمات باسمك اللهم، ومحمد بن عبد الله، وكان علي بن أبي طالب هو الذي يكتب المعاهدة، فأبى أن يمحو ما طلبت قريش

محوه، فأخذ الرسول الصحيفة ومحاها بنفسه، وقال لعلي: "ستسام مثلها فتقبل!".

وقد تحققت النبوءة بعد ذلك يوم التحكيم، إذ رفض مندوب معاوية أن يكتب عن علي: "أمير المؤمنين".. وكانت قد كتبت، فأمر علي فمحيت!

وثار الصحابة جميعا، ورفضوا أن يعودوا إلى المدينة قبل أن يزوروا بيت الله الحرام، وكان أشدهم في ذلك عمر، حتى سأل أبا بكر: "يا أبا بكر!! أليس هذا نبي الله حقا؟" قال أبو بكر: "بلى." قال: "ألسنا على الحق؟" قال: "بلى" فقال: "فلم نعطى الدنية من ديننا؟" فنهره أبو بكر قائلا: "أيها الرجل. إنه رسول الله وليس يعصيه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه (يعني لا تخالفه) فوالله إنه على الحق." قال عمر: "أو ليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟" قال أبو بكر: "أفأخبرك أنك تأتيه العام؟" (أي هذا العام)؟ قال: "لا" قال: "فإنه آتيه ومطوف به".

وهكذا انتصرت حكمة أبي بكر الشجاعة، ساندتها شجاعة حكمة أخرى، هي حكمة زوج النبي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فقد شاورها الرسول، فأشارت عليه

بأن يتحلل من الإحرام، وينحر الذبائح، فإذا رآه المسلمون فعل ذلك، فعلوا مثله.

وقد كان..

ورضي المسلمون بما قضى الله ورسوله.. وبايعوا الرسول تحت الشجرة، يد الله فوق أيديهم.

وشاع في أعماقهم شعور بالراحة، وبأن الله سيثيبهم فتحا قريبا.. وأن ما ينتظرهم في غدهم إنما هو نصر من الله وفتح قريب.

الفصل الثاني ذهب
اللجاج وبويع الصديق

كان أبو بكر يسمى "الأواه" لرأفته، كان رجلا مؤلفا لقومه، محببا، سهلا، وكان أنسب العرب، وأعلمهم بما كان منهم من خير أو شر، وكذلك كان أنسب قريش لقريش.. وكان على الرغم من حدته في بعض الأحايين لين الجانب، رقيق الحاشية.

وقد كان لغزارة معارفه، وعمق حكمته، وسعة علمه، أثر على الحياة العقلية العربية، حتى لقد جرى على لسانه ما جرى بعد ذلك مجرى الحكم والأمثال.. من ذلك قولهم: "البلاء موكل بالمنطق" كما كان امتيازه العقلي قوة للدعوة الإسلامية في حياة الرسول، وحين خلفه.

وعن ذلك تحدث علي بن أبي طالب، قال: "لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العربخرج

وأنا معه وأبو بكر، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر، وكان رجلا نسابة، فسلم فردوا عليه السلام. فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: أمن هامها (أشرافها) أم من لهازمها (عامة ناسها) قالوا: من هامتها

العظمى (أي أعلى رءوسها). قال: وأي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذهل الأكبر. قال: أفمنكم عوف الذي كان يقال: لا حر بوادي عوف (أي لا سيد فيه يناوئه) قالوا: لا. قال: أفمنكم بسطام (أفرس من في الجاهلية) ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا قال: أفمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار؟ (وهو الذي قتل كليب بن وائل فاستعرت بين قوميهما حرب استمرت أربعين عاما، وانتهت عام ثمانين قبل الهجرة)، قالوا: لا. قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال: فلستم ذهلا الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه غلام من شيبان بقل وجهه (أي ظهرت لحيته) يقال له دغفل، فقال:إن

على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

ثم قال: يا هذا سألتنا فلم نكتمك شيئا. فمن الرجل أنت؟ قال: رجل من قريش. قال: بخ بخ (تعبير للاستحسان) أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من تيم بن مرة. قال: أفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يدعى مجمعا؟. قال: لا. قال: أفمنكم هاشم.

ذاك الذي هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مسنتون عجاف؟

(هشم أي كسر الشيء اليابس، وهشم الثريد أي ثرده وكسره. ومنه سمي هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب جد النبي، مسنتون من أسنت القوم أصابتهم سنة مجدبة، أي يعانون من الجدب والفقر). قال: لا. قال: أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء، الذي كان وجهه قمرا يضيء ليل الظلام الداجي؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الإفاضة أنت؟ (يقصد الذين يفيضون بالحجاج) قال: لا. قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. (والرفادة أو الوفادة والسقاية هي إطعام الناس خلال موسم الحج، وسقيهم، وكانت حينئذ لبني هاشم).

فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله ❐،

فقال دغفل:

صادف درء السيل درءا يدفعه

يهيضه طورا وطورا يصدعه

(درء: أي دفع. يهيضه: يكسره. يصدعه: يشقه) أما والله لو ثبت لأخبرتك أنك من زمعات قريش (الزمعة: الأرض قليلة الارتفاع يعني أنك من عامة قريش لا من أشرافهم) فتبسم رسول الله ❐ "فقلت لأبي بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة (أي داهية ذكي) قال أبو بكر: نعم. إن لكل طامة طامة. وإن البلاء موكل بالمنطق".

قال علي: "ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار. فتقدم أبو بكر فسلك فردوا عليه السلام. قال: ممن القوم؟ قالوا من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ❐ وقال: بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء عز في قومهم. وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو بارعا: جمالا ولسانا.. وكانت له غديرتان (ضفيرتان)، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مجلسا. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال: إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة. قال: كيف المنعة فيكم؟ قالوا: علينا الجهد ولكل قوم جد، قال: وكيف الحرب فيما بينكم وبين عدوكم؟ قال: إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وأشد ما نكون غضبا حين نلقى، وإنا

لنؤثر جيادنا على أولادنا، والسلاح على اللقاح (أي التناسل)، والنصر من عند الله جل وعز،يديل لنا ويديل علينا. ثم قال: لعلك أخو قريش. قال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا. قال: قد بلغنا أنه يقول ذاك. فالإم تدعو يا أخا قريش؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله أرسلني إلى خلقه. وإني أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني، فإن قريشا ظاهرت عن أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، إن الله هو الغني الحميد. قال: وإلام تدعو أيضا؟ قال: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون).

قال: وإلام تدعو أيضا؟ فتلا عليهم: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون). فقال مفروق بن عمرو: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. ولقد أفك (أي كذب) قوم ظاهروا عليك وكذبوك!. وكأنه

أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فتكلم هانئ فقال: يا أخا قريش، قد سمعت مقالتك، وإنا لا نرى ترك ديننا واتباعك على دينك – بمجلس واحد جلسته منا لم ننظر في أمرك ولم نتثبت في عاقبة ما تدعونا إليه – زلة في الرأي وإعجالا في النظر، والزلة تكون مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة (وسيكون له شأن عظيم في فتح العراق وفارس). قال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وكبيرنا وصاحب حربنا (أي قائد جندنا) فتكلم المثنى بن حارثة، قال: يا أخا قريش، قد سمعت مقالتك فأما الجواب في تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك فهو جواب هانئ بن قبيصة، وأما أن نؤويك وننصرك فإنا نزلنا بين صيرين (الصير: الماء).

فقال رسول الله ❐: وما هذان الصيران؟ فقال: مياه العرب (العراق)، وأنهار كسرى (فارس) فأما ما كان مما يلي مياه العرب (العراق وهي حينئذ عربية تحت حكم

فارس) فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان مما يلي أنهار كسرى (يعني أرض الفرس أنفسهم) فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول. وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا ولا نؤوي محدثا، ولسنا نأمن أن يكون الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك. فإن أحببت أن نؤويك مما يلي العرب آويناك ونصرناك.

فقال رسول الله ❐: ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق. وليس يقوم بدين الله جل وعز إلا من حاطه من جميع جوانبه. أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيرا حتى يمنحكم الله أموالهم ويورثكم ديارهم ويفرشكم (يزوجكم أو يملككم) نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذاك، فتلا رسول الله ❐: (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا)، (وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا).

ثم نهض رسول الله ❐، وأخذ بيدي وقال: يا علي! أي أحلام في الجاهلية بها يكف الله بأس بعضهم عن بعض، ويتحاجزون في هذه الحياة الدنيا!".

(أحلام: عقول – يتحاجزون: يمتنع بعضهم عن الإساءة لبعض).

* * *

كان أبو بكر شديدا فيما يؤمن بأنه الحق، لا يبالي في ذلك لومه لائم، وعلى الرغم من أنه في جميع أمره كان ينساب هينا رقيقا لينا كالماء المترقرق، إلا أنه كان إذ يستشعر خطأ ما، ينفجر بغتة، ويهدر كالشلال، حتى ليحسب من يراه أنه أمام رجل آخر غير ذلك الإنسان النحيل الهادئ الرقيق الحنون!

* * *

في أيام منى (وفيها يوم عيد الأضحى) دخل الصديق بيت ابنته عائشة ليهنئ رسول الله ويهنئها بالعيد، فوجد عندها فتاتين تغنيان، والنبي ❐ مضطجع، وقد ألقى على وجهه ثوبا حتى لم يره أبو بكر.. وغضب أبو بكر غضبا شديدا على ابنته، وصاح هو يشير إلى المغنيتين "أعند رسول الله يصنع هذا؟!" غير أن رسول الله كشف عن وجهه قائلا: "دعهن، فإنها أيام عيد!" وسكن غضب أبي بكر، وأدرك أن الرسول لا ينكر الاحتفال بالعيد بما يملأ النفس بالسرور البريء! وكان هذا درسا في الحياة تعلمه من أستاذه الرسول ❐.

وعن عائشة رضي الله عنها أنه كان بين رسول ❐ وبينها كلام فقال: "من ترضين أن يكون بيني وبينك؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح؟" قالت: "لا". قال: "أرتضين؟ بأبيك؟" قالت: "نعم". فأرسل إلى أبي بكر فجاء، فقال: "اقصصي". قالت: "بل اقصص أنت"، فقال: "هي كذا وكذا"، قالت: "أقصد (بمعنى قل الحق) فرفع أبو بكر يده فلطمها، وقال: "تقولين يا بنت فلانة له أقصد؟!! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله؟!" فجعل الدم يسيل من أنفها. فقال رسول الله ❐: "إنا لم نرد هذا: ما لهذا دعوناك!" وجعل يغسل الدم عن ثيابها ويقول لها: "أرأيت كيف أبعدك الله منه؟".

وعلى الرغم من الحدة التي كانت تعتري أبا بكر كان حلو الدعابة.

ذات يوم أقبل أبو بكر فاستأذن على النبي، فسمع صوت عائشة عاليا. فلما دخل تناولها ليلطمها، وقال: "أراك ترفعين صوتك على رسول الله ❐" فجعل رسول الله يحجزه، وخرج أبو بكر مغضبا، فقال النبي لعائشة حين خرج أبو بكر: "أرأيت كيف أنقذتك من الرجل؟".

فمكث أبو بكر أياما، ثم استأذن على رسول الله، فوجدهما قد اصطلحا. فقال لهما: "أدخلاني في سلمكما، كما أدخلتماني في حربكما". فقال النبي ❐: "قد فعلنا".

* * *

وكان الرسول يعتمد على غزارة علم أبي بكر وسعة معارفه.. قال ❐ لحسان بن ثابت الشاعر الأنصاري: "نافح عن قومك، واسأله عن معايب القوم". (يعني الصديق).. وقال لحسان: "لا تعجل وائت أبا بكر فإنه أعلم قريش بأنسابها حتى يمحص لك نسبي".

وكان أبو بكر ممن حفظ القرآن كله، وحفاظ القرآن حينئذ قليل عديدهم، وكان يسال الرسول عن معاني الآيات التي لا تبين له، ويحفظ ما يسمعه عن الرسول، ويعظ به.. من ذلك أنه قرأ قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال: إن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها. ألا وإني سمعت رسول ❐ يقول: "إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، والمنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقابه".

ومن ذلك أنه قال يوما لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) و (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)؟ قالوا: "قالوا ربنا الله ثم استقاموا" فلم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة. قال: "لقد حملتموها على غير المحمل". ثم قال: (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فلم يلتفوا إلى إله غيره ولم يلبسوا إيمانهم بشرك".

* * *

ما كان أبو بكر يفترق عن الرسول إلا قليلا..

في مكة كان الرسول يلم ببيت أبي بكر صباح مساء..

وفي المدينة تعود أبو بكر أن يقبل من بيته في السنح خارج المدينة، إذ يصلي العشاء، ثم يسمر قليلا مع الرسول في بيته.. وكان الرسول يستودعه سره.. إنها لصداقة عمر بأسره..! ومن خلال هذه الصداقة تعلم أبو بكر الكثير من الرسول، وأصبحت له فطنة بما في أغوار الرسول، وبما يخطر على باله، وبما يضمر ويكني عنه، ولا يريد أن يصرح به. كان أمينا على أسرار الرسول، كما كان الرسول به حفيا.

بعد أن توفي زوج حفصة، وهو من أصحاب الرسول، وأصبحت حفصة أرملة شابة، خاف أبوها عليها الوحدة، فمضى يبحث لها عن زوج ثقة تأمن في ظله، كما كانت العادة مع أرامل الصحابة، حتى لقد شرع الزواج مثنى وثلاث ورباع تحريا للعدل مع الأيامى، قال عمر: "أتيت عثمان فعرضت عليه حفصة، قال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا. فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع علي شيئا فكنت أوجد عليه (أشد غضبا) مني على عثمان، فلبث ليالي، ثم خطبها رسول الله ❐ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت علي (غضبت) حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئا؟ قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أني كنت قد علمت أن رسول الله ❐ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول ❐، ولو تركها رسول الله ❐ قبلتها".

* * *

وكان أبو بكر حريصا على أن يتعلم كل الشيء من الرسول، حتى الدعاء.

ذات يوم قال أبو بكر للنبي: "يا رسول الله ماذا أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت؟" قال: "قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، أن أقترف على نفسي شرا، أو أجره إلى مسلم".

وقد تعود أبو بكر أن يشكو بثه وحزنه إلى رسول الله أكثر من الصحابة جميعا. فهو يعلم منه ما لا يعلمون.. عاد يوما إلى بيته فوجد رجلا من بني هاشم عند امرأته أسماء بنت عميس وكان زوجها جعفر بن أبي طالب أحد سادة بني هاشم قد استشهد فزوجها الرسول أبا بكر. وقد كره أبو بكر أن يرى عند امرأته أحد أقاربها وهو غائب، ولكنه قال: "لم أر إلا خيرا" فقال الرسول: "إن الله قد برأها من ذلك" ثم خطب، قال: "لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة (من غاب عنها زوجها) إلا ومعه رجل أو اثنان".

وهكذا كان الرسول كلما عرض حادث ما، استخلص منه ما يعلم به أصحابه، فيستن للمسلمين كافة حسن السيرة، ومكارم الأخلاق، وما يتخذونه من بعده سنة يتبعونها فيما يأخذون، وما ينتهون عنه..

من ذلك أن يكون المؤمن الحق من الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، إذ تتوفر لديه القدرة علــى القصــاص، وعلى رد الصاع صاعين! ثم العمل بما سنه الرسـول: أن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وأن العفـو خيـر، والصلح خير.

روى ربيعة الأسلمي: "جرى بيني وبين أبــي بكـر كلام فقال لي كلمة كرهتها، وندم فقال: يا ربيعـة رد علــي مثلها حتى يكون قصاصا. قلت: لا أفعل! قـال: لتقـولن أو أستعدين عليك رسول الله ❐. فقلت: ما أنا بفاعل. فانطلق أبو بكر، وجاء أناس من أسلم (قوم ربيعة السلمي) فقالوا: رحـم الله أبا بكر! في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال؟ فقلت: أتدرون من هذا أبو بكر الصديق؟ ثاني اثنـين إذ هما في الغار، وهو ذو شيبة في الإسلام، إيـاكم لا يلتفـت فيراكم تنصروني عليـه فيغضـب، فيـأتي رسـول الله ❐ فيغضب لغضبه، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة! وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتــى رسـول الله ❐، فحدثـه الحديث كما كان. فرفع إلي رأسه فقال: يـا ربيعـة! مالـك والصديق؟ فقلت: يا رسول الله، كان كذا وكذا، فقال لي كلمة

كرهتها. فقال لي: قل لي كما قلت لك حتى يكون قصاصا فأبيت. فقال رسول الله ❐: أجل لا ترد عليه، ولكن قل: قد غفر الله لك يا أبا بكر، فقال ربيعة: غفر الله لأبي بكر، فبكى الصديق.

وفي الحق أن الرسول ما كان يطيق أن يسيء أحد مهما تكن مكانته إلى الصديق أبي بكر!.. ولكم نهى الصحابة عما يمس أبا بكر، ولكم حدثهم عن فضل صديقه، وعن فضائله.

وكذلك كان حرص أبي بكر على الرسول.. حتى لقد سد الصديق شقا في الغار بقدمه، أيام الهجرة لأنه رأى فيه ثعبانا، فخافه على رسول الله، ولدغ الثعبان قدم أبي بكر، فكتم صرخته وألمه، غير أن دموعه سالت على خد الرسول الذي كان قد ألقى رأسه على فخذ الصديق وتمدد فأغفى.. وعالجه الرسول، ثم آنس منه خوفا شديدا حين اقترب الذين طاردوهما من فوهة الغار، ولقد همس الصديق للرسول: "لو أن أحدهم نظر إلى موقع قدمه لرآنا.".. وما كان الصديق يخشى المطاردين على نفسه، بل على الرسول، فقال

الرسول: "يا أبا بكر! لا تخف إن الله معنا. وما ظنك بـاثنين الله ثالثهما؟".

* * *

ويا الله ما كان أحرص الصديق على أن يسر النبي!! فكان إذا أقبل عليه وفد، أسرع إليهم أبو بكر ليعلمهم كيـف يسلمون على الرسول بتحية الإسلام، ليفرحه، بدلا من تحيـة الجاهلية، وكثيرا ما كان يأمرهم بالسكينة والوقار في حضرة النبى.

وكان أبو بكر يستبق الخيرات، ويسـبق الآخـرين، ليبادر الرسول بما يعلم أنه سيشرح صدره حقا..

عرف أبو بكر مدى حب الرسول لإسلام ثقيف أهل الطائف... فهم أولو بأس شديد، وسيعز بهم الإسلام، وإن أبا بكر لا ينسى قط يوم ذهب إليهم الرسول داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فآذوه، وأغـروا بــه سـفهاءهم وغلمانهم فقذفوه بالحجارة، حتى إذا جهـدوا وكفـوا عنــه استراح إلى بستان يناجي ربه: "اللهم إليـك أشـكو ضـعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ أإلى بعيد

يتجهمني؟ أم على عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فما أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل علي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

ولقد جاءهم الرسول بالبينات، ودعاهم إلى الإسلام مرة أخرى بعد الهجرة، فرفضوا دعوته، فرجع عنهم، فقام فيهم عروة بن مسعود الثقفي، وكان يشبه المسيح في جمال صورته، وهو بعد من سادة ثقيف، وقد عز عليه أن ينصرف الرسول عن الطائف قبل أن يحقق منها ما تمنى فاتبع أثره في طريق عودته إلى مدينته، حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه ثقيف بالإسلام، فقال له الرسول: "إنهم قاتلوك!" فقال عروة: "يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبنائهم". ثم عاد يدعو قومه إلى الإسلام، متمنيا على الله ألا يخالفوه، لمنزلته فيهم، ومكانته منهم، ولكنهم أطلقوا عليه السهام من كل جانب، فأصابوه، فلما سقط صريعا سئل وهو يلفظ أنفاسه: "ما ترى في دمك؟" قال" كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا

ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ❐ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم". فلما عرف رسول الله ❐ باستشهاده، قال: "دعا قومه إلى الله فقتلوه!".

فلما انتشر الإسلام في بلاد العرب، ولم يبق على الشرك غير ثقيف في الطائف، تداعى رؤساؤهم، فقال بعضهم لبعض: "ألا ترون؟ إنه قد كان من أمر هذا الرجل، (الرسول) وقد أسلمت العرب كلها، وليس لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم. إنه لا يأمن لكم سرب، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع به (أي قتل)!.

فأجمعوا أمرهم، واختاروا عبد ياليل بن عمرو (وهو أحد الذين آذوا الرسول، لما ذهب على الطائف يدعوهم إلى الإسلام قبل الهجرة) وبعثوا عبد ياليل بن عمرو سفيرا عنهم إلى رسول ❐، ولكنه خشي أن يسلم على يدي الرسول، ويعود إليهم فيقتلوه كما قتلوه عروة بن مسعود من قبل! فقال: "لست فاعلا حتى تبعثوا معي رجالا". فبعثوا معه خمسة رجال كل منهم يمثل رهطا من ثقيف، فلما دنوا من المدينة لقوا المغيرة بن شعبة، وهو أحد دهاة العرب، وقد ولد بالطائف، وتركها، ثم دخل في الإسلام، وهاجر إلى المدينة،

فلما علم المغيرة بما يريده بعض قومه من أهل الطائف، أسرع يقفز في فرح ليبشر رسول الله بأن وفدا من ثقيف أقبلوا يريدون البيعة والإسلام.. ولكن أبا بكر لقيه في بعض الطريق، فأخبره المغيرة بأن ثقيفا أرسلت وفدها وأنهم أتوا المدينة مسلمين، ويريدون أن يكتب لهم الرسول كتابا. فقال أبو بكر للمغيرة، وكان من أصحابه: "أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله، حتى أكون أنا الذي أحدثه!".

فآثر المغيرة أبا بكر على نفسه، وتركه يبشر رسول الله بقدوم وفد الطائف مسلمين، ليكون أبو بكر هو الذي سر النبي ❐ بذلك.

فلما التقى وفد ثقيف بالرسول، أعلنوا إسلامهم، ولكنهم سألوه أن يترك لهم ربتهم (اللات) قائمة ثلاثة أعوام، فأبى ذلك عليهم، فسألوه ألا يكلفهم هدمها هي وسائر أوثانهم بأيديهم، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، لأنهم أنفوا من السجود ووضع الجباه على الأرض، فهم يرون الجباه أشرف أعضاء الإنسان، ورمز الأنفة والكبرياء، وكان الرسول يعلم مبلغ أنفتهم، وما لديهم من كبر، ولكنه قال لهم: "أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه (فسيكلف بها قوما آخرين)، وأما

الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه." فقالوا: "يا محمد! أما هذه فسنؤتيها وإن كانت دناءة!".

فلما أسلموا جعل الرسول ❐ واحدا من أحدثهم سنا أميرا عليهم، وهو عثمان بن أبي العاص، فقد آنس منه حرصا يفوق حرصهم جميعا على تعلم القرآن، والاقتداء بالسنة، والتفقه في الإسلام.. وكان الرسول ❐ يولي أصلح الناس، لا يبالي بعمره أو نسبه، أو لونه.. وعلى هذا المنهج سار أبو بكر، قال مثنيا على اختيار الرسول ذلك الفتى أميرا على الطائف: "إني رأيت هذا الغلام أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن".

* * *

فأما منزلة أبي بكر عند الله ورسوله فقد عبر عنها الرسول في مواطن كثيرة، ولقد أوصى به المسلمين.

من ذلك أنه بين لهم ما نزل في أبي بكر من القرآن، وكان علي بن أبي طالب بقربه الحميم من رسول الله أدرى الصحابة بذلك، وكان يعلمهم بما تعلمه من الرسول. من ذلك تفسير علي كرم الله وجهه لقول الله تعالى: (والذي جاء

بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون). قال علي: "يريد محمدا وأبا بكر الصديق".

ومن ذلك أن أبا قحافة لام ابنه أبا بكر لأنه أنفق أموالا كثيرة على تحرير العبيد والجواري. قال أبو قحافة: "يا بني إني أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك". فقال أبو بكر: "يا أبت، إني أريد ما عند الله". فقال الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى* وصدق بالحسنى، فسنسيره لليسرى).

حين   ومن ذلك ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه: "لقد
ثانيعاب تعالى أهل الأرض جميعا وأثنى على أبي بكر
اللهقال: "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا
اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن
معنا).

ومن ذلك أن المشركين قالوا عن الصديق حين أعتق بلالا: "ما أعتقه إلا أيد (أي نعمة) كانت لبلال عنده". فقال تعالى: (وما لأحد عنده من نعمة تجزى).

ومن ذلك قوله تعالى: (فأنزل الله سكينته عليه) أنزلها على أبي بكر في الغار، لأن الرسول ❐ لم تفارقه السكينة قط.

وقال رسول الله: "يا أيها الناس احفظوني في أبي بكر".

قال الإمام علي عليه السلام: "قال رسول ❐: رحم الله أبا بكر: زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالا من ماله، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر".

وقال أحد كبار الصحابة: "كنت جالسا عند النبي ❐ إذ أقبل أبو بكر فسلم وقال: إني كان بيني وبين عمر بن الخطاب شيء فأسرعت إليه (أي أسأت إليه بكلام)، ثم ندمت. فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك: "فقال (الرسول) يغفر الله لك يا أبا بكر، يغفر الله لك، يغفر الله لك. ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فلم يجده، فأتى النبي ❐، فجعل وجه النبي يتمعر (أي يتغير نطقا ومعنى). حتى أشفق أبو بكر فقال: يا رسول الله أنا كنت أظلم منه، أنا كنت أظلم منه. فقال النبي ❐: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال

صاحبي: صدقت. وواساني بنفسه وماله. فهل أنـتم تـاركو صاحبي لي؟ فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟! فما أوذي أبـو بكر بعدها".

قال علي كرم الله وجهه: "كنت مع رسـول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر وعمر رضـي الله عنهما، فقال عليـه الصـلاة والسلام: هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخـرين إلا النبيين والمرسلين، ولا تخبرهما يا علي".

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد ألـف حـين يجلس إلى أصحابه أن يسألهم ويحاورهم، ليفقههم في الدين، ويحضهم على أن يستبقوا الخيرات، ويعلمهم استكمال مكارم

الأخلاق. فرغ رسول الله من صلاة الصبح، ثم أقبـل بوجهـه

على أصحابه فسألهم: "من أصبح منكم صائما؟". قال عمـر: "يا رسول الله، لم أحدث نفسي بالصوم البارحة، فأصـبحت مفطرا" فقال أبو بكر: "ولكني حدثت نفسي بالصوم البارحة، فأصبحت صائما"، فسأل الرسول: "هل منكم أحد اليوم عـاد مريضـا؟" فقال عمر: "يا رسول الله، لم نبـرح منـذ صـلينا فكيف نعود المريض؟" فقال أبو بكر: "بلغني أن أخـي عبـد

الرحمن بن عوف شاك (أي يشكو المرض)، فجعلت طريقي عليه لأنظر كيف أصبح" فقال الرسول: "هل منكم من أطعم اليوم مسكينا؟" فقال عمر: "صلينا يا رسول الله ولم نبرح" فقال أبو بكر: "دخلت المسجد فإذا سائل، فوجدت كسرة من خبز الشعير في يد ابني عبد الرحمن فأخذتها فدفعتها إليه".

فقال عمر: "ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقني إليه أبو بكر".

لما سمع أبو بكر قوله الله تعالى: (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم...) قال أبو بكر: "يا رسول الله لو أمرتني أن اقتل نفسي لفعلت" قال: "صدقت".

وكان الرسول يعلم تفاني أبي بكر في حبه وطاعته، والتزام سنته.. من أجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام: "لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام ومودته".

ولقد قال الرسول يوما: "ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر" فبكى أبو بكر وقال: "هل أنا ومالي إلا الله يا رسول الله؟" من أجل ذلك قال رسول الله ❐: "ما كلمت في الإسلام أحدا إلا أبى علي، وراجعني الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإنه لم أكلمه في شيء إلا قبله".

وقال عليه الصلاة والسلام: "ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له منه كبوة وتردد ونظرة إلا أبا بكر ما عتم (أي ما تمهل)، وما تردد فيه".

وكان لرأي أبي بكر عند الرسول تقدير خاص، حتى فيما يرتديه من ثياب! وقلما رد الرسول مشورة لأبي بكر.

خرج رسول الله إلى بني قريظة والنضير، فقال له أبو بكر: "يا رسول الله، إن الناس يزيدهم حرصا على الإسلام أن يروا عليك زيا حسنا، فانظر إلى الحلة التي أهداها لك سعد بن عبادة فالبسها (سعد بن عبادة أحد كبار رؤساء الأنصار وأثريائهم)، فليرك المشركون أن عليك زيا حسنا! (وأيد عمر ما قاله أبو بكر). فقال الرسول: "أفعل وايم الله! لو أنكما تتفقان على أمر واحد ما عصيتكما في مشورة أبدا"، وعاد الرسول إلى داره فلبس تلك الحلة الجديدة الحسنة. وكان لم يلبسها منذ أهديت إليه.

ولقد عرف الرسول في صديقه وصديقه الدعة والرقة والرحمة، على الرغم من حدته، فأحب أن يقوي من خلائقه تلك.. قال عنه: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر".. وكان الرسول يحب أن يكفكف من حدة الصديق لتظل الرقة والرحمة والدعة والحلم أفضل شمائله.. قال سعيد بن

المسيب: "بينما رسول الله ❐ جالس مع أصحابه، وقع رجل بأبي بكر فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول ❐ حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: "أوجدت (غضبت) علي يا رسول الله؟" فقال رسول ❐: "نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان".

وروى أحد الصحابة أن رجلا شتم أبا بكر في حضرة رسول الله ❐، فسكت أبو بكر، ولكن الرجل ظل يشتمه فسكت مرارا، ثم اعترته الحدة ورد على شاتمه، فقام رسول الله، فقال أبو بكر: "شتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه قمت!" قال النبي: "إن ملكا كان يجيب فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أجلس عند مجيء الشيطان."
فقال الله تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما).

* * *

وعلى الرغم من ذلك كان الرسول يحب حدة أبي بكر في الحق، وهذه الحدة قد حمت الإسلام حقا بعد أن قبض الرسول، وخلفه الصديق.. فقد كانت حدته في كثير من

الأحايين تعبيرا عن شجاعته، وعن حكمته، وغيرته، ورغبته في أن يفرض على الحياة بعض طيبته.. جادله أحد أحبار اليهود في قول الله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قال الحبر ساخرا بالله ورسوله: "لو كان الله غنيا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ويعطيناه!" فنهره أبو بكر، وزجره زجرا عنيفا، وهو بين قومه اليهود.. وقال له إنه لولا صحيفة الموادعة بين الرسول واليهود، لفتك به عقابا على استهزائه بالله ورسوله!.

وفي سنة تسع من الهجرة جعله الرسول أميرا على الحج، فخرج من المدينة بثلثمائة من المهاجرين والأنصار يريدون بيت الله الحرام، وفي بعض الطريق، وهم يستوون خلف أبي بكر لصلاة الصبح، وقد تهيأ هو للتكبير، سمع من خلفه صوتا يعرفه، فقال: "هذه رغوة ناقة النبي ❐: فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه". فإذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه!

فقال أبو بكر رضي الله عنه: "أمير أم رسول؟" قال علي رضي الله عنه: "لا بل رسول. أرسلني رسول الله ❐ ببراءة

أقرؤها على الناس في مواقف الحج" (براءة هي سورة التوبة).

فلما كان قبل عرفات بيوم قام أبو بكر فخطب الناس، وعلمهم مناسك الحج كما تلقاها من النبي، ثم قام علي فقرأ (براءة)، وتكرر هذا يوم عرفات ويوم النحر (عيد الأضحى)، وأذن علي في الناس مع أبي بكر ومؤذنيه ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

* * *

حتى إذا كانت السنة الحادية عشرة من الهجرة، مرض رسول الله ❐، ولكنه خرج إلى الناس فجلس على منبره وقال: "إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده" ووجم الناس، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، فبكى أبو بكر، وقال: "بل نحن نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله!" فقال رسول الله: "لا تبك يا أبا بكر".

وعجب الصحابة جميعا، ولكنهم عرفوا بعد حين أن الرسول ❐ هو هذا العبد الذي خيره الله بين زهرة الدنيا وبين ما عنده. فاختار ما عند الله، كان الصديق، كما قال عنه علي بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري: "أعلمنا برسول الله ❐".

فلما اشتدت العلة على النبي أمر أبا بكر أن يصلي بدلا منه بالناس. روت عائشة: "لما ثقل رسول الله جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف (سريع البكاء)، وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر. قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فأمروا أبا بكر يصلي بالناس".

غير أن أبا بكر لم يكن موجودا، وكان عمر في الناس، فقال له أحد الصحابة: قم يا عمر فصل بالناس. فتقدم فكبر، فعرف رسول الله صوته الجهير، فقال غاضبا: "فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون!".

"فبعثوا إلى أبي بكر فجاء فصلى بالناس".

فقال عمر لمن أبلغه أن يصلي بالناس: "ويحك! ماذا صنعت بي؟! والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس!" قال: "والله ما أمرني رسول الله بشيء، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس".

* * *

وأمر النبي أن يجهز جيش ليؤمن الحدود الشمالية لبلاد العرب، حيث يتهددهم جند الإمبراطورية الرومانية الشرقية

(الروم). وتجهز الناس، وفيهم عدد من المهاجرين الأولين، وجعل
أسامة بن زيد قائدا للجيش، وهو حينئذ ابن عشرين عاما، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم أي حدود البلقاء والداروم من أرض فلسطين. ولكن بعض كبار السن ضاقوا بإمارة أسامة عليهم.
فلما بلغ الرسول ذلك قال: "بلغني أن أقواما يقولون في إمارة أسامة! ولعمري لئن قالوا في إمارته، لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله! (زيد بن حارثة وكان أميرا على الجيش في مؤتة واستشهد). وإن كان أبوه لخليقا للإمارة، وإنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة!".
ثم قام مستندا على علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس، فخطب الناس. وكان مما قاله: "من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه (فليثأر)، ومن كنت شتمت له عرضه فهذا عرضي فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا إن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له،

أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس..." ثم قال: "يا معشر المهاجرين إنكم قد أصبحتم تزيدون، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم. والأنصار عيبتي (موضع ثقتي) التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم...".

أما جيش أسامة، فقد سار كما أمره الرسول، ولكنه لم يكد يخرج من المدينة حتى اشتد المرض على الرسول، فوقف على مقربة من المدينة ينتظر.

وخرج رسول الله، فصلى بالناس قاعدا، ففرح الناس وحسبوا أنه الشفاء.. وقال له أبو بكر: "يا نبي الله أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب. واليوم يوم بنت خارجة (زوجته الأنصارية) أفآتيها؟" قال له الرسول: "نعم". وذهب أبو بكر إلى داره في السنح خارج المدينة.. وكان الرسول قد قال للناس قبل أن يغادرهم إلى بيته: "يا أيها الناس، سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم!... إني لم أحل لكم إلا ما أحل لكم القرآن، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم عليكم القرآن". ثم دخل بيته، فلم يخرج منه بعد قط، فقد قبض فيه؛ ودفن به!

* * *

لما قبض الرسول زلزل المؤمنون زلزالاً شديدا، وارتجت المدينة بأسرها، وأقبل عمر فأقسم أن يقتل من زعم أن محمدا قد مات!.. ذلك أن عمر كان يحسب أن الرسول لا يموت، فهو منذ سمع قول الله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) منذ سمع تلك الآية حسب أن الرسول سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها!..

وأرسلوا في طلب أبي بكر، فدخل على الرسول فكشف عن وجهه الغطاء، وأدرك أنه مات، فقبل ما بين عينيه وقال: "بأبي أنت وأمي! طبت حيا، وطبت ميتا!" وخرج إلى الناس ثابتا على الرغم من فداحة الكارثة، فقال للناس الذين كادت عقولهم تذهب من الصدمة: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت". ثم ذكرهم بقول الله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين).

وعجب الناس.. لكأنهم لم يسمعوا هذه الآية من قبل!!
وقال عمر: "واالله ما إن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت (دهشت) حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول االله قد مات!".

* * *

تركت وفاة الرسول في الحياة فراغا هائلا، فتتصادم الأحياء، كما يفرغ الهواء من مكان فتتصادم الأشياء!..
ومضى الناس يتناجون: من يخلف الرسول؟! من يكون إماما وحاكما، وهاديا، بعد الرسول؟!
وكره الناس أن يعيشوا يوما واحدا بلا إمام هدى يقتدون به، ليقودهم، وليحكموه فيما شجر بينهم، ولا يجدوا حرجا مما قضى، ويسلموا تسليما..
وتداعت الأنصار، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، والرسول لم يدفن بعد، وأرادوا أن يبايعوا سعد بن عبادة خليفة لرسول االله، فأدركهم عمر وأبو عبيدة ودعوا أبا بكر من بيت الرسول.
وأتوا الأنصار جميعا، فقالوا للأنصار: "ما هذا؟".
فقال الأنصار: "منا أمير ومنكم أمير".

فقال أبو بكر: "منا الأمراء ومنكم الوزراء".

فقال أبو عبيدة: "يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير".

وأراد عمر أن يتكلم فمنعه أبو بكر. وقال للناس: "إني قد رضيت لكم أحد الرجلين عمر أو أبا عبيدة. إن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه قوم فقالوا: ابعث معنا أمينا، فقال: لأبعثن معكم أمينا حق أمين، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وأنا أرضى لكم أبا عبيدة".

فقام عمر فقال: "أيكم تطيب نفسا أن يؤخر رجلا قدمه النبي ❐. فقال بعض الأنصار: "لا نبايع إلا عليا".

وثار جدل وصخب ولجاج.

وانتهى الأمر بالاتفاق على بيعة أبي بكر، فبايعوه جميعا.

قالت عائشة عما جرى في السقيفة: "لما توفي رسول الله ❐، اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير. فذهب أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر. ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ

الناس. فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الـوزراء. فقـال الحباب بن المنذر: لا واالله لا نفعل! منا أمير ومنكم أميـر. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، فبايعوا عمـر أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك، أنـت سـيدنا وخيرنـا وأحبنا إلى رسول االله ، فأخذ عمر بيـده فبايعـه، وبـايع

الناس". ثم بويع أبو بكر بعد ذلك بيعة عامة في مسجد رسـول

االله.

فقال شاعر قرشي:

شكرا لمن هو بالثناء خليق

ذهب اللجاج وبويع الصديق

* * *

الفصل الثالث

الصديق أول الخلفاء

اطمأنت الأنصار إلى بيعة أبي بكر خليفة لرسول الله.

وكان أبو بكر قد ذكرهم بقول الرسول: (❐)" استوصوا بالأنصار خيرا".. فالولاية إذن للمهاجرين، والوصية بالأنصار.. كما قال أبو بكر لهم: "لقد علمتم أن رسول الله ❐ قال: "لو سلك الناس واديا، وسلكت الأنصار واديا، سلكت وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ❐، قال – وأنت قاعد - قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم" فقال سعد بن عبادة: "صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء".

وفي الحق أن الصديق كان أعزف الناس عن الإمارة، وأحرص على حياة من الإحسان، والعمل الصالح، والهدوء والطمأنينة، ولقد حاول أن يدفع الإمارة عن نفسه، ويلقي بها في عنق الفاروق عمر أو أبي عبيدة، ولكن الناس أجمعوا عليه، فقبل البيعة، وهو يقول لهم: "علام تبايعونني ولست أقواكم ولا أتقاكم؟!" وهذا تواضع بلا مراء.. ولكن

لماذا قبل البيعة، فتولى الأمر، وهو كره له؟!.. قال: "قبلتها منهم، وتخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة". ذلك أنه بصلته الحميمة برسول الله □، قد فهم عنه أنه ستكون بعده فتنة، تتلوها ردة! فقبل البيعة يوم قبض الرسول، وهو لم يدفن بعد، لكيلا يمسي الناس ويصبحوا بلا إمام فتخبطهم الفتنة، وما كان الصديق ليترك أمه محمد بعد محمد سدى!

في الغد من يوم السقيفة، صعد عمر المنبر يخطب الذين تجمعوا في المسجد، فقال: "أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدا عهده إلي رسول الله □، ولكني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمورنا، ويكون آخرنا، فإن يك محمد قد مات، فإن الله أبقي فيكم كتابه (القرآن) الذي هدى به رسول الله □، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه به، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغر، وإنه أولى المسلمين بأموركم، فقوموا فبايعوه".

ونادى عمر: "يا أبا بكر اصعد المنبر" فتمهل أبو بكر قليلا، ولكن الناس وعمر ألحوا عليه، وما زالوا به حتى

صعد المنبر، فقاموا فبايعوه، فكانت تلك هي البيعة العامـة، بعد أن بايعه بعضهم بالأمس في سقيفة بني ساعدة.

فـإن وخطب أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه وقـال: "أمـا بعد، أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولست بخيـركم، أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني، الصدق أمانـة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحـق له إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منـه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضـربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قـوم إلا عمهـم الله بـالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وسعد الناس بما سمعوا من ولي أمرهم الجديد، وإن كانت سعادتهم لتخالطها الدهشة! فالسياسة التي تعهد الخليفـة التزامها تليق بحكم النبوة وحدها، وقد ألفوها من النبي، أمـا سائر البشر من الحكام، فقد عرف العرب أن الممالك الكبرى التي حولهم يحكمها رجال يستبدون بالأمر، ويرون أنفسـهم معصومين من الخطأ، ولقد يؤلههم بعد الرعايـا، أو بالقليـل يتمتعون بحق إلهي في حكم رعايـاهم، كمـا يفتـي بـذلك

المرتزقة من الكهان ورجال الدين!.. هكذا حكم الإمبراطور دولة الروم، وحكم كسرى دولة فارس.. وما من أحد حتى من صغار الحاكمين هناك يسمح لأحد من الرعية بمراجعته! فما بال أبي بكر يتواضع هذا التواضع كله للرعية التي هو راعيها، ومسئول عنها، فيطالب رعيته بالمشورة والنصح والتقويم والطاعة فيما يرضي الله، وخلع الطاعة فيما عداه؟!

ولكنها خلافة النبوة.. وما عسى أن يصنع خليفة نبي إلا ما سنه النبي؟!

ولم يدر الناس بماذا ينادونه، فقال له رجل منهم: "أصبت يا خليفة الله". فابتسم أبو بكر، وأخذ بيد محدثه في عطف، حانيا عليه، وقال له: "يا أخي، لست خليفة الله، أنا خليفة رسول الله"..

ونظر أبو بكر في وجوه الناس فلم يجد عليا، ذلك أنه اشتغل بجمع القرآن، وأقسم ألا يخرج إلا إلى صلاة الجمعة، حتى يفرغ من جمع القرآن، فقد خشي عليه أن ينفلت. فلما لم يجده أبو بكر فيمن بايعوه سأل عنه، وتساءل: "أكره علي بيعتنا؟" وكان بنو هاشم في المسجد قد بايعوا أبا بكر جميعا، فأسرع واحد منهم، فأخبر عليا بأمر البيعة، فانطلق علي

بقميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا، كراهية أن يبطئ عن الصديق، حتى بايعه.. ثم جلس فأحضر ثوبه، ولزمه.

ولما خرج الناس من المسجد، أقبل أبو سفيان فوجد العباس وعليا، فقال مستفزا: "يا آل عبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم؟! أين المستضعفان، أين الأذلان: علي والعباس!؟" فلم يحفل به علي، ولا العباس وانصرفا عنه، ولكنه بعد ذلك رأى عثمان وعليا، فأتاهما قائلا: "يا بني عبد مناف (عبد مناف هو أبو أمية جد عثمان وهاشم جد علي) غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت من قريش! أما واالله لأملأنها عليهم خيلا ورجلا!" فانفجر فيه علي عليه السلام، قائلا: "ما زلت عدوا للإسلام وأهله، فما ضر ذلك الإسلام وأهله شيئا.. إنا رأينا أبا بكر لها أهلا".

لما سئل لماذا بايع أبا بكر قال الإمام علي: "مرض رسول الله (❐) ليالي وأياما، ينادى للصلاة فيقول: مروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما قبض رسول الله، نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام، وقوام الدين فرضينا لدنيانا ما رضي رسول الله (❐) لديننا، فبايعنا أبا بكر". ثم قال: "خرج رسول الله ❐،

وخرج معه أبو بكر، لم يأمن على نفسه غيره، حتى دخلا الغار".

وروى علي: "قال رسول الله ❐ لأبي بكر: إن الله أعطاني ثواب من آمن بي منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، وإن الله أعطاك يا أبا بكر ثواب من آمن بي منذ بعثني إلى يوم أن تقوم الساعة".

وقد سمع أبو قحافة وهو بمكة صياحا وعويلا ونشيجا يرج آفاقها، فسأل: "ما هذا؟" قالوا: "قبض رسول الله ❐" فقال: "أمر جلل، فمن ولي بعده؟" قالوا: "ابنك"، قال: "فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟" قالوا: "نعم" قال: "لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله".

* * *

أقبل نفر على أبي بكر يمدحونه، فقال: "اللهم أنت أعلم مني بنفسي، وأنا أعلم منهم بنفسي، اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون".

وقد أخذ الخليفة نفسه بسنة النبي، والتزمها التزاما حازما حاسما.. وراض نفسه على الزهد بعد الخلافة، أكثر

مما كان قبلها، ودعا الله ألا يغير ما أصبح عليه اليوم، ما كان فيه بالأمس.

وما عرضت له الدنيا بزينتها، إلا تمثل بقول رسول الله: "مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم تركها".

ولطالما قال أبو بكر: "ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة، ولا طلبتها في سر ولا علانية، ولكني قبلتها لكيلا تكون فتنة تتبعها ردة!".

وقف يخطب الناس يوما فقال: "يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم تكلفونني ما كان رسول صلى الله عليه وسلم يطيق! إن الله اصطفى محمدا على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فاتبعوني، وأن زغت فقوموني. وإن رسول الله ❐ قبض، وليس أحد من هذه الأمة يطالبه بمظلمة، ضربة سوط فما دونها. ألا وإنما لي شيطان يعتريني (يعني حدته)، فإذا أتاني فاجتنبوني!".

وكان أبو بكر رضي الله عنه، مذ ولي الأمر لا يترك فرصة إلا علم الناس فيها، مما علمه الله ورسوله، من

مكارم الأخلاق، وكظم الغيظ، والعفو عن النـاس، والعـدل معهم، والإحسان إليهم، والبر بهم، والمعاملـة الطيبـة، وأن يقولوا للناس حسنى.

قال: "كنت عند رسول الله - ❐، فنزلت الآية: **(من يعمل سوءا يجز به)** فأقرأنيها، فلا أعلم إلا وجدت انقصـاما (انكسارا) في ظهرى حتى تمطيت لها".

وقال: "من أوتـي القرآن، فرأى أن أحدا أوتـي أكثـر مما أوتـي، فقد صغر عظيما يقول الله عز وجل: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم)".

وقال: "أربع من كن فيه كان من خيار عباد الله: من فرح للتائب، واستغفر للمذنب، ودعا للمدين، وأعان المحسن على إحسانه".

ومر به رجل ومعه ثوب فقال: "أتبيع الثوب؟" قـال الرجل: "لا، عافاك الله" قال أبو بكر رضي الله عنـه: "قـد علمتم! قل: لا، وعافاك الله".

وكان إذا عزى أحدا قال: "اذكروا فقد رسول الله ❐ تـهن عليكم مصيبتكم".

أراد أعرابي أن يمتحن صبر الخليفة وحلمه، ليبلـوه أهو من الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، كما يـأمرهم، فقال له في جفاء وغلظة: "يا أبا بكر واالله لأشـتمنك شـتما يدخل معك القبر!" فقال له مبتسـما: "معـك يـدخل واالله لا معي!".

ها هو ذا الآن يخلف أحب الناس إليه، وأعزهم عليه، سيد المرسلين! وإنه ليشعر بعد فقده محمدا أنه وحيد غريـب وإن كثر حوله الصحاب!! أشد وحدة واغترابـا مـن طفـل تناوحت به الصحارى الموحشة، تحت ظلمات الليل الداجي!ها هو ذا الصديق يحمل مسئولية الرعية، وما أثقلها أمانة!.. أمانة لو عرضـت علـى السـماوات والأرض أن يحملنها لأشفقن منها وأبين.. ولكنه يجب أن يحملهـا.. إذن فلتكن له في رسول االله أسوة حسنة، فهو يرجـو االله واليـوم الآخر.

وإنه الآن ليكفكف من حدته، التـي وصـفها بأنهـا شيطان يعتريه، والتي عانى منها عمر، وقال: "كنـت أداري منه بعض الحدة". فلتكن هذه الحدة منذ اليوم شدة في االله.

لكم يشفق هذا الراعي الجديد من مسئوليته عن الرعية! ويحسب الناس أن ولاية الأمر جاه، وسلطان، وهيبة!! ليته قذف بها في عنق أحد الرجلين: الفاروق أو أبو عبيدة، فكان أحدهما أميرا، وظل أبو بكر كما كان في عهد الرسول وزيرا!

إنه ليشعر أن الله سيحاسبه حسابا عسيرا.. سيحاسبه عن أدنى حاجة للناس لم يكفها..! عن أي فم يطلب طعاما! عن أي بيت يلتمس أمنا، وسعة وعدلا! يا لتعاسة من يلي أمرا من أمور الناس!

وقف على المنبر، فقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله: "أيها الناس، ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك!".

فرفع الناس رءوسهم متعجبين، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون!

فقال: "ما لكم يا معاشر الناس؟!.. إنكم لطعانون عجلون. إن الملك إذا ملك زهده الله فيما بيديه، ورغبه فيما بيدي غيره، وانتقصه شطر أجله (أي نصف عمره)، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل، ويتسخط الكثير، ويسأم

الرخاء، وتنقطع عنه لذة البهاء، لا يستعمل العبرة، ولا يركن إلى الثقة. هو كالدرهم القسي (الزائف)، والسراب الخادع، جليل الظاهر، حزين الباطن، فإذا وجبت نفسه (أي ماتت)، ونضب عمره، وضحا ظله (أي توفي)، حاسبه الله، فأشد حسابه، وأقل عفوه، ألا إن الأمراء هم المحرومون، والفقراء هم المرحومون، إلا من آمن بالله، وحكم بكتاب الله وسنة رسول الله. وإنكم اليوم لعلى خلافة نبوة، ومفرق محجة (طريق)، وسترون بعدي ملكا عضوضا (مستبدا)، وملكا عنودا، وأمة شعاعا (متفرقة)، ودما متاحا (مراقا)، فإن كانت للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر، وتموت السنن، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن، والزموا الطاعة، ولا تفارقوا الجماعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر..".

أن يكون الرجل في خلافة نبوة!.. أي قدر مقدور هذا؟! خليفة نبي، وأي نبي!؟ سيد المرسلين!

* * *

رأى كثير أن أبا بكر لن يقوم مقام سيد المرسلين، فاستخفوا به، وسخروا منه، وبدلا من أن يتحدثوا عنه بكنيته

الشائعة، وهي أبو بكر، كنوه أبا فصيل (البكر هو الفتي القوي من الإبل، والفصيل منها هو الصغير الضعيف).. ولقد رد عليهم الذين يعرفون شجاعة أبي بكر وحكمته وقوته: "احذروا.. لا يهزأ منه قوم! فستجدونه أبا فحل حقا. إن أبا بكر لمن دهاة العرب".

لم يكد أبو بكر يحمل الأمانة، وما أشقها: خلافة النبوة، حتى ارتدت أحياء العرب قاطبة: فمنهم من خرجوا من الإسلام برمته، ومنهم من رفضوا أحد أركان الإسلام. رفضوا الزكاة..

وهكذا وجد خليفة رسول الله نفسه أمام هموم ثقال، تهيض الجبال الراسيات: ملء الفراغ الهائل المروع الذي تركه غياب الرسول.. وهيهات! هيهات!! ثم إنفاذ جيش أسامة إلى الروم، ليطأ أرض الأردن وفلسطين مما يلي بلاد العرب، فيرعب الروم، ويفرض هيبة الإسلام، ويصلح ما أفسدته هزيمة مؤتة التي استشهد فيها فيمن استشهد ثلاثة من خيرة الصحابة: زيد بن حارثة، ثم جعفر ابن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، والتي اعتبر فرار خالد بن الوليد منها،

بالجيش سليما، مهارة حربية، أنقذت الجيش من الفناء الكامل!

وهم آخر ثقيل: الردة!

وإلى كل ذلك ما شجر بينه وبين سيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، بنت محمد سيد المرسلين..فقد اختلفت هي وزوجها علي مع خليفة رسول الله، فتألمت لذلك، فوق حزنها على أبيها، وهو حزن جليل، مزق قلبها، وأحرق كبدها، وأمرضها حتى لحقت به.. وكان أبو بكر قد سمع من أبيها: "رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة أسخطني". فتحزن أبو بكر عليها، وتوجع لها!

كما تصطدم الأشياء بعضها ببعض في كل مكان فرغ منه الهواء، تخلخلت الحياة بعد فراغها من وجود الرسول، فزلزت الدنيا، واصطدم الأحباء والأخلاء، وهم واجمون! وكأن الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، وهم لا يشعرون!

إلى كل أولئك كانت بعض أحياء العرب التي ارتدت تستعد للوثوب على المدينة، للفتك بالمسلمين، والقضاء على الإسلام.

وكان على الخلافة أن تواجه كل تلك الأعباء، بعد أن ورثت النبوة.

لم يبق على الإسلام غير المدينة ومكة والطائف!.. وحتى المدينة، اشرأب فيها النفاق، وتبجح، وتمطى الذين مردوا على الكفر في المدينة، وما حولها، وتهيئوا للانقضاض عليها!

* * *

أما جيش أسامة بن زيد فلم يكن قد ابتعد عن المدينة أكثر من ميل، ثم وقف لم يبرح الأرض، منذ عرف أن المرض اشتد على الرسول، فلما قبض، وارتجت آفاق المدينة بالهول، انفرط الجيش، وعاد رجاله إلى المدينة باكين، ولبثوا بها، وكان في الجيش عمر بن الخطاب، جنديا من جنود أسامة بن زيد..

وكان بعض كبار الصحابة قد استنكفوا من أن يكون أسامة أميرهم، وهو بعد في نحو العشرين، ولكن الرسول

نهرهم، وأمرهم أن يسيروا تحت لواء أسامة، فساروا برمين به!! كيف يقودهم فتى في العشرين، وهم أصحاب أسنان، وسابقة في الإسلام، وخبرة كبيرة في الحرب والطعان، اكتسبوها وأسامة هذا بعد غلام!!

فكان أول ما بدأ به خليفة رسول الله أن أمر مناديه، فنادى بالناس، بعد أن دفن الرسول في حجرة عائشة التي قبض بها: "ألا لا يبقين في المدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى معسكره".

وكان هذا النداء يتجاوب في آفاق المدينة بما تنادى به المؤمنون الصادقون: "ارتدت العرب قاطبة، ونجم النفاق، وعاد الكفر، وظهر الفساد في البر والبحر!".

وهكذا ما بين يوم وليلة، فقد المؤمنون محمدا ﷺ، وأصبحوا قلة، وكثر عدوهم.. فذهب بعض الصحابة يتكلمون مع خليفة رسول الله عن جيش أسامة، فقال قائلهم: "إن هؤلاء جل (أكثر) المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين". فقال أبو بكر: "والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني،

لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله ❐. ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته!".

وقال أسامة أمير الجيش لعمر بن الخطاب الجندي بذلك الجيش: "ارجع إلى خليفة رسول الله ❐، فاستأذنه، يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله (❐) ولا على أهل المدينة أن يتخطفهم المشركون".

وقال الأنصار لعمر: "فإن أبي إلا أن نمضي، فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة". فجاء عمر إلى أبي بكر، فأبلغه أن أسامة يرى أن يعود بالجيش إلى المدينة، وأيد عمر هذا الرأي، لاحتياج المدينة إلى الجيش، بعد أن نجم النفاق، وارتدت أحياء العرب، إلا قليلا، فقال أبو بكر: "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ❐، ولو أن الطيور تخطفنا، والسباع من حول المدينة تأكلني، ولو أن الكلاب جرت بأمهات المؤمنين، لأجهزن جيش أسامة، وآمر الحرس أن يكون حول المدينة، ولن أرد قضاء قضى به رسول الله ❐. فقال عمر: "كيف ترسل هذا الجيش والعرب قد اضطربت عليك؟!". فانتفض

جسده النحيل، وقال: "يا عمر، لو لعبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة، ما رددت جيشا أنفذه رسول الله (ﷺ)" قال عمر: "فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة".

فغضب أبو بكر غضبا شديدا، وأخذته حدة عظيمة، حتى لقد وثب، وكان جالسا، فأمسك بلحية عمر قائلا: "ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟! كيف أؤمر غير من أمر رسول الله؟!".

وخرج عمر، وعاد إلى الجيش فسألوه، فأجابهم متغيظا عليهم: "امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت بسببكم اليوم من خليفة رسول الله ﷺ!"

فجاء أبا بكر بعض شيوخ الصحابة، فقالوا: "يا خليفة رسول الله ! رد هؤلاء! توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب من حول المدينة؟!"

فقال: "والله الذي لا إله غيره، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله، ولو خطفتني الذئاب، أنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولما رددت جيشا وجهه

الرسول. ولا حللت لواء عقده الرسول، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذت جيش أسامة".

ثم مضى إلى خارج المدينة، ومعه عبد الرحمن بن عوف يقود له دابته، حتى إذا بلغ معسكر الجيش، استعرضهينسب كل جماعة لقبيلتهم، فلما مر بين فزارة قالوا: "نحن أحلاس الخيل (أي ملازموها) يا خليفة رسول الله، وقد قدناها معا". قال: "بارك الله فيكم".

ثم أمر أسامة أن يمضي بالجيش، وعليه اللواء الذي عقده الرسول وسار أبو بكر معهم على قدميه، ورأى أسامة خليفة رسول الله يمشي، فأحس بالحرج، وقال له: "يا خليفة رسول الله، واالله لتركبن أو لأنزلن". قال: "واالله لا أركب ولا تنزل، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؟ فإن للغازي في كل خطوة سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له، وتمحى عنه سبعمائة خطيئة".

وبعد قليل أخذ بيد أسامة وقال: "إن رأيت أن تعينني بعمر بن الخطاب فافعل". فسرحه أسامة، ليظل في المدينة وزيرا للخليفة، فكان عمر كلما قابل أسامة بعد ذلك قال له: "السلام عليك أيها الأمير".

ثم وقف أبو بكر ينصح الجيش، ويعظه، ويؤدب الجند بآداب الحرب، التي تعلمها من الرسول. قال الخليفة الصديق، لأسامة وجنده: "قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها عنى: لا تخونوا ولا تغلوا (لا تأخذوا شيئا من الغنائم خفية قبل القسمة)، ولا تغدروا، ولا تمثلوا (لا تشوهوا القتلى)، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا (أي تقتلعوا) شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..".

وسار الجيش، وعرفت القبائل المرتدة بأمره، وكانت قد أجمعت الزحف على المدينة، فكان كلما مر جيش أسامة بحي من العرب قالوا: "لولا أن بهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم. ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم!".

ولما عاد أبو بكر إلى المدينة لينهض بمسئولية الحكم قال له عمر: "أنا أكفيك القضاء"، وقال له أبو عبيدة: "أنا أكفيك المال". فجعله على بيت المال.

وجعل الخليفة عثمان كاتبه، واتخذ خاتما، جعل نقشه نعم القادر الله.

وكان أبو بكر يعيش على التجارة، فهو يغدو كل صباح إلى السوق يشتري ويبيع.. فذهب إلى السوق من غده كما تعود، وعلى رقبته بعض أثواب، فلقيه في بعض الطريق، عمر الفاروق، وأبو عبيدة، فقالا له: "أين تريد يا خليفة رسول الله؟". قال: "السوق" قالا: "تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين؟!" قال: "فمن أين أطعم عيالي؟" قالا: "انطلق معنا حتى نفرض لك شيئا". قال: "لا تطيب نفسي بأن آكل وأطعم إلا من عملي".

كان كثير النفقات، كثير الصدقات، فقد كانت تجارته تدر عليه ربحا كبيرا.. وكان يكسب من قبل ما يزيد على نفقة عياله، ويتصدق بالباقي، أو يلقيه في بيت مال المسلمين، ليوجهه الرسول إلى المصارف التي تحتاج إليها الأمة، وقد تعود أن يعين ذوي الحاجات على نوائب الدهر، ويمر بالثياب على النساء الأرامل، فيكسوهن وأطفالهن.. فمن أين يأتي بكل هذه النفقات إن هجر التجارة؟!

وأصبح الخليفة فغدا إلى سوق المدينة يبيع ويبتاع، كما تعود، فجاء نسوة إلى داره يشكون في حاجات لهن، فلم

يجدنه، ورآهن عمر أمام باب الخليفة، فسألهن: "ما شأنكن؟" قلن: "نريد خليفة رسول الله ❐".

فذهب عمر يبحث عن الخليفة، فوجده في السوق، فأخذ بيده، ثم قال له: "تعال هنا!" فجذب الخليفة يده من عمر، وقال: "لا حاجة لي في إمارتكم! لا آكل من فيء المسلمين".

وأقبل علي بن أبي طالب وهما يتحاوران، فرأى أن يفرغ أبو بكر لهموم الخلافة، كما رأى عمر وأبو عبيدة، ومرة أخرى تحرج الصديق من أن ينال شيئا من أموال المسلمين، وهو قادر على الكسب بعمل يديه، ولكن كبار الصحابة ظلوا به حتى قبل أن يفرغ لخلافة النبوة، فقبل أن ينال من بيت المال ما يعينه وأهله على الحياة، وفرضوا له رداء للصيف، ورداء للشتاء، فإذا أخلقهما أخذ غيرهما، وفرسا أو بعيرا إذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل الخلافة، ولكنه أبى أن يقبل أكثر من ثلاثة دراهم كل يوم!

وكانت لأبي بكر أغنام يرعاها بنفسه قبل الخلافة، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما أصبح خليفة، سمع إحدى جاراته تقول: "الآن لا يحلب لنا منايح دارنا (أي أغنامنا)!"

فضحك أبو بكر، وقال لها: "بل لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه". وظل يحلب أغنام الحي، ويسأل صاحبات الغنم، أيردن اللبن برغوته، أم بغير رغوة، فيحلبه لهن كما يطلبن!

* * *

وقد حاول أبو بكر أن يذهب عن نفسه الحزن على وفاة الرسول، وأن يواسي آل بيته، وكان أدناهم إلى الرسول وأحبهم/ ابنته فاطمة، وزوجها علي، وولداهما الحسن والحسين..

وقد خرج يوما من المسجد بعد صلاة العصر، فوجد الحسن بن علي يلعب مع الصبيان، فرفعه بيده، وأجلسه على كتفه النحيل، وجعل يهدهده قائلا: "بأبي شبه النبي! ليس شبيها بعلي". وعلي يضحك.. كانت أولى ضحكاته منذ قضى الرسول!

وارسلت فاطمة الزهراء رضي الله عنها إلى أبي بكر رضي الله عنه تطلب إرثها من أبيها، فرد عليها أنه سمع رسول الله يقول: (نحن الأنبياء لا نورث، فما تركناه صدقة).

فما كان جوابها رضي الله عنها إلا أن قالت: "أنت وما سمعت من رسول الله". (أي التزمه).

وكان حزنها على أبيها يهد كيانها، ويحرق صباها، حتى لقد كانت تلزم الفراش، موجعة أغلب الوقت، في انتظار أن تلحق به، كما همس في أذنها وهو في مرضه الأخير.

فأسرع أبو بكر وعمر يعودانها، فقال لها أبو بكر: "يا بنت رسول الله ، ما خير حياة أعيشها وأنت علي ساخطة؟ فإن كان عندك من رسول الله عهد، فأنت الصادقة المصدقة، المأمونة على ما قلت".

قالت: "لا أكلمكما".. وكان عمر على رأي أبي بكر فيما تركه النبي.. فلما سمعت ما رواه أبو بكر عن أبيها، رأت ألا تكلمهما في أمر الميراث.. ولكن ما حدث في الحياة من اضطراب وتخلخل، بعد وفاة الرسول، جعل الأشياء والأحياء يصطلك بعضهم ببعض.

فخرج أبو بكر من عندها دامع العينين، وفي ظنه أن فاطمة ساخطة عليه، غاضبة منه، فلقي الناس فقال لهم: "يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته، مسرورا بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم!" قالوا: "يا

خليفة رسول الله، إن هذا الأمر لا يستقيم، وإن كان لم يقم الله دين، وأنت أعلمنا بهذا" قال: "والله لولا هذا، ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة!".

وكان لرسول الله أرض في فدك وأرض في خيبر، مما أفاء الله عليه، ومن سهمه في الغنائم، وكان رسول الله يأخذ مما تنبته الأرض ما يكفي نفقة عام له ولأهل بيته، ويضم الباقي إلى مال الله، أي إلى المال العام، لإنفاقه على مصالح الأمة.. فطلبت فاطمة من الصديق أن يدير زوجها هذا المال، ويسير فيه سيرة رسول الله، فهو أولى الناس بذلك.

فقال أبو بكر: "إني والله لا أغير شيئا من صدقات النبي التي كانت عليها في عهده ❒، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله".

فذكره علي بقرابتهم من رسول الله، وحقهم، فقال أبو بكر: "والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي. ولفاطمة أحب إلي من عائشة! وما شجر بيننا لم آل (أقصر) فيه عن الخير، ولم أترك أمرا صنعه رسول الله ❒ إلا صنعته".

ثم إن المرض ثقل على سيدة نساء العالمين، وعرف في وجهها الموت، فلما عرف أبو بكر أسرع إلى دارها ليعودها، فقال لها علي: "هذا أبو بكر يستأذن عليك" فقالت: "أتحب أن آذن له؟" قال: "نعم" فدخل عليها فقال: "والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم يا أهل البيت.." وما زال يترضاها حتى رضيت.

وحين توفيت جهزتها امرأته أسماء بنت عميس..

لما خرج أسامة بجنده، جعل غايته أن يحقق ما أمره به الرسول قبل متوفاه، وما أوصاه به خليفة الرسول..

وكان الرسول قد أمر أسامة بأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم (جنوب الأردن وفلسطين)، وأن ينزل على أعدائه في عماية الصبح، قبل أن ينبلج النهار، بل قبل أول شعاع من الفجر، فيمعن في العدو قتلا، وأن يحرقهم بالنار، وأن يعمل ذلك كله بغتة، وتباعا في سرعة خاطفة، حتى لا تترامى أنباؤه إلى أعدائه، فإذا جاءه النصر من الله، فليعد من فوره بسلام!

وكان الرسول يحب أن يدفع بالشباب للنهوض بالأعباء الجسام.. وكان يعرف شجاعة أسامة، وقدرته، وقد خرج أسامة يجاهد مع المسلمين، يوم أحد شاهرا سيفه، ولكن الرسول أعاده، لأنه كان ما برح حدثا صغير السن.. ولقد رأى الرسول حسن بلائه يوم حنين، عندما بلغت القلوب الحناجر، وعندما فر الصناديد عن رسول الله، والرسول يدعوهم إلى أخراهم، ولولا ثبات نفر كأسامة مع الرسول لدارت الدائرة على المسلمين! إن ما يريده الرسول بالحملة على أرض الروم التي تجاور بلاد العرب، لا يمكن أن يحققه إلا من اجتمعت فيه الجسارة والإقدام، ثم الرغبة العارمة المتأججة في الانتقام.

وما من أحد كأسامة تجتمع فيه هذه الشروط، وتضطرم بأعماقه تلك المشاعر، مختلجة بالشجاعة، والقدرة على اقتحام الخطر.. فما زال الفتى أسامة يذكر استشهاد أبيه زيد بن حارثة على تلك الأرض، التي استشهد عليها أميران للجيش بعد زيد، هما جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وما زال بعض جند تلك الحملة يتعذبون كلما دهمتهم ذكرى المعركة، ورجع الصدى من إزاء أهل المدينة عليهم،

إذ تتجاوب آفاقها حينئذ بصياح الاستنكار: "يا فرار! يا فرار!"، على الرغم من أن الرسول كان يخفف عنهم! إذ قال للناس: "بل هم الكرار إن شاء الله".. ما من جندي في ذلك الجيش الذي نجا بنفسه بإحدى حيل خالد العسكرية إلا سار يدفعه الحرص العظيم على غسل العار، وعلى النصر أو الاستشهاد.

ولم يكد جيش أسامة يضرب في الصحراء إلى حدود دولة الروم (الإمبراطورية الرومانية الشرقية)، حتى أقبلت وفود أحياء العرب أرتالا على المدينة، تريد أن تلقى خليفة رسول الله.

وكان يخشى أن يطمع غياب الجيش عشائر الأعراب حول المدينة، فيثبوا عليها، فأقام على مداخل المدينة كلها حرسا قويا، وجعل عليه أميرا من أشجع المهاجرين، لأنه لم يرد أن يجشم الأنصار أكثر مما تجشموا، على الرغم من أن الأنصار قالوا له: "إنا أنصار رسول الله، ونحن أنصار خليفته، كما كنا أنصاره".

لكنه آثر يعفي الأنصار من عناء القيادة، وحسبهم أن يدافعوا عن المدينة إن هاجمها أحد! أما إمرة الحرس، بما

يجب عليها من مشقة وسهر ومكابدة، فقد جعلها لشجعان المهاجرين: علي، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. فكانوا يقيمون بالعراء خارج المدينة، كل منهم على رأس جماعة على أحد مداخل المدينة، أو دروب الصحراء المؤدية إليها.

فلما جاءت الأعراب إلى المدينة، ضيفهم وجهاؤها من المهاجرين والأنصار، إلا العباس، فقد أبى أن يضيف أحدا من الأعراب، إذ كان يعلم أي أمر منكر أقبلوا له! لقد أقبلوا يريدون أن ترفع عنهم الزكاة!.. أقروا بالصلاة، وبسائر أركان الإسلام، ولكنهم امتنعوا عن أداء الزكاة، وجاءوا يساومون خليفة رسول الله في ذلك، وهم يعلمون أن جيش المدينة مجتهد في السير إلى شمال الجزيرة وجنوب بلاد الروم وأن أحياء العرب البعيدة عن المدينة قد ارتدت عن الإسلام، وقام فيها أهل الشعوذة من الرجال والنساء يدعون النبوة..!

وأقبل عمر على أبي بكر فقال: "إذا منعك العرب الزكاة فاصبر عليهم". فغضب أبو بكر غضبا شديدا، وقال: "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ❐ لقاتلتهم

عليه، والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة". قال عمر: "مع من تقاتلهم؟" قال: "والذي نفسي بيده لو لم يبق في القرى غيري لقاتلتهم بمفردي". قال: "يا خليفة رسول الله تـألف الناس وارفق بهم. فإنهم اليوم بمنزلة الوحش".

فاشتد غضب الصديق، وانتفض كيانه النحيل الهزيل الضعيف، وارتفع صوته الهادئ الأسيف، وقال محتدا علـى عمر: "رجوت نصرتك، وجئتني بخـذلانك؟! أجبـار فـي الجاهلية خوار في الإسلام؟! بماذا أتألفهم؟! بشعر مفتعل، أو بسحر مفترى!؟ هيهات هيهات! مضـى النبـي ❐ وانقطـع الوحي. والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي".

قال عمر: "علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ❐ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الله وأن محمـدا رسول الله؟! فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأمـوالهم إلا بحقها". قال أبو بكر: "إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة" قال عمر وهو يتذكر ما كان مـن هذا الأمر: "فما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبـي بكـر للقتال، فعرفت أنه الحق".

لقد خشي أبو بكر أن يساوم في ركن من أركان الدين، فينهار الدين كله.. ثم إنه قد تلقى من الرسول أن الزكاة هي حق الفقراء في أموال الأغنياء، فمن أين إذن ينفق ولي الأمر على مصالح الأمة، إن لم يؤد القادرون زكاة أموالهم؟!. لقد علمه الرسول أن أموال الزكاة هي التي تمكن ولي الأمر من أن يغني العائلين، وأن ينهض بمسئولية تحقيق العدل والإحسان. إن الله يأمر بالعدل والإحسان، فأموال الزكاة حق معلوم للسائل والمحروم، وهي بعد أداة ولي الأمر لتحقيق مصالح الناس".

وأتى وجوه الناس أبا بكر، معهم سفراء الأعراب، من عبس وذبيان وسائر القبائل مما حول المدينة، يقرون لخليفة رسول الله بالصلاة، ويعلنونه أنهم سيمتنعون عن أداء الزكاة، فبعضهم يراها إتاوة تفرضها المدينة، وهذا هوان حقا..! وأحسنهم قولا يحتج في امتناعه عن إيتاء الزكاة بالقرآن!.. قال قائلهم: "قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) فلسنا ندفع زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا (يعني الرسول)".

ثم أنشد شاعرهم:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا

فوا عجبا ما بال ملك أبي بكر؟!

فأصر أبو بكر على أن يؤتوا الزكاة، وأقسم لهم أنهم لو منعوه جديا صغيرا كانوا يؤدونه لرسول الله، فسيقاتلهم عليه!.. وكرر وعيده بأنه سيقاتل من فرق بين الزكاة والصلاة، ولو لم يبق في المدينة غيره، لقاتلهم وحده، ما استقام السيف في يده!

فانصرفوا غاضبين.. وتتوالى الأنباء دراكا بردة العرب جميعا إلا مكة والطائف!

فقال نفر من الصحابة لأبي بكر: "يا خليفة رسول الله، إن رسول الله ❐ كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده الله بهم، واليوم قد انقطع كل ذلك، فالزم بيتك ومسجدك، فإنه لا طاقة لك بالعرب". فقال أبو بكر: "أوكلكم رأيه هذا؟" قالوا: "نعم" فقال: "والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلي من أن يكون هذا رأيي! قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص وأنا حي؟!"

ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وكبره، وصلى على النبي، ثم أقبل على الناس فقال: "أيها الناس، من كان

يعبد محمد فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبـد الله فـإن الله حي لا يموت. أيها الناس، الآن كثر أعداؤكم وقل عـددكم.. والله ليظهرن هذا الدين علـى الأديـان كلهـا ولـو كـره المشركون. قوله الحق ووعده الصدق: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) و (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصـابرين) أيها الناس، لو أفردت من حكمكم (أي أصـبحت بمفـردي) لجاهدتكم في الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسي عـذرا، أو أقتل مقتلا.. أيها الناس، إن من حولكم من العـرب منعـوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم – وإن رجعوا إليـه – أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما قد تقدم من بركة نبيكم ❐، وقـد وكلكـم إلـى المولى الكافي، الذي وجده ضالا فهـداه، وعـائلا فأغنـاه، (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منهـا). والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله، حتى ينجز الله وعـده، ويـوفي لنـا عهده، ويقتل من يقتل منا شهيدا من أهل الجنة ويبقى من بقي منا خليفته وذريته في أرضه: (وعد الله الذين آمنـوا مـنكم وعملـوا الصـالحات ليسـتخلفنهم فـي الأرض)

و (يا أيها آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) صدق الله العظيم.

ثم نزل وفي أغواره يضطرم الإصرار على الجهاد.. وكأنما شعت من أعماقه المحتدمة جذوة الحماسة والإيمان، فألهبت الآخرين!.

أيملك هذا الشيخ النحيل الهزيل كل هذا العرام والاضطرام؟!..

ودهم الحياء والإحساس بالمعرة رجال المدينة الذين يناشدون الشيخ ألا يحارب، وأن يصانع المرتدين! وها هو ذا أبو بكر الشيخ الذي يحمل وقر أكثر من ستين عاما، يتوقد في أعماقه وهج رائع يضيء ما حوله!!

وأخذ رجال المدينة ينظر بعضهم إلى بعض في إحساس بالخجل.. ،أقبل بعضهم على بعض يتلاومون.. إن أكبرهم سنا يصغر أبا بكر بنحو عشرين عاما.. وعشرون عاما ليست بالشيء الهين!. إنها عمر شاب يقود جيوش المسلمين الآن ليرعب الروم، ويفرض هيبة الإسلام!

وتداعى رجال المدينة إلى حرب أهل الردة، وأضاء ليلها الداجي المتوتر لهب العزمات، وارتجت آفاقها الحزينة بالنداءات..

وقال أبو بكر للناس: "إن الأرض كافرة، وقد رأى وفود الأعراب منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلا يأتون أم نهارا.. وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا..".

وإنهم لكذلك إذ جاء الخبر إلى خليفة رسول الله أن المسلمين في اليمن وثبوا على السود العنسي الذي أعلن الردة، وفسق في الأرض، وسفك فيها الدماء..

وكانت هذه البشرى زادا من القوة ألهبت المشاعر، وقال الناس إنه أول الفتح إن شاء الله.

أما وفود الأعراب، فقد رجعوا إلى قبائلهم حول المدينة. فأخبروهم بقلة العدد والعدة في المدينة، وأغروهم بالوثوب عليها.

وبعد ثلاثة أيام أرسل حرس المدينة للخليفة أن الأعراب يزحفون على المدينة، حتى لقد أوشكوا أن يقتربوا من أبوابها، فأمر أبو بكر أمراء الحرس أن يثبتوا في

أماكنهم. ثم انطلق يحشد أهل المدينة، وخرج بهم على الإبل، فوافى المهاجمين خارج المدينة.. وفوجئ الأعراب بقوة لم يحسبوا حسابها، وطاردهم أبو بكر، فلاذوا بالفرار، بعد أن ضم إليه الحرس الذي أقامه على مداخل المدينة.

فلما التقى بجيوش الأعداء. وأدرك أن المسلمين سيظهرون عليهم، وعلموا أن الإبل التي يحارب عليها المسلمون ليست إبل حرب، ولا خبرة لها بمكايد الحرب وحيلها، جاءوا بجلود رقيقة فنفخوها، وأحكموا إغلاقها، فأصبحت كرات كبيرة، ثم قذفوا بها إبل المسلمين، فاضطربت، وفرت مذعورة إلى المدينة!

فلما رأى الأعراب ذلك صح عندهم أنهم ظفروا بأهل المدينة، فلن تقوم للإسلام قائمة بعد، فبعثوا إلى عشائرهم، والتقوا يحتفلون بالنصر، ويعدون العدة لغزو المدينة نفسها، والقضاء على المسلمين في عقر دارهم..

أما أبو بكر فقد سهر يعبئ المسلمين، حتى إذا كان الهزيع الأخير من الليل، سار بهم إلى الأعداء، فلما طلع الفجر وجدوا الأعداء نياما، فانقضوا عليهم بغتة، وأثخنوا فيهم، وفوجئ الأعداء بسيوف المسلمين تأخذهم من كل

أقطارهم، وأحدث فيهم أبو بكر مقتلة عظيمة، أما الذين نجوا من القتل، فقد ولو الأدبار، ولاذوا بالفرار!

وكان هذا أول ما أذهب الروع والحزن عن المسلمين وسرهم منذ قبض الرسول.

وأرادت الأعــراب أن تثـــار لهزيمتهـــا، فانقضـــت عشائرها على من بقوا فيها من المسلمين، فقتلوهم جميعـا! فلما علم بذلك أبو بكر أقسم أن يقتل من هذه القبائل عدة مـا قتلوا من المسلمين.

* * *

ورجع أبو بكر على المدينة، سالما غانما.. فما حاول أن يطارد فلول تلك القبائل التي أرادت غزو المدينة، فحسبه ما نكبها به في الرجال والأموال..

وتسامع العرب بهذا النصر، فهز أركان الردة، فـإذا بكثير من الذين كانوا قد امتنعوا عن إيتاء الزكـاة، يـدفعون زكاتهم، ويرسلونها إلى المدينة.

وفي ليلة واحدة أثرت المدينة بأموال زكاة ستة أحياء من العرب، وكان كلما طلع على المدينة أحد جباة الزكاة قال الناس: "نذير!" فيقول أبو بكر: "بل بشير". وإذا بالقادم يحمل

معه صدقات قومه، فيقول الناس لأبي بكر: "طالما بشرتنا بالخير!".

وخلال هذه البشائر التي تحمل معها بعض العزاء، وشيئا من الثراء، عاد أسامة بن زيد بجيشه ظافرا، من مؤتة التي استشهد فيها أبوه زيد.

صنع كل ما كان الرسول قد أمره به، وما أوصاه به أبو بكر الصديق، فانقض على العدو في عماية الصبح، في حملات متوالية، لا يترك لهم فرصة لالتقاط الأنفاس، فقتل من قتل، وفر الآخرون، فلم يطاردهم، بل عاد بعد ما فرض هيبة الإسلام، وغسل عار الهزيمة، وانتقم لأبيه ولشهداء مؤتة، ولم يسرف في القتل، إنه كان منصورا.

عاد أسامة إلى مدينة رسول الله، على صهوة الجواد الذي استشهد عليه أبوه زيد، وهو يحمل اللواء الذي عقده له رسول الله ❐.. أين أنت يا رسول الله لترى انتصار أمتك، صلى الله عليك وسلم؟!

وخرج الصديق مع جماعة من كبار الصحابة إلى ظاهر المدينة، فتلقوا القائد الشاب المنتصر فرحين مكبرين، ودخل أسامة المدينة في جنده، فاستقبلت المدينة بالفرح

والإكبار فرار الأمس، بعد أن أصبحوا كرار اليوم، بما أزال من نفوس الجند ما كابدوه في مؤتة، فغمرت صيحات الإكبار، رجع الصدى من صرخات الاستنكار..!.. وتغنى بشجاعة أسامة من كانوا يرفضون إمرته..!

واتجه أسامة أول ما اتجه إلى مسجد رسول الله، فوقف على قبر الرسول دامعا، ثم ولى وجهه شطر القبلة خاشعا، وصلى الله شاكرا.

وقال الصديق لأسامة وجنده: "أريحوا، أريحوا

ظهوركم". وجمع الصديق الرجال الذين ما زالوا في عدة

الحرب، منذ فتكوا بأعراب ما حول المدينة، إذ هم نيام في سكرة نصر خاطف زائف! واستخلف أسامة على المدينة..

وإذ رأى الصحابة إمامهم الشيخ يقودهم بنفسه،

ويخوض الأهوال، ويقتحم الخطر، قالوا له: "ننشدك الله يا خليفة رسول الله تعرض نفسك! إنك إن تصب لم يكن للناس نظام، فابعث رجلا، فإن أصيب أمرت بغيره.." قال: "بل أواسيكم بنفسي".

وقادهم إلى وادي ذي القصة، حيث تنادى كثير من المرتدين، وتجمعوا..

ونزل بأهل الربذة على مقربة من المدينة، فلقي هناك طائفة من عبس وذبيان، فقاتلهم وهزمهم، وفروا جميعا إلى المرتدين في بعض أحياء العرب النائية.. فروا إلى طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة في بني أسد، في منتصف الطريق بين المدينة والخليج.

فلما أجلى الصديق بني ذبيان عن ديارهم غنمها، وأسكن فيها بعض المسلمين، وقال: "حرام على ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد، إذ غنمناها الله". (أي جعلها غنيمة لنا).

فلما استراح جيش أسامة، ضمهم الصديق إلى من كانوا معه، وخرج شاهرا سيفه يقود الجيوش الإسلامية.. فأمسك علي بن أبي طالب بزمام راحلة الصديق، وقال له: "إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قاله لك رسول الله ❐ يوم أحد: أغمد سيفك، ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدا..".

وأشار عليه بعض الصحابة أن يبعث لقتال المرتدين جيوشا متفرقة، يقودها الشجعان الأبطال الصناديد.

فاستجاب لهم الصديق، وعقد أحد عشر لواء، وحدد لهم مسئولياتهم..

عقد لخالد بن الوليد وأمره أن يسير إلى طلحة بن خويلد، فإذا فرغ منه انطلق إلى مالك بن نويرة بالبطاح.

وعقد لواء لعكرمة بن أبي جهل، وكلفه بقتال مسيلمة الكذاب في اليمامة. وبعث في أثره شرحبيل إلى مسيلمة، وكان مسيلمة قد استغلظ أمره أكثر من أي مرتد آخر من مدعي النبوة.

وعقد لعمرو بن العاص وكلفه بقضاعة.

وعقد لآخرين وكلفهم ببني سليم، والبحرين، وتهامة اليمن، وهوازن..

وكتب إلى جميع أهل الردة في بلاد العرب كتابا واحدا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله ❐، إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه:

سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى. فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأقر بما جاء به.

أما بعد، فإن الله أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، لينذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين، فهدى الله للحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ❐ من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعا أو كرها، ثم توفى الله رسوله، وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين له ذلك، ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) فمن كان إنما يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان إنما يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه، وإني أوصيكم بتقوى الله. وبما جاءكم به نبيكم ❐، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضال،

وكل من لم يعنه الله مخذول، ومن هداه غير الله كان ضالا، قال الله تعالى: (من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)..

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام، وعمل به، اغترارا بالله وجهلا بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار، والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله، ولا يقاتل أحدا حتى يدعوه إلى الله عز وجل، فإن أجاب وأقر وعمل صالحا قبل منه، وأعانه عليه، وإن أبى حاربه عليه حتى يفيء إلى أمر الله، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار وأن يقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد غير الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم،

والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم، وإذا لم يؤذنوا فسلهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم".

وسار حاملو الكتب أمام الجند، أما أمراء الأجناد، فقد كتب لكل منهم عهدا واحدا:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى (فلان)، حين بعثه فيمن بعث لقتال من رجع عن الإسلام.

عهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله، سره وعلانيته، وأمره بالجد في الله ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، ويأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذي لهم، لا ينظرهم (أي لا يمهلهم)، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قبل بذلك، وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، وإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه فيما استسر به (أي يحاسبه على ما أخفاه)، ومن لم يجب داعية الله قتل

وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه (جمع مرغم: مهرب)، ولا يقبل من أحد شيئا أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه، ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله (نصره) قتل منهم كل قتلة، بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس، فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه من العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيونا، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق في حسن الصحبة ولين القول. وإذا أتيت دارا فأقحم، وإذا سمعت أذانا أو رأيت مصليا فأمسك.

وقال الصديق يوصي خالدا قبل رحيله: "يا خالد، إنك تخرج مجاهدا، دينك ودنياك بين عينيك، وقد وهبت نفسك الله عز وجل.. فسر إلى عدو الله على بركة الله، واعلم أن خير الأمرين لك أبغضهما إليك، يا خالد احرص على الموت توهب لك الحياة!".

وقال لعكرمة حين وجهه إلى عمان: "سر على بركة الله.. وقدم النذر بين يديك (أي أنذر الناس حربهم)، ومهما قلت إني فاعل فافعل، ولا تجعل قولك لغوا في عفو ولا عقوبة، فلا ترجى إذا أمنت، ولا تخاف إذا خوفت، ولكن

انظر متى تقول وما تقول، ولا تعذب على معصية بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعل أثمت، وإن تركت كذبت، ولا تؤمن شريفا دون أن يكفل بأهله (أي يضمنه أهله)، ولا تكلفن ضعيفا أكثر من نفسه، واتق الله إذا لقيت (أي لقيت العدو)، وإذا لقيت فاصبر، وإذا سمعت أذانا أو رأيت مؤذنا فأمسك".

ثم رفع أبو بكر يديه داعيا متهدج الصوت: "اللهم أعنا على طاعتك، وانصرنا على عدونا".

* * *

لما عاد الخليفة إلى المدينة شعر بالعطش فطلب ماء، فقدموا له إناء فيه ماء بارد بعسل، فلم يكد يشرب منه حتى أبعده عن فمه، قم بكى، وظل يبكي، ومن حوله الصحابة الذين استبقاهم بالمدينة ليعينوه، وليستشيرهم: وفيهم عمر، وعلي، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة، واشتد بكاء الصديق، وعلا نشيجه، حتى حسبوا أنهم لا يقوون على سؤاله، فلما سكت سألوه: "يا خليفة رسول الله، ما أبكاك!"" قال: "كنت مع رسول الله ❐، فرأيته يدفع عن نفسه شيئا، فقلت: يا رسول الله ما هذا الذي تدفع، ولا أرى أحدا معك؟!" قال: هذه الدنيا تمثلت لي فقلت لها: إليك عني، فتنحت ثم

رجعت، فقالت: أما إنك إن أفلتَّ فلن يفلت من بعدك! فذكرت ذلك فخشيت أن تلحقني!".

ولكن الدنيا لم تلحقه قط، لم يرض أن يأخذ من بيت المال في كل يوم غير ثلاثة دراهم، يعيش منها ويعول أهله.. ومنذ ولي الأمر عاش كأفقر رجل في رعيته، يلبس أخشن الثياب، ويأكل أغلظ الطعام، وكان قبل أن يتولى تاجرا غنيا، فكان يوسع على نفسه وعلى أهله، ويكثر من الصدقات.

ولقد اشتهت زوجه حلوى مما كانت تأكله قبل أن يلي الأمر، حينما كان يعمل بالتجارة، والعيش غض والزمان غلام!، فقال لها: "ليس لنا ما نشتري به الحلوى" قالت: "أنا أستفضل (أي أقتصد) من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به" قال: "افعلي" فاستطاعت أن تقتصد في عدة أيام ما تشتري به الحلوى، فأخبرته بذلك، فأخذ ما استفضلته، ورده إلى بيت المال، وقال: "هذا يفضل عن قوتنا". وأسقط بعد ذلك من نفقته بقدر ما اقتصدته امرأته!

وأقام أبو بكر في المدينة هاديا مهديا، يعظ الناس ويعلمهم، وحاكما اتخذ كرسي الحكم من حصير المسجد الذي يوجع الجنب، وربما من أرضه وحصبائه.. ويظل في

المسجد حتى يصلي العشاء بالناس، ثم يعود إلى منزله بالسنج خارج المدينة، ماشيا على قدميه، وربما ركب فرسا!! ظل كذلك حتى وجد مسكنا بالمدينة.

هكذا عاد إلى المدينة يرعى أغنامه بنفسه، ويحلب أغنام جيرانه كما تعود، ويوزع الأكسية ويتعهد من كان يتعهدهم من ضعفة الناس، إلى جوار مسئوليات الحكم الباهظة، ومواجهة أخطر ما يهدد الإسلام: تلك الردة العامة الشرسة، والفتنة التي خبطت الناس، إلا من عصم الله!

وكان ممن يتعهدهم أبو بكر امرأة وحيدة عجوز قد كف بصرها، فكان يقوم بأمرها، وهي لا تعرف أنه الخليفة.. وكان عمر أيضا يرعى تلك العجوز الوحيدة، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، ففعل ما أرادت، فرصده عمر، فإذا هو أبو بكر رضي الله عنه، كان يأتيها ويقضي أشغالها سرا، فقال عمر: "أنت هو لعمري!".

الفصل الرابع

أهل الردة

في حياة الرسول أسلمت بلاد العرب جميعـا، فلمـا خير الرسول، فاختار الله، على زهرة الحياة الدنيا، كفـرت الأرض، وتضرمت نارا..!

كفر الأعراب ممن حول المدينة، فقهرهم أبو بكـر، وغنم أرض ذبيان، فأسرعت ذبيان وحلفاؤها وجارتها عبس إلى طليحة في بني أسد، بين المدينة والخليج، فانضموا إليه.

وكان طليحة قد أعان عبسا وذبيان بأخ له، محـارب جسور، اسمه (حبال)، ولكنه قتل في الغارة التـي أغارهـا عليهم أبو بكر، وفي ذلك قال الشـاعر زيـاد بـن حنظلـة التميمي:

غداة سعى أبو بكر إليهم
كما يسعى لموتته جلال
أراح على نواهقها عليا
ومج لهن مهجته حبال

(جلال: بضم الجيم البعير العظـيم – نواهقهـا: أي خيلها – عليا، يعني علي أبن أبي طالب - مج: قذف وأسال.

مج مهجته: مات – حبال بكسر الحاء هو أخو طليحة ابن خويلد الذي قتل في المعركة).

وقال أيضا:

فما صبروا للحرب عند قيامها

صبيحة يسمو بالرجال أبو بكر

وطليحة بن خويلد من زعماء بني أسد، وكان قد أقبل على الرسول في وفدهم، فقال للرسول: "أتيناك نذرع الليل إليك في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثا!" فقال الله تعالى: (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان).

ثم ارتد وادعى النبوة..

وإن أبا بكر لينتظر أنباء الجيوش التي أرسلها تجاهد المرتدين، في أقصى بلاد العرب، إذ جاء خالد بن سعيد بن العاص من اليمن، فلقي علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، فقال لهما: "يا بني عبد مناف لقد طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم!".

فلم يعبأ أبو بكر بما قال، وآثر أن يغمض عنه، ويوجه كل همه وجهده وطاقته إلى ما هو فيه من شغل، وأما عمر فأسرها في نفسه!

وكان طليحة قد ارتد وأدعى النبوة، في الفترة الأخيرة من حياة رسول الله ، فأرسل إليه الرسول رجالا أشداء، وأمرهم أن يحاربوا طليحة ومن كفر معه، فاستسلم كثير من أتباعه، أما هو فقد نجا من ضربة سيف محكمة، كانت حرية بأن تفلق رأسه، فأذاع بين الناس، أن الله يحفظه من السلاح! وأن السلاح لا يعمل فيه!.

وجاءت الأنباء إلى بني أسد بوفاة الرسول، فأذاع طليحة أن محمدا لو كان نبيا حقا لما جاءه الموت، ولحاد عنه، كما حاد بطليحة عن ضربة السيف القاتلة!. فعاد إلى طليحة من أتباعه، من كانوا قد استسلموا للمسلمين..

وأخذ طليحة يؤلف لأتباعه كلاما مسجوعا، متشبها بالقرآن، وزعم أن وحيا ينزل عليه بهذا الكلام!.. وقال مما زعم أنه من وحي الله إليه: "سيبلغ ملكنا العراق والشام".ثم إنه أمر الناس بترك السجود، وكان بعض العرب ما برح يستنكف من وضع الجباه على الأرض، فاجتمع حوله

خلق كثير منه، فقال لهم: إن االله لـم يـأمركم أن تمرغـوا وجوهكم في التراب، أو أن تقوسوا ظهوركم فـي الصـلاة" (يعني الركوع).

كان طليحة في قومه بني أسد وغطفان منيعا قويـا، وقد انضم إليه بنو عبس، وذبيان وحلفـاؤهم، منـذ هـزمهم الصديق، الذي أرسل يستنفر إليه عـددا آخـر مـن أحيـاء العرب، وقبائلهم، منهم طيئ قوم حاتم الطائي، الذي لم يدرك الإسلام، وإن كان الرسول ليرى أن كرمـه مـن محاسـن الأخلاق التي جاء الإسلام ليكملها.

وكان لعدي بن حاتم الطائي منزلة عالية فـي قلـب رسول الله، وخليفة رسول الله وكبار الصحابة.

وخشي الصديق أن تنضم طيئ إلى طليحة، فيستفحل خطره، ويستطير شرره، ويصبح على الصديق أن ينزل بقوم حاتم الطائي عقاب المرتدين، وهو يحب لهم الكرامة والفلاح والصلاح. فأرسل الصديق عدي بن حاتم إلى طيئ، قبـل أن يزحف خالد على طليحة وحلفائه، فقال له: "يا عدي بن حاتم الطائي، أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة، فيكون دمارهم!".

فانطلق عدي إلى قومه فأمرهم أن يبايعوا أبا بكر، وأن يدخلوا في الإسلام الذي خرجوا منه، وأن يراجعوا أمر الله، قالوا في استخفاف وسخرية بالصديق أبي بكر "لا نبايع أبا الفصيل أبدا!؟" (والفصيل من الإبل هو الطفل الضعيف، والبكر هو الفتي القوي).

قال عدي بن حاتم لقومه وهو يعظهم، ويحذرهم: "والله ليأتينكم منه جيش، فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر!".

وما زال بهم عدي بن حاتم حتى مالوا إلى رأيه.

فأقبل خالد في جنوده، فبعث إلى طليحة رجلين، من أتقى وأقوى المسلمين: هما ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن، لينذروا القوم، فقد أمره الصديق حين عقد لواءه، ألا يقاتل قوما حتى ينذرهم، وحتى يؤذن مبعوثه إليهم للصلاة، فينظر بم يرجعون..

ولكن طليحة ورجاله تلقوا الرجلين الصالحين بالسلاح، فقتلوهما!

فلما استبطأهما خالد وجنوده، تقدموا ليتحسسوا منهما، فوجدوهما صريعين، فحزن خالد ومن معه لذلك حزنا شديدا، وعلم أنه القتال، لا مندوحة عنه..

وانثنى إلى بني طيئ، ليمنعهم من نصرة طليحة، قبل أن يلقاه، فخرج إليه عدي ابن حاتم، فقال له: "أنظرني (أمهلني) ثلاثة أيام، فإنهم قد استنظروني، حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار".

وأمهله خالد، فأتاه عدي ومعه قومه، بمن انضموا إلى طليحة، فأعلنوا توبتهم وعودتهم إلى الإسلام، وساروا تحت لواء خالد، ليلقوا طليحة.

وفي طريقهم إلى طليحة، قصدوا بني جدلية، فطلب منهم خالد أن يعودوا إلى الإسلام، ويتخلوا عن طليحة، فقالله عدي بن حاتم: "يا خالد، أمهلني أياما حتى آتيهم، فلعل الله أن ينقذهم، كما أنقذ قومي طيئا!".

وظل عدي يحاور بني جديلة، حتى أتوا خالدا مسلمين، فانضموا إليه على طليحة.

ثم مضى خالد حتى التقى بجند طليحة، ووقفت قبائل من الأعراب تتربص، وتنتظر.. وكان طليحة قد ضم إليه أحياء كثيرة أخرى من الأعراب، أشهرهم فزارة، وكان شيخها عيينة بن حصن يقول لقومه: "واالله لنبي من بني أسد، أحب إلي من نبي من بني هاشم، وقد مات محمد، وهذا طليحة فاتبعوه".

والتقى المسلمون بقيادة خالد بطليحة وحلفائه.. فلما استعر القتال، لف طليحة نفسه بثوب، وجلس في فناء داره، وزعم لقومه، أنه ينتظر نزول جبريل عليه، ليبشره بالنصر..!

واشتد القتال، وسقط ضحايا كثيرون من جند طليحة، وحلفائه، فانطلق إليه عيينة بن حصن الفزاري شيخ بني فزارة، فسأله: "هل جاءك جبريل بعد؟" قال: "لا".

وعاد عيينة يقاتل أشد قتال، وفرسان قومه يسقطون أمام عينيه، تحت خيل المسلمين، الذين أقبلوا على القتال بحرص على الاستشهاد. فلما رأى عيينة مصارع أشجع رجاله، اندفع على طليحة قلقا فقال: "لا أبا لك! هل جاءك

جبريل بعد؟!" قال: "لا" قال عيينة: "حتى متى؟! قد والله بلغ منا الجهد!" (أي تعبنا غاية التعب).

وعاد عيينة فقاتل، حتى إذا تيقن أن الدائرة ستدور عليهم، انفلت إلى طليحة مغاضبا، فقال: "هل جاءك جبريل بعد؟!" قال: "نعم" قال: "فما قال لك؟" قال: "قال لي: إن لك رحا كرحاه، وحديثا لا تنساه" قال عيينة: "قد علم الله أنه سيكون لك حديث لا تنساه!" ثم نادى عيينة قومه: "يا بني فزارة، هكذا فانصرفوا، فهذا والله كذاب".

فانصرفوا.. واضطرب الناس لما أيقنوا بهزيمتهم أمام المسلمين، فانقضوا على طليحة يستنجزونه وعده بالنصر، وكان قد زعم لهم أنه أوحي إليه أنه سينتصر، وسيمتد ملكه إلى العراق والشام!.. وتكاثروا على طليحة، يسألونه أين ما وعده الله من نصر؟! وكادوا يطئونه بأقدامهم، فأسرع إلى فرسه، فوثب عليه، وأمر امرأته فركبت راحلة كان قد أعدها، وانطلق بها، وهو يقول للناس: "من استطاع أن يفعل مثل ما فعلت، وينجو بأهله، فليفعل!".ثم هرب إلى الشام، وتفرق أتباعه، فلم يثبتوا لقتال خالد وجنده، منذ وجدوا قائدهم ونبيهم يفر!!

وجاءت قبائل أسد، وفزارة، وسليم، وغطفان، وهوازن، فقالوا لخالد: "ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا".

ثم أقبل أشياخ بني عامر يقولون: "ندخل فيما خرجنا منه".

فبايعهم خالد جميعا على الإسلام، فقال لهم: "عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله، ولتقيمن الصلاة، ولتؤتن الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم" قالوا: "نعم".

ولكنه لم يقبل منهم الإسلام، حتى يسلموه الذين حرقوا المسلمين منهم، وقتلوهم، ومثلوا بهم، فأذعنوا له، واقتص منهم خالد، وفعل بهم ما فعلوه بالمسلمين، وأرسل إلى خليفة رسول الله بالأسرى، وخمس الغنائم، وبكتاب جاء فيه: "إن المرتدين الذين لقيتهم أقبلوا بعد إعراض، ودخلوا في الإسلام بعد تربص، وإني لم أقبل من أحد سألني شيئا، حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كل قتلة".

فكتب إليه الصديق: "ليزدك ما أنعم الله به عليك خيرا، فاتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم

محسنون، جد في أمر الله ولا تنين، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به غيره!".

وفي الحق أن خالدا قتل الذين عدوا على المسلمين شر قتلة، ليجعلهم نكالا، فقد أضرم نارا في الوديان فقذفهم فيها، ورماهم من على رءوس الجبال الشامخة، فأرعب المتربصين من الأعراب الذين وقفوا ينتظرون أي الفريقين ينتصر لينضموا إليه، فتداعوا كلهم على خالد تائبين، يبايعونه على الإسلام، ولم يعد أحد بعد يفكر في الردة، من تلك القبائل التي كانت تقيم في منتصف الطريق بين المدينة والخليج.

وكان عيينة بن حصن من بين الأسرى، فأمر خالد بشد وثاقه تنكيلا به، وبعثه إلى المدينة ويداه إلى عنقه، إزراء عليه، وإرهابا لسواه..

فلما دخل المدينة على هيئته تلقاه صبيان المدينة مستهزئين، وأخذوا يلكزونه بأيديهم الصغيرة، قائلين: "أي عدو الله! ارتددت عن الإسلام!!". فيقول: "والله ما كنت آمنت قط!".

وجيء به إلى خليفة رسول الله، ولم يشك عيينة لحظة في أن الخليفة سيعذبه عذابا شديدا، ثم يقتله!

غير أنه لقي من الخليفة سماحة لم يحلم بها!!

فقد أمر بفك يديه، ولام الذين شدوا وثاقه.. ثم استتابه، فأعلن عيينة توبة نصوحا، واعتذر عما كان منه، وأسلم وحسن إسلامه.

وجاء وفد أسد وغطفان يسألون الخليفة الصلح، فقال لهم: "اختاروا الحرب المجلية أو الخطة المخزية. قالوا: "يا خليفة رسول الله، أما الحرب المجلية فقد عرفناها! فما الخطة المخزية؟".

قال لهم: "يؤخذ منكم الكراع (بضم الكاف أدوات الحرب من سلاح وخيل ونحوها)، وتؤدون ما أصبتم منا، ولا نؤدي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، وتدون قتلانا (تدفعون دياتهم)، ولا ندي قتلاكم". فأذعنوا.

اجتمع بعض من بقي من فلول رجال طليحة، وأسلموا قيادتهم إلى امرأة اسمها سلمى بنت مالك ابن حذيفة، اشتهرت باسم أم زمل، وكانت أمها مضرب المثل في العزة

والأنفة وكثرة البنين، واسمها أم قرفة، فكانت سلمى تتشبه بأمها، فجمعت جيشا من فلول القبائل، وانضم إليهم من رفض العودة إلى الإسلام من بني طيئ وسليم وهوازن وأسد، فصاروا قوة، فزحف إليهم خالد بن الوليد، فوجدها تقودهم على جمل أمها، وكان يقال من يمس هذا الجمل فله مائة من الإبل، لشدته وامتناعه، ورأى خالد أن جندها يتفانون في الدفاع عن هذا الجمل، فعمد إليه فعقره، وهزم جمعها، وأرسل خالد بهذا النصر إلى خليفة رسول الله.

وتسايلت الذكريات على أبي بكر.. إنه ليذكر سلمى هذه، وأمها أم قرفة فاطمة بنت ربيعة، امرأة مالك بن حذيفة.. كان يقال حينئذ: "أمنع وأعز من أم قرفة" فقد كان يعلق على جدران بيتها خمسون سيفا: كلهم لمحارم لها أبناء إخوة!

وبعث رسول الله أبا بكر يقود سرية إلى بني فزارة بنجد، على الطريق من مكة إلى البصرة، فانتصر عليهم أبو بكر، وكان في السرية سلمة بن الأكوع، وهو شجاع يسابق على قدميه الفرسان فيسبقهم، فوجد أم قرفة ومعها ابنتها سلمى، وقد قتلت أم قرفة في المعركة، وهو عجوز، فساق

سلمة السبي إلى أبي بكر قائد السرية، وفيه سلمى، وهي من أحسن نساء العرب وجها. حتى إذا عادوا إلى المدينة، لقوا الرسول ﷺ، فقال: "يا سلمة، هب لي المرأة الله أبوك!" فقال: "هي لك يا رسول الله". فبعث بها إلى مكة، فافتدى بها أسرى من المسلمين، كانوا في أيدي المشركين.

وعاد أبو بكر من ذكرياته تلك، إلى البشائر التي أقبلت تترى بانتصار المسلمين، فطابت نفسه، وحمد الله إلى هؤلاء المجاهدين الذين نصروا الله، فنصرهم الله.

لقد كان أبو بكر - منذ أجمع أمره على أن يجاهد أهل الردة - واثقا من نصر الله.. ولو أنه هادن المرتدين، أو وادعهم، أو ساومهم، لما قامت للدين قائمة، ولانهدت الدولة الناشئة! ولابتلعها الروم أو الفرس، وكانوا يتربصون بها، ويشعرون بقلق هائل كلما اتسعت رقعتها! حتى إذا امتدت الدولة، لتشمل أرجاء بلاد العرب جميعا، بدأ الفرس والروم يكيدون، ويحرضون العرب والأعراب على دولة الإسلام..وهكذا استشرت الردة في أطراف بلاد العرب، ولكن الأنباء السعيدة ما برحت تطرق المدينة، مبشرة بانهزام الأعراب المرتدين في أدنى الأرض. وفرح المؤمنون،

وأيقنوا أن الصديق كان على حق حين أصر على الجهاد إصرارا، وأن شجاعته وحكمته وصلابته وقوته قد أنقذت الإسلام والمسلمين.. ما كان أحد يرى رأيه في قتال المرتدين إلا علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فدعاهم إليه.

ويوما بعد يوم، انشرحت صدور بقية الصحابة للقتال، وزارتهم أنباء انتصارات خالد أملا في انتصارات أخرى.. تذكر الصديق ما قاله الرسول عن خالد: "نعم عبد الله، وأخو العشيرة خالد بن الوليد! سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين". صدقت يا رسول الله صلى الله عليك وسلم.

* * *

أما طليحة بن خويلد، فلم يعد يدعي النبوة بعد! فقد فر، وأسلم، وحسن إسلامه منذ رأى قومه وحلفاءه قد أسلموا، وحسن إسلامهم.. وفكر في أن يأتي أبا بكر، ولكنه تهيب، وتحرج، وشعر بالحياء!! غير أنه ذهب إلى مكة فأدى العمرة، وشد الرحال إلى مسجد الرسول في المدينة، فوقف على قبره مترحما نادما، ثم أخذ يجوب أرجاء المدينة، فأبلغ

الناس أبا بكر، فقال: "وما أصنع؟! خلوا عنه (أي اتركوه)، فقد هداه الله إلى الإسلام".

وعاش طليحة في المدينة آمنا، ثم انتقل بين أحياء العرب..

وليكون له شأن في فتح العراق واستنقاذها من أيدي الفرس، وليكون له في ذلك بلاء حسن، تحت إمرة خالد، إذ يكتب إليه الصديق: "استشره في الحرب، ولا تؤمره". (أي لا تجعله قائدا).

وسيبايع عمر بن الخطاب فيما بعد، فيقول له عمر: "أنت قاتل عكاشة وثابت!". (وهما سيدان من سادات المؤمنين وفارسان من أشد فرسانهم بأسا)، فيقول طليحة: "يا أمير المؤمنين، ما تنقم مني لرجلين أكرمهما الله بيدي، ولم يهني بأيديهما؟!".

* * *

وفي الحق أن عفو الصديق عن عيينة وغيره من كبار الأسرى، استخلص له من الردة عددا من رؤساء العرب، فأقبلوا عليه تائبين آمنين، وسألوه أن يوجههم إلى حيث شاء، ليقاتلوا تحت لواء الإسلام، من ارتد عن الإسلام.

وقد أحسن الصديق بهم الظن، فكانوا كلهم أجمعون عند ظنه الحسن، وأبلوا في الجهاد خير بلاء.ثم

قدم عليه الفجاءة إياس بن عبد ياليل، وهو أحد سادة بني سليم، ورأس من رءوس الردة فيها.. وبنو سليم قوم شداد، والفجاءة أحد دهاتهم.. فلما أقبل على الصديق زعم أنه قد تاب وأناب، وعاد إلى الإسلام، وسأل أبا بكر أن يجهز له جيشا، يقاتل به أهل الردة، وأن يزوده بالعتاد والمال.

وصدقه الصديق، ووثق به.

فلما مضى بما أمده به الصديق من رجال وأموال، وثب على كل من يلقاه – مرتدا كان أو مسلما – فعربد عليه، وفتك به، وسلبه أمواله، ومضى يفسد في البلاد، وأكثر فيها الفساد!

فلما علم الصديق بذلك، آلمه أن يخدعه الرجل، حتى أوقعوا به، وجروه إلى الصديق وقد جمعوا يديه إلى قفاه بالحبال، فأرسله الصديق إلى البقيع، وأمر بإلقائه في نار عظيمة، وهو في وثاقه، ليكون عبرة!

* * *

ارتد الأسود العنسي واستولى على اليمن وادعى النبوة، وفي الوقت نفسه ارتد مسيلمة، وملك اليمامة، قرب الخليج، وادعى النبوة، وانضمت إليه سجاح من نواحي العراق.

وكانت كاهنة حسناء..

كانت اليمن قبل أن يملكها الأسود العنسي ولاية فارسية، وكان بين عرب اليمن وعرب الحجاز خصومة منذ الجاهلية، على الرغم من أن تجار قريش تعودوا أن يأتوا بتجارتهم اليمن في رحلة الصيف، كما كانوا يأتون الشام في رحلة الشتاء، وقد ألفوا هاتين الرحلتين إيلافا حميما منذ زمن بعيد.

بعث الرسول ❐ كتبا إلى كسرى الفرس، وإلى قيصر الإمبراطورية الرومانية الشرقية (هرقل كبير الروم) والمقوقس صاحب مصر، وكانت الكتب جميعا تبدأ بعبارة: من محمد رسول الله إلى فلان.

فلما ترجمت الرسالة لكسرى، اضطرم غضبه، ومزق الرسالة، وأرسل إلى بازان عامله الفارسي على

اليمن، يأمره بأن يبعث إليه برأس محمد، الذي تجرأ ووضع اسمه قبل اسم كسرى!!

وبعث بازان بأمر كسرى هذا إلى النبي، فرد عليه يدعوه إلى الإسلام، ويخبره أن كسرى هذا قد مات، وخلفه ابنه، ودخل بازان في الإسلام، فأبقاه النبي أميرا على اليمن. وتوفي بازان، فوزع النبي مسئولياته، فولى شهر بن بازان أميرا على صنعاء وما حولها، وولى أمراء آخرينممن أسلموا من عرب اليمن، وما كادوا يستقرون على مقاعد الحكم، حتى جاءتهم النذر من الأسود العنسي أن يسلموه ما تحت أيديهم!

والأسود العنسي مشعوذ ادعى النبوة وأطلق على نفسه "رحمان اليمن"، كما أطلق مسيلمة على نفسه "رحمان اليمامة".. وكان زعم الأسود أن الوحي يأتيه، فيكشف له الأستار، ويفشي له ما خفي من الأسرار! وكان ساحر الحديث، يقنع أحيانا بخمار، وكان له حمار علمه أن يأتي بحركات غريبة، فكان يأمره فيطيعه، فيزعم للناس أن هذا امتياز خصه به الله، أن يكلم الحمار فيفهمه، كما كان نبي الله

سليمان يكلم الجن والطير! فسمي ذو الخمار، وذو الحمار، واسمه في الأصل عيهلة الأسود ..

وفتن به كثير، فانضموا إليه، وزحف بهم إلى نجران، فطرد منها عامل النبي عليها: خالد بن سعيد بن العاص، ثم زحف منها إلى صنعاء، والناس يتبعونه مفتونين بانتصاره وشعوذته، فقتل شهر بن بازان أميرها المسلم، واستولى على امرأته الشابة الجميلة، وعلى أمواله.. وفر من أمامه المسلمون، ودانت له الأرض من حضرموت، وعدن والبحرين إلى الطائف، وهكذا استغلظ أمره.

وقد تبعه الناس لأنه زعم لهم أن الله قد بعثه، وأوحى إليه أن يحرر اليمن وما حولها من الغرباء.. يعني أهل الحجاز من المهاجرين والأنصار.. أراحهم من الزكاة، ولم يعد يفرض على أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم، كما فرض الإسلام، ولم يقهرهم على أداء صدقة تزكيهم وتطهرهم، وإنما طالبهم بأن يدفعوا له أقل بكثير مما كانوا يؤتونه زكاة عن أموالهم.

فلما تزوج آزاد أرملة شهر بن بازان، جعل ابن عمها فيروز الفارسي وزيرا له، واصطنع له وزيرا فارسيا آخر هو داوذيه، وجعل على رأس جنده قيس بن عبد يغوث.

وكرهته امرأته أشد الكره، ولكنها دارته، فاستخدمت جمالها وأنوثتها لتكسب ثقته فبذلت نفسها وهي قالية له، حاقدة عليه، حتى اطمأن إليها، فأخذت تدبر للخلاص منه، في صبر وكيد عظيم!

وأرسل النبي إلى المسلمين، يطالبهم بأن يجهزوا على هذا المشعوذ، إما بالحرب مواجهة ومصادفة، أو بالخدعة!.

وتضخم الأسود في نفسه، وتأله، وأفسد في الأرض، وصنع ما يشتهي بلا وازع.

وقارف كل أنواع المجون، وقلما كان يفيق من الخمر والأعشاب المخدرة!! فإذا دفعته تخيلاته إلى الشك في ولاء أحد قتله من فوره، أو بتر أحد أطرافه!!

فتوجس خيفة منه قائد جيشه ووزيراه، وشعر هو بذلك، فدعا إليه قيسا قائد جيشه فقاله له: "إن صاحب وحيه أوحى إليه فقال له: عمدت إلى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل

منك كل مدخل، وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك، وحاول ملكك، وأضمر عليك الغدر!".

فقال قيس: "كذب وذي الخمار، لأنت أعظم في نفسي وأجل عندي من أن أحدث بك نفسي". قال: "ما أجفاك! أتكذب الملك بل صدق الملاك، وعرفت الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك!".

ثم خرج قيس، فأخبر صاحبيه بما كان، فبينما هم يتشاورون، إذ أرسل إليهم عيهلة الأسود العنسي ذو الخمار، فلما دخلوا عليه قال لهم: "ألم أشرفكم على قومكم؟ فما هذا الذي يبلغني عنكم؟" قالوا: "أقلنا هذه المرة (أي اعف عنا). فصرفهم وعفا عنهم. ولكن عيهلة أصبح في اليوم التالي فدعا قيسا قائد جيشه، فقال له، إن صاحب وحيه حذره: "إلا تقطع من قيس يده يقطع رقبتك!" فقال قيس: "إنه ليس من الحق أن أقتلك وأنت رسول الله، فمرني بما أحببت. فأما الخوف والفزع فأنا فيهما مخافة أن تقتلني، فإما قتلتني فموتة أهون على من موتات أموتها كل يوم!".

فأشفق عليه عيهلة الأسود العنسي، وصرفه.

فجاء إلى صاحبيه الوزيرين فيروز وداذويه، فأخبرهما بما كان حتى إذا كان الغد من ذلك اليوم، التقى الثلاثة، وبينما هم يتشاورون في أمرهم، خرج عليهم عيهلة في حرس أشداء، وأمام الباب في الفناء مائة من البقر والبعير، فانقض عليها فذبحها جميعا، وتركها تتخبط والدماء تسيل منها، ونادى أحد وزيريه، فقال له: "أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟". ثم هز عيهلة حربته ووجهها إلى رقبة فيروز، وقال: "لقد هممت أن أنحرك يا فيروز فأتبعك هذه البهيمة" فقال فيروز: "اخترتنا لصهرك (فامرأة عيهلة بنت عم فيروز)، وفضلتنا... فلو لم تكن نبيا ما بعنا نصيبنا منك بشيء. فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا؟ لا تصدق فينا ما يبلغك، فإنا بحيث تحب".

فقال له عيهلة: "أقسم هذه (يعني الذبائح)، فأنت أعلم بمن هنا" فقسمها على أهل صنعاء.

ولكن قائد الجيش والوزيرين، كانوا يزدادون خوفا على رقابهم.. لا أمان لهم! ومن يأمن غدرات ذلك الفاسق السفاح المخمور المخدر عيهلة الأسود العنسي؟! لا أمان لهم إلا أن يتخلصوا منه، ويخصلوا اليمن من شره.

وخلصوا نجيا، فما عساهم يفعلون!! كيف الخلاص منه؟ لقد استولى على كل ما باليمن من أموال، وبسط سلطانه على شطآن البحر والمحيط والخليج، وامتد سلطانه، وتنامى ثراؤه، وإذ امتلأت الأرض بالفقراء والجياع الذين لا يجدون القوت، وتكسدت في خزائنه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، التي ما كان ينفقها إلا على ملذاته، واصطناع الأتباع والحراس الشداد الغلاظ، حتى لقد جعل على باب مخدعه وحده، مائة من أولئك الحراس، لا يتسلل إليه أحد من عدوه، فيصرعه بحيلة!

وظل الثلاثة يتشاورون في أمرهم وأمر الأسود، وأسروا النجوى..

وإنهم لفي مضطرب أفكارهم وعزائمهم، إذ قرعتهم كتب من أمراء اليمن المسلمين المخلوعين، يستحثونهم على مصاولة الأسود، ويعدونهم بالمدد والنصرة، إن هموا بمصادمته حربا أو غيلة!

فقوت الكتب عزائمهم، وشحذت منهم الهمة والحيلة، ولكنهم ردوا عليهم شاكرين، طالبين إلى أولئك الأمراء

المسلمين المعزولين أن يصبروا ويصابروا، وألا يحدثوا حدثا حتى يأتيهم نداء من الثلاثة المحيطين بالأسود.

واستطاع فيروز أن يحتال، حتى لقي أزاد ابنة عمه امرأة الأسود، فقال لها: "يا ابنة عمي، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك! قتل زوجك وأهلك وعشيرتك، وفضح النساء! فهل لك أن تساعدينا على عزله وإخراجه من بلادنا".

وتذكرت زوجها المقتول شهر بن بازان، ما كان أسعد الحياة معه، ذلك الزوج الجميل، الدمث، الحنون الشجاع، النبيل!. أين هو من الأسود، من هذا المسخ، القبيح، المخمور، المخدر، الفاسق، المهلهل كخرق مرقعة؟! فقالت في حسم: "بل أساعدكم على قتله، فوالله ما خلق الله شخصا أبغض إلي منه! ما يقوم الله على حق، وما ينتهي عن محرم!".

وتشاورا في أمر قتله.. لقد بذلت له من نفسها، حتى اطمأن لها وأحبها.

قالت: "ليس في القصر شيء إلا والحرس محيطون به إلا مخدعا واحدا، فإن ظهره لا حرس عليه. فإذا أمسيتم فانقبوا عليه، لن تجدوا حرسا، وستجدون سراجا وسلاحا".

ووعدت أن تستدرجه ليبيت معها في ذلك المكـان، مطمئنة إلى قدرتها عليه، وثقته بها، واطمئنانه إليها..

فلما انصرف فيروز من عندها، رآه عيهلة، فجنـت غيرته، وسأله: ما أدخلك علينا؟! ثم ضربه على رأسه ضربة أسقطته، وتقدم ليجهز عليه، وكان الأسود عيهلة شديد القوة، فأقبلت زوجته مسرعة، فوقفت بجسدها البديع أمامه، فشـغل بها، ثم أخذت تصرخ في وجهه صراخا أذهله: "ابن عمـي جاءني زائرا! وهو أخي في الرضاعة ومحرم علي! أتقتلـه" فترك فيروز وقال لها: "قد وهبته لك!" فصـرفت فيـروز، وأقبل عليها الأسود يداعبها في غلظة، فاستجابت له! وخرج فيروز فانضم لصاحبيه، وأنبأهم بما حدث، وإنـهم ليفكـرون في أمره وأمرهم، إذ جاء رسـول زوجـة عيهلـة الأسـود العنسي، برسالة لفيروز: "لا تدعن ما فارقتك عليه، فإني لـم أزل به حتى اطمأن!".

فاستعد الثلاثة على أن ينقبوا الليلة ظهر المخدع الذي ستستدرج الزوجة إليه الأسود.. وأرسلوا إلى أشياعهم مـن الأمراء المسلمين المخلوعين، أنهم سيصاولون عيهلة العنسي

الليلة، ويغتالونه، فليكن الأمراء قريبا من الثلاثة، ولينتظروا حتى يسمعوا الأذان.

وصف أحد المتآمرين ما حدث بعد ذلك، قال: "فلما أمسينا عملنا في أمرنا، فنقبنا البيت (أي المخدع) من خارج، والتقينا بفيروز - وكان أشدنا - وتقدم فيروز، والأسود نائم على فراش من حرير، قد غرق رأسه في جسده، وهو سكران يغط، والمرأة جالسة عنده، فلما قام فيروز أجلسه شيطانه وتكلم على لسانه، وهو مع ذلك يغط، فقال: ما لي ومالك يا فيروز؟ فخشي فيروز إن رجع يهلك وتهلك المرأة، فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل، فأخذ رأسه فدق عنقه ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله، وقالت: "أين تدعني؟!" قال: "أخبر أصحابي بمقتله" فأتانا فقمنا معه، فأدرنا حز رأسه، فحركه الشيطان، فاضطرب، فلم نضبطه، فقالت: اجلسوا على صدره، فجلس اثنان على صدره، وأخذت المرأة بشعره، وسمعنا بربرة (صوتا مختلطا) فأمرت الشفرة على حلقه، فخار كأشد خوار ثور سمعته.

فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا!؟ ما هذا؟! فقالت المرأة: النبي يوحي إليه! ثم سمرنا

ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبر أشياعنا، فلما كان الصباح قـام أحدهم وهو قيس فنادى على سور الحصن فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، فنادى بالأذان: أشـهد أن محمـدا رسول الله، وأشهد أن عيهلة كذاب.

وألقى إليهم رأسه، فانهزم أصحابه، وتـبعهم النـاس يأخذونهم ويرصدونهم في كل طريق ويأسـرونـهم، وظهـر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله ❐... وصلى بالناس معاذ بن جبل...

وكان معاذ قد تزوج امرأة مـن أهـل الـيمن، ذات حسب، وجمال، ورأي، وعشيرة قوية، اسمها السكون، فأحبها أشد الحب، حتى كان يدعو: اللهم احشرنـي مـع السـكون، وانتصر له قومها، وهم أولو قوة وأولو بأس شديد.

* * *

فيما حول اليمن، كانت جيوش سيرها أبـو بكـر تحارب المرتدين في عمان، وحضرموت، وعدن، والبحرين، وسائر تلك الأنحاء، وكان عمرو بن العاص أحد أمراء تلـك الجيوش.. وعمرو صديق للكثير من سادات العـرب، فهـم يصارحونه بما لا يصارحون به غيره، ولقد مر بحـي مـن

أحياء العرب أثناء عودته من عمان إلى المدينة، ليلقى أبا بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ، فأكرموه، ونحروا له. وقال شيوخ الحي: "يا عمرو، إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة (الزكاة) التي فرضتها قريش، فإن أعفيتم العرب من أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم!"، فما كان جواب عمرو ألا أن قال لهم: "لا تهددونا بالعرب، فالعرب تبع لقريش! ولا تمنعوا الزكاة فما أسلم من منع الزكاة!" وفي الحق أن القبائل قد اختلفت فيما بينها، فمن أفرادها من ارتدوا كافة، ومنهم من أضنته الحيرة بين الإسلام وإيتاء الزكاة، فلا ضير عندهم من اعتناق الإسلام، شريطة ألا يؤتوا الزكاة!

من هذه القبائل بنو تميم، وإنهم لكذلك بين الردة، والتردد، إذ طرقت ديارهم سجاح بنت الحارث التغلبية، وهي من الجزيرة (بالعراق) وكانت امرأة جسيمة جميلة قوية التأثير، وادعت النبوة، والتفت حولها جنود من قومها، فانحدرت بهم تريد غزو أبا بكر، وفتح المدينة، فمرت ببني تميم، والتقت بشيخهم مالك بن نويرة، وكان حسن الحديث، فصرفها عن أبي بكر، خشية الهزيمة والانكسار، ثم تحالفا

معا على قتال مسيلمة، وتعاهد رجال مالك على الاعتراف بها، ونصرتها، ولقد ضاق أحد شعرائهم بذلك فقال:

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها!

وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وزحفت سجاح بجنودها إلى اليمامة، لتأخذها من مسيلمة بن حبيب.

وكان مسيلمة هذا مع وفد بني حنيفة، لما قدموا إلى المدينة مسلمين، فدخلوا على الرسول ، وخلفوا مسيلمة وراءهم، فلما أعطاهم جوائز قالوا له: "خلفنا صاحبا لنا في رحالنا يحفظها علينا" فأمر له الرسول بمثل ما أمر لأصحابه من جائزة، تألفا لقلوب بني حنيفة، وقال لهم: "ليس شركم مكانا لحفظه ركابكم ورجالكم". فلما خرجوا قالوا ذلك لمسلمة، فقال: "عرف أن الأمر إلي من بعده!".

ولم يكد يعود إلى اليمامة، حتى ادعى النبوة، والنبي حي بعدا!

وأرسل النبي إلى بني حنيفة رجلا اسمه الرحال ليعلم أهل اليمامة، وكان الرحال قد أتى المدينة، فتعلم القرآن من أبي بن كعب، وتفقه في الدين، فلما ذهب الرحال إلى اليمامة،

افترى على الرسول كذبا، وشهد أنه سمع رسول الله يقول إن مسيلمة قد أشرك معه! فكان شره على الإسلام كشر مسيلمة، إذ صدقه قومه! وأرسل مسيلمة إلى الرسول: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإني قد أشركت معك في الأمر، فلكم نصف الأرض ولنا نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون".

فكتب إليه الرسول: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض الله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين".

وأطلق مسيلمة على نفسه رحمان اليمامة، وجمع حوله أتباعا كرهوا أن يؤدوا الزكاة لرحمان قريش!!

ولقد أتى اليمامة شيخ من أثرياء الأعراب وساداتهم فقال: "أين مسيلمة؟" قالوا: "رسول الله؟!" قال: "لا، حتى أراه" فلما جاءه قال: "أنت مسيلمة؟" قال: "نعم" قال: "فمن يأتيك؟" قال: "رحمان" قال: "أفي نور أو في ظلمة؟" قال: "في ظلمة" قال: "أشهد أنك كذاب، وأن محمدا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر!".

وهكذا انضم إليه من الأعراب كل من حركتهم العصبية الجاهلية ضد قريش، وكل من دفعهم الحرص والجشع وحب المال إلى الامتناع عن أداء الزكاة، وكل من أخذتهم العزة بالإثم ووجدوا معرة في إيتاء الزكاة إتاوة، هي المذلة بعينها!!

فلما توفي محمد ❐، زعم مسيلمة أنه استقل بالأمر من بعده، وأخذ ينشد لنسائه

خذي الدف يا هذه والعبي

وغني محاسن هذا النبي

تولى نبي بني هاشم

وجاء نبي بني يعرب

* * *

كثر أتباع مسيلمة، واستغلظ أمره، وأصبح تحت إمرته جيش كثيف قوى، فحاول بعض أتباع مالك أن يثنوا سجاح عن السير إلى مسيلمة، وقالوا لها: "إن شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة!" فردت عليهم بالسجع الذي تعوده كل مدعي النبوة: "عليكم باليمامة، ورفوا رفيف

الحمامة (الرفيف تحريك الجناحين والرجلين)، فإنها غزوة صرامة، ولا يلحقكم بعدها ندامة..!".

وبلغ مسيلمة أمر سجاح، فخاف أن تشغله بحربها، فيدهمه جند المسلمين الذين سيرهم إليه أبو بكر، فرأى الكذاب أن يوادعها ويتقرب إليها، لتهدأ عنه.

فأرسل إليها هدايا ثمينة، وطلب منها الأمان، حتى يلقاها.. وتقبلت هداياه بفرح، وقد تأكد لها أنها أرعبته!

وأمر مسيلمة رجاله أن يضربوا لسجاح قبة بعيدا عن حصنه، وشدد عليهم أن تكون القبة فاخرة باهرة، ليفتنها، ويوقع في قلبها أنه نبي عظيم، لا يطاول ولا يصاول! وأمرهم أن يجعلوه في القبة الفاخرة مخدعا مثيرا، ووثيرا، مكسوا بالحرير، وأن يعطروا القبة والمخدع بشذا بخور قوي نفاذ، ليستثيرها، ويخضع أنوثتها لفحولته!

وأقبلت في حرس فخيم قوى، فأمر حراسه أن يبعدوا حراسها، وأن يخلوا بينه وبينها تحت القبة.. فأشارت هي إلى حراسها أن ينصرفوا.

فلما دخلت القبة بهرتها، وانتشت بعبق الأعواد العطرة النفاذة. وأتاها مسيلمة، فتدارسا، وسألها: "ماذا يوحى

إليك؟" قالت: "وهل يكون النساء يبتدئن!؟ بل أنت ماذا أوحي إليك" فقال لها كلاما فاحشا ماجنا! قالت: "أشهد أنــك نبــي!" قال: "هل لي أن أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب" قالت: "نعم" فأنشدها شعرا بالغ الفحش، فطربت له، وأقامت عنده ثلاثة أيام، ثم انطلقت إلى قومها، فسألوها: ما عندها؟ قالت: "كان مسيلمة على حق، فاتبعته، وتزوجته" قالوا: "هل أصدقك شيئا؟" (أي هل دفع لك صداقا أي مهرا؟) قالت: "لا" قـالوا: "فارجعي إليه. فقبيح على مثلك أن ترجع بغير صداق".

فرجعت إليه، فأغلق الحصن إذ رآها، وسـألها مـن فتحة جداره: "مالك؟" قالت: "أصدقني صـداقا" قـال: "مـن مؤذنك" قالت: "شبث بن ربعي" قال: "علي به". فأتاه شبث بن ربعي، فقال له: "يا شبث ناد في أصحابك: إن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة الفجر، وصلاة العشاء".

ولكنها لم تنصرف برجالها عنه حتى اتفقوا علـى غلات اليمامة سنة، فأخذت نصف النصف، وتركت عنده من رجالها من يأخذون منه الباقي..

وإنهم لعلى ذلك، إذ طرق أسماعهم خبر زحف خالد ابن الوليد إليهم، بعد أن فرغ من طليحة، فانفضوا. واعتصم مسيلمة بحصنه المنيع، وأما سجاح فعادت إلى قومها بالجزيرة بالعراق، ثم أسلمت وأسلم قومها جميعا، وحسن إسلامهم، وبعد ذلك انتقلت إلى البصرة، فماتت ودفنت بها.

* * *

مازال أهل المدينة مستفزين متأهبين، في عدة القتال، منذ أمرهم بذلك خليفة رسول الله، لما همت بغزو المدينة أحياء العرب مما حولها، تقودهم عبس وذبيان..

ولكن أنباء هزائم أهل الردة تتواتر إلى المدينة تباعا فتسر القلب، وتشرح الصدر، وتغرس في الأغوار من كل نفس ثقة مطمئنة بالنصر.

وتطرق المدينة أموال الزكاة، وأكداس الغنائم، ومواكب الأسرى والسبي..

وها هو ذا عمر الذي كان بالأمس يأبى على الصديق أن يحارب، ها هو ذا اليوم فرح بانهزام أهل الردة، حفي بعودتهم إلى الإسلام، وإيتاء الزكاة، سعيد بما يعمر بيت المال من الصدقات (الزكاة)، والغنائم.. وإن عمر في

سعادته، وعرفانه بفضل أبي بكر، ليقبل عليه منشرحا، متوددا معتذرا، فيقبل رأسه ويقول: "يا خليفة رسول الله، أنا فداؤك! لولاك لهلكنا!".

ولقد تتابعت الخيرات على يدي أبي بكر حقا! إذ ظهر منجم للذهب غير بعيد من المدينة، وأرسلت إليه جهينة بمال من معدن من معادن ثمينة، تكشفت في أرضها، فاستبشر الناس بأبي بكر، على الرغم مما نزل به ونزل بهم بوفاة رسول الله، وردة العرب قاطبة!! وهي خطوب لو نزلت بالجبال الرواسي لهدتها، حتى لقد أصبح العرب كالغنم السائبة في الليلة الماطرة، ولكن ها هو ذا خليفة رسول الله يجمعهم على ما جاء به رسول الله.

ووضع أبو بكر ما تدفق عليه من مال وذهب في بيت المال، فقالوا له: "ألا تجعل على بيت المال من يحرسه؟" قال: "لا يخاف عليه" قالوا: "ولم؟" قال: "عليه قفل".. وفي الحق أن بيت المال كان في داره، وما كان يبقي به شيئا.. إذ كان يجهز به الجيوش ويشتري السلاح، ويوزع كل ما في بيت المال بعد ذلك على الناس، ويسوي بينهم جميعا: بين

الرجال والنساء، والصغار والكبار، أهل السابقة في الإسلام والذين جاءوا من بعدهم، الأحرار والمماليك!

فجاء بعض الصحابة، وفيهم عمر، فقالوا: "يا خليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل!" فقال: "أما ما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفني بذلك، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناءه، وهذا معاش فالأسوة (أي التسوية) فيه خير من الأثرة".

ومضى يشتري أحدث السلاح، وأقوى الخيل والإبل المدربة على القتال، ليمد بها جيوشه وليعدها للجهاد في سبيل الله، واشترى كساء من الصوف والمخمل، ووزعها على أرامل أهل المدينة، ليستدفئن هن وأطفالهن اليتامى في الشتاء.

* * *

بعد أن فرغ خالد بن الوليد من أمر طليحة قاد جنده متجها إلى اليمامة كما أمره الصديق.

وعلم خالد في بعض الطريق بما كان من حلف مالك بن نويرة وسجاح. وكان مالك في البطاح، فزحف إليه خالد، فأبى عليه من في جيشه من الأنصار، وقالوا له: "إنا قد قضينا ما أمرنا به خليفة رسول الله" قال خالد: "إن هذا أمر لا بد من فعله، وفرصة لا بد من انتهازها، وإنه لم يأتني فيها كتاب (أي أمر من الخليفة) وأنا الأمير، ولست بالذي أجبركم على المسير، وأنا قاصد البطاح".

وانطلق بمن معه من المهاجرين، ولكن الأنصار لحقوا به بعد ذلك، فانضموا إليه، فواصل الزحف بالجيش إلى البطاح، حيث ينزل مالك بن نويرة وقومه بنو تميم.

وأرسل خالد مؤذنه يؤذن للصلاة، فأجابه الناس، وكان أمر الخليفة لكل أمير من أمراء الجيوش: ألا يقاتلوا قوما حتى ينذرهم، وأن يؤذنوا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. ثم ينتظروا، فإذا رد عليهم القوم الأذان، وادعوهم وتركوهم، فهم مسلمون، أما إذا لم يردوا قاتلوهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وحتى يؤتوا الزكاة...

ورد أمراء بني تميم على الأذان، وأظهروا لخالد الطاعة، ولزوم الجماعة، وأدوا إليه ما عليهم من أموال الزكاة.. أما كبير بني تميم، وهو مالك بن نويرة، فقد اختلفت حوله رسل خالد، فزعم بعضهم أنه لم يرد الأذان، فهو إذن مصر على ردته وكفره، وزعم آخرون ومنهم أبو قتادة الانصاري أنه رد الأذان، وأدى الشهادتين، فهو مسلم إذن.

ورأى خالد أن يتحقق بنفسه، فأرسل إلى مالك، فأتاه هو وامرأته ليلى أم تميم، وكانت من أجمل النساء وأشدهن فتنة، وجيء معه بعصبة من قومه ينصرونه، كانوا قد تخلفوا معه.

ولام خالد مالكا على حلفه مع سجاح، ثم سأله عن الزكاة، قال: "ألم تعلم أنها قرينة الصلاة". قال مالك: "إن صاحبكم (يعني الرسول) يقول هذا!" قال: "أهو صاحبنا وليس صاحبك!؟ اقتلوه". فعجلوا عليه، فقتلوه، وتزوج خالد امرأته ليلى أم تميم.. فشك البعض في أن جمال أم تميم قد فتن خالدا، فقتل زوجها ليأخذها منه!! وكان أبو قتادة الأنصاري أشد الناس على خالد في قتل مالك، والزواج

بامرأته، واحتدمت بينهما المحاورة، فرجع أبو قتادة إلى المدينة يشكو خالدا إلى الصديق، وإلى عمر.

وقال عمر: "يا خليفة رسول الله، اعزل خالدا فإن في سيفه رهقا (الرهق الاندفاع والطيش ومنه المراهقة)" فقال أبو بكر: "لا أشيم (أغمد) سيفا سله الله على الكافرين".

وظل عمر وأبو قتادة يلحان على الصديق في عزل خالد، فعنف الصديق أبا قتادة، لأنه ترك الجيش بلا إذن أميره، وأمره أن يعود من فوره إلى الجيش.. فسار أبو قتادة محزونا ليلحق بالجيش.

وعاد عمر يلح على أبي بكر في أن يعزل خالدا، فقال: "هيه يا عمر! تأول فأخطأ. كف عن خالد!" ثم تذكر أن الرسول كان يقول عن خالد أنه سيف من سيوف الله سله على الكفار والمنافقين. وتذكر ما صنعه الرسول، لما أرسل خالدا إلى غزوة، فسمع الأسرى يقولون: "صبأنا صبأنا"، يريدون أن يقولوا: "أسلمنا"، فلم يحسنوا أن يقولوها، فقتلهم خالد جميعا، فرفع الرسول يديه إلى السماء، وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد!" ولكنه لم يعزله، بل أدى عوضا لأهل القتلى مواساة لهم، وذهب بعضهم إلى أقصى المدى في

أمر خالد ومالك، فقال: إن ليلى أم تميم امرأة مالك، سمعت زوجها يناظر خالدا، وروعها قول خالد له: "والله إني قاتلك، والله لأقتلنك"، فألقت ليلى بنفسها على قدمي خالد، تلتمس منه العفو، فانسدل شعرها على كتفيها وكشفت عن ساقيها، وتعرت دون أن تدري كما سقطت على قدمي خالد ضارعة مستعطفة، وسال دمعها، وبلل منها عينين زانهما الحور، فزادهما الدمع سحرا، ونظر خالد إلى وجهها البارع وهي ترنو إليه مسترحمة مستعطفة، نظرة هوى وإعجاب، فصاح مالك: "إني مقتول لا محالة!" ثم قال لامرأته: "قتلتني! إني مقتول والله!" وأجاب خالد: "ما لهذا والله! وإنما قضى عليك كفرك" وأمر بضرب عنقه.

وقال آخر، وهو يحاور صاحبه في أمر ليلى أم تميم: "أما سمعت بساقي أم تميم؟! لقد كان يقال: إنه لم ير أحسن من ساقيها!".

وقال آخر: "إن خالدا كان يهواها في الجاهلية!". وقد استعر الخلاف بين الصديق والفاروق حول خالد.. أما الفاروق عمر فقد أراد أن يؤخذ خالد بن الوليد بصرامة العدل وحسمه، إذ كان يرى أنه قتل رجلا مسلما،

ونزا على امرأته، وهذا إثم يجب ألا يمر بلا عقاب!.. وما ينبغي له أن يظل أميرا على جيش إسلامي، لكيلا يكون قدوة سيئة لغيره من أمراء الجيوش، وكلهم حديث عهد بالجاهلية وآثامها وفتكها وبطشها!.. فلئن صح عند الخليفة أنه تأول فأخطأ في أمر مالك بن نويرة، فما خطبه مع امرأته ليلى أم تميم!! ولقد هجره رجل من أفضل الصحابة وأعدلهم وأتقاهم هو أبو قتادة، وأدانه على فعاله!!..

وكان من رأي عمر أن انتصارات خالد الباهرة الساحرة التي تتابع دراكا لا تجعل له امتيازا دون الناس، ولا تجيز له أن يفلت من آثام اقترفها!!.. وإلا لاستباح أبطال المسلمين الحرمات، وباتوا وأصبحوا فوق الحساب!.. وتلك امتيازات لا يعرفها الإسلام، ولم تأت في قرآن ولا سنة، وما سمعوا عنها إلا في أساطير الأولين..!

أما الصديق، فقد رأى أن الخطر يهدد الإسلام نفسه، وأن الفناء يكاد يطرق مدينة رسول الله ويقتحم بلا مبالاة!.. فما خطأ قائد عبقري مثل خالد بالقياس إلى حسن بلائه الذي ينقذ الإسلام!؟، ثم إن هذا الخطأ ليس عمدا، بل من حسن النية.. والأعمال بالنيات.. لقد قارن الصديق بين قتل خالد أو

رجمه بدعوى الزنا، وبين حاجة الدولة والإسلام إليه، فاكتفى بما وجهه إليه من تأنيب وتحذير، لأن الإبقاء على حياة خالد أنفع للدولة الناشئة.. لقد رأى من إجابة مالك أنه مصر على الردة عن الإسلام، فلما قتله بكفره أصبحت امرأته سبيا، يحق للفاتح أن يمتلكه، وهذا هو ما اقترفه خالد الفاتح.. اعتبرها سبيا، فاشتراها، ثم أعتقها وتزوجها.. فإن يكن هذا كله خطأ، فهو خطأ في تأويل الأحكام، لا مقارفة إثم من أقبح الآثام! وأبقى الصديق خالدا أميرا لجيشه..

وأبو بكر لا يدع شيئا صنعه الرسول إلا صنع مثله. وقد عذر الرسول خالدا لما تأول فأخطأ، فكيف يعاقبه خليفة الرسول؟!

ثم جاء متمم بن نويرة يشكو خالدا إلى الصديق، وقابل عمر فمضى به إلى أبي بكر، وطلب منه عمر أن ينشد ما قاله في رثاء أخيه، فأنشد أمام أبي بكر:

لا يلبس الفحشاء تحت إزاره
صعب مقادته عفيف المئزر

وأنشد:

وكنا كندماني جذيمة برهة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وعشنا خير ما حيينا وقبلنا

أباد المنايا قوم كسرى وتبعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا

لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وأنشد:

لقد لامني عند القبور على البكا

رفيقي لتذراف الدموع السوافك

وقد أتبكي كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى

فدعني فهذا كله قبر مالك

(اللوى والدكادك: مكانان)

وحزن أبو بكر، فواساه، وأدى له مالا عوضا عن مالك أخيه، ثم أرسل يدعو خالدا، فلما أتى المدينة دخل المسجد ليلقى أبا بكر، وقبل أن يلقى خالد أبا بكر لقيه عمر، فانقض عليه قائلا: "قتلت امرءا مسلما ونزوت على امرأته! والله لأرجمنك بالأحجار"، فلم يرد خالد، ومضى إلى أبي

بكر، فابتدره أبو بكر بالتأنيب، وأمره أن يطلق امرأة مالك الذي قتله بغير حق!

ولكن خالدا شرح له ما كان، فقد ناظر مالكا، فثبت له أنه مصر على ردته، فوجب قتله، أما ليلى أم تميم أرملته، فقد رآها سبيا بعد مقتل زوجها، فاشتراها وأعتقها، وتزوجها، وهو لا يرى في ذلك حرجا، ولكن الصديق عنفه، لأنه تزوجها في أحوال تثير حوله الأقاويل والشبهات!ثم

زوده الصديق بنصائحه، وحمد له أنه أحسن انتهاز فرصة لاحت له، فزحف على بني تميم قوم مالك، ولو أبطأ في انتظار أمر الخليفة، لضاعت الفرصة.. ورأى عمر عفو الصديق عن خالد، فسكت.

وخرج خالد من عند الخليفة راضيا.

وحشد الصديق جيشا آخر، وجههم جميعا إلى اليمامة ليلتقوا بمسيلمة الكذاب، وجعل على كل قبيلة رجلا، يحمل رايتها..

* * *

كان أبو بكر قد عقد لواء لعكرمة بن أبـي جهـل، ووجهه إلى مسيلمة، وأمره ألا يقاتله حتى يرسل إليه الصديق مددا بقيادة شرحبيل.

ولكن عكرمة عجل إلى الحرب، ليكون له وحده فخر قتل مسيلمة، فواجهه مسيلمة بأضعاف جنده، فهزمه!

وعلم شرحبيل بما جرى لعكرمة، وهو في طريقه إليه، فوقف ينتظر الخليفة.

وكتب أبو بكر إلى عكرمة يؤنبه: "يا بن أم عكرمة! لا ترجع فتوهن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة، ثم تسير ويسير جندك تستبرئون من مررتم بهم، حتى تلتقوا أنتم والمهاجر ابن أبي أمية باليمن وحضرموت. (تستبرئون: أي تجعلونهم يعلنون براءتهم من الردة).

وكتب إلى شرحبيل: "إذا قدم عليك خالد، ثم فرغتم إن شاء الله (أي هزمتهم مسيلمة) فالحق بعمرو بن العاص، حتى تكون معه على من أبى وخالف".

ولكن شرحبيل تعجل إلى لقاء مسيلمة قبل وصول خالد، عسى أن يكون له فخر هزيمته، فحدث له ما حدث

لعكرمة من قبل، وهزمه مسيلمة هزيمة منكرة، ونكبه في رجاله وعتاده!

فلما أقبل خالد بجنده لامه، وكان خالد في طريقه إلى اليمامة قد لقي أحياء من الأعراب قد ارتدت فغزاها، وردها إلى الإسلام، ثم لقي مؤخرة جيش سجاح، ففتك به، ونكبه، ثم زحف إلى اليمامة، وأرسل إليه الصديق جيشا كثيفا، مجهزا بأحدث سلاح، ليحمي ظهره، حتى لا يوقع به أحد من خلفه.

وتصادف أن خرج مجاعة، وهو أحد رؤساء بني حنيفة قوم مسيلمة، ليثأر من بني عامر وبني تميم. وفي طريق عودته بمن كانوا معه من قومه بعد أن أصابوا ثأرهم، غلبهم التعب، فناموا، وبيد كل منهم لجام حصانه تحت رأسه، فدهمهم جند من طلائع خالد، فاستيقظوا، وسألوهم: "من أنتم" قالوا: "رجال مجاعة" قالوا: "أي من بني حنيفة" فأوثقوهم بالحبال، وأخذوهم أسرى، حتى أتاهم خالد، فسألهم خالد: "متى شعرتم بنا؟" قالوا: "ما شعرنا بك! إنما خرجنا لنثأر فيمن حولنا من بني عامر وتميم" فلم يصدقهم خالد، بل حسبهم جواسيس عليه، لمسيلمة الكذاب، فأمر بقتلهم جميعا،

فقالوا له: "إن كنت تريد بأهل اليمامة غدا شرا أو خيرا، فاستبق هذا" وأشاروا إلى رئيسهم مجاعة..

فاستبقى مجاعة، وقتل الآخرين.

وعجب خالد لما حل بالمسلمين!. كيف انهزموا؟!.. من الحق أن عدد جيش مسيلمة الكذاب يبلغ أضعاف عدد جيش المسلمين، ولكن المسلمين تعودوا ألا ينهزموا عن قلة، أو ينتصروا عن كثرة، بل عن قوة الإيمان، وصلابة العقيدة، وبالإصرار على الفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وما أقبلوا على جهاد في سبيل الله قط، إلا استحبوا الموت على الحياة.. فما بالهم اليوم؟!..

وخف وطيس الحرب، فسمع خالد المسلمين يتفاخرون، ويتنابزون فيما بينهم، حتى لقد أوشكوا أن يصبح بأسهم بينهم شديدا!!.. فالمهاجرون والأنصار من أهل المدن يرمون أهل البادية بالجبن والعجز، فيقول لهم أعراب البادية: "إن أهل القرى (المدن) لا يحسنون القتال، ولا يدرون ما الحرب". فيرد عليهم أهل القرى: "نحن أعلم بقتال أهل البادية منكم يا معشر أهل البادية".

فأمرهم خالد أن يكفوا عما أخذوا فيه، وأن يجعلوا همهم إلى نصر الله، فإن ينصروا الله يثبت أقدامهم، وينصرهم، وهذا هو الفوز العظيم الذي وعد به المتقين المخلصين.

ثم انطلق خالد بجنده إلى اليمامة، فخرج مسيلمة الكذاب وبنو حنيفة ومن استنفرهم مسيلمة، فعسكروا بموقع في طرف اليمامة اسمه عقرباء..

فقام رجل من بني حنيفة فقال لقومه: "يا بني حنيفة، اليوم يوم الغيرة، إن هزمتم تؤخذ النساء سبيات. فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا (أي احموا) نساءكم".

فالتقى الجمعان بعقرباء، فاقتتلوا، وكانت راية المهاجرين مع زيد بن الخطاب – شقيق عمر - وراية الأنصار مع ثابت بن قيس الأنصاري، ولكل قبيلة رايتها مع شيخها.

وكان خالد قد أوثق مجاعة، ووضعه في خيمته، وترك امرأته ليلى أم تميم تحرسه.

واحتدم القتال، ورمى مسيلمة بكل قواته في المعركة، وكانوا أربعين ألفا.. فهزم المسلمين أول الأمر، وأفضى

بعض جنده إلى خيمة خالد، فمزقوها، وفكوا وثاق مجاعة، وأرادوا أن يقتلوا ليلى أم تميم امرأة خالد، فحماها مجاعة، وقال لهم: أنا لها جار، ونعمت الحرة، حاربوا الرجال! فانصرفوا عنها..

وهدأ المسلمون بعد هزيمتهم، وكأنما باغتتهم الصدمة، فحزنوا...

ثم تداعى المسلمون وتنادوا فيما بينهم فوثب ثابت بن قيس الأنصاري، فقال:

"اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (يعني أهل اليمامة) وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء (يعني المسلمين)" ثم قاتل، حتى قطعت رجله، فرمى بها ضاربه فقتله.. ثم إن ثابت بن قيس استشهد، وكانت عليه درع نفيسة، فأخذها رجل من المسلمين، فأتى ثابت رجلا آخر من المسلمين في منامه، فقال له: إني لما قتلت مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي.. فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ❐، فقل إن علي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق. فروى الرجل لخالد، فاسترد الدرع، ثم بعثها مع الرجل إلى المدينة.

فحدث الرجل أبا بكر برؤياه، وأجاز وصية ثابت بن قيس الأنصاري..

ظلت الحرب سجالا مرة للمسلمين، ومرة عليهم. فأمر خالد المسلمين أن يتفرقوا: كل قبيلة برايتها على حدة، قال لهم: "امتازوا أيها الناس، لنعلم بلاء كل حي من أحياء العرب، ولنعلم من أين نؤتى".

فلما استقل كل حي بنفسه، قال بعضهم لبعض: "اليوم نستحي من الفرار!" ولم يفكر أحد في الفرار بعد، فسيراه الجميع، ويجر على قومه ونفسه العار.

واقتتل الناس قتالا عظيما، وسقط صرعى كثيرون من الجانبين، وأدرك خالد أن الناس من الحزبين يتفانون، حتى لقد يهلكون جميعا، وتأكد له أن الحرب لن تنتهي إلا إذا قتل مسيلمة الكذاب، فينهزم أتباعه.

فبرز خالد شاهرا سيفه وقال: "أنا ابن الوليد" ثم نادى: "وامحمداه" وكان هذا هو شعار المسلمين يومئذ، ودعا صناديد حنيفة ليبارزوه، فما برز أحد لخالد إلا صرعه، وأخذ يبحث عن مسيلمة حتى وجده، فعرض عليه الرجوع إلى الحق، أو فليبارزه، ولكن مسيلمة كلما هم بإجابة زعم أن

شيطانه ينهاه، فوثب خالد عليه ليبارزه، فركبه وخاف الكذاب خالدا على حياته، فتزايل واستطاع أن يفلت، ثم فر هاربا. والمسلمون يقاتلون في حرص على الشهادة من يومهم هذا، فقال أحد سادة بني حنيفة لمسيلمة الكذاب وهو يفر: أين ما كنت تعدنا؟!" فقال: "قاتلوا عن أحسابكم!".

وجن القتال.. وجعل الصحابة من الجند يتواصون بينهم ويتنادون: "يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم!" وقال أبو حذيفة: "يا حملة القرآن، زينوا القرآن بأفعالكم".

وقال زيد بن الخطاب: "أيها الناس، عضوا على أضراسكم واضربوا عدوكم، وامضوا قدما. واالله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي" وظل يقاتل ويقاتل، حتى استشهد.

واستشهد من المسلمين خلق كثير.

ولكن المسلمين ظلوا يشدون على جند مسيلمة الكذاب.

وبحث المرتدون عن نبيهم وقائدهم، فلما علموا أنه فر، تزايلوا، وانهاروا إلى أغوار أنفسهم.. وتصايحوا أن

نبيهم تخلى عنهم، فهم لا محالة هالكون! جعل أكثرهم يولي الأدبار، ويلوذ بالفرار، والمسلمون من ورائهم، يطعنونهم بالسيوف والرماح.. واختلطت الدماء بالغبار، واضطرم الجو بسعير القتال، وتعثرت الأقدام بأشلاء الرجال، ولم يعد يسمع شيء إلا قرع الحديد على الحديد، وأصوات فلق الهام!!

ونادى رجل من أتباع مسيلمة الكذاب: "إلى الحديقة! إلى الحديقة" ففر جند مسيلمة جميعا إلى حديقة شاسعة الأرجاء مترامية، منيعة الأسوار، أمام حصن مسيلمة، فدخلوها، خلف مسيلمة، وأغلقوا عليهم الباب، فتسلق البراء بن أنس سور الحديقة، وهبط من خلفه، ففتح الباب للمسلمين، فتدفقوا بالسيوف والرماح، واقتتل الفريقان أشد قتال، وما زالوا كذلك حتى قتل مسيلمة! قتله رجل من الأنصار، ووحشي قاتل حمزة في أحد، فكان يقول: قتلت شر الناس وخير الناس.. هز حربته وقذف بها ضحيته، وهو ما لم تكن تعرفه العرب، فخرجت من الجانب الآخر، فسقط الكذاب، فأسرع إليه أبو دجانة الأنصارى، ففلق رأسه، فهلك، فصاحت إحدى محظياته تبكيه: "وا أمير الوضاءة!!" وقتل في

معركة اليمامة من المسلمين نحو ألف ومائتين! فيهم عدد كبير من الصحابة حفاظ القرآن.

وقتل من بني حنيفة نحو سبعة آلاف في عقرباء، وعدة آلاف في الحديقة حتى لقد سميت "حديقة الموت"..

وجاء خالد بأسيره مجاعة في أغلاله، ليدله على مسيلمة في القتلى، حتى إذا مر بجثة رجل قصير أصفر أخنس، قال له مجاعة: "هذا هو صاحبكم".

قال خالد: "قبحكم الله على اتباعكم هذا! أهذا فعل بكم ما فعل!!".

* * *

وأرسل خالد جندا يأخذون ما حول اليمامة من مال وسبي، ثم عزم على غزو الحصون، ولم يكن فيها غير النساء والأطفال، والشيوخ، ولكن مجاعة قال له: "إن جماهير المقاتلين لفي الحصون، وما لقيت إلا أوائلهم. فهلم إلى الصلح".

ومال خالد إلى الصلح، بعد ما رأى كثرة الشهداء بين المسلمين، وما حل بالأحياء من جهد وملل! فقال مجاعة: "أنطلق إلى من في الحصون وأشاورهم". فدخل مجاعة

الحصون، وليس فيها إلا النساء والصبيان وشيوخ ضعفاء، فأمر النساء أن يلبسن الحديد، ويبرزن، ونظر خالد إلى شرفات الحصون، فإذا هي تزدحم بالدارعين!

وعاد مجاعة يشترط على خالد أن يأخذ نصف السبي، ويدع الباقي، فوافق، ثم صعد خالد إلى الحصون، فلم يجد إلا النساء في الدروع، والصبيان والشيوخ والضعفاء! فقال: "ويحك يا مجاعة! خدعتني!" فقال مجاعة: "قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت!" فقدر له خالد هذا، وعفا عنه، وسبى النساء والولدان.

ورد عليهم خالد نصف السبي، ووجه النصف الباقي إلى أبي بكر، مع خمس ما غنم من أموال طائلة، فكانت من السبايا واحدة تزوجها علي بن أبي طالب، وهي من أشرف بيوت بني حنيفة، فولدت له ابنه محمدا، فسمي محمد ابن الحنفية، نسبة إلى قبيلة أمه بني حنيفة.

ودعا خالد بني حنيفة إلى الإسلام فأسلموا، وكتب لهم عهد صلح قال فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة، وفلانا وفلانا.. قاضاهم على الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة)، ونصف

السبي، والكراع وحائط (بستان) من كل قرية ومزرعة، على أن تسلموا، ثم أنتم آمنون بأمان الله، لكم ذمة خالد بن الوليد، وذمة أبي بكر خليفة رسول الله ، وذمم المسلمين على الوفاء".

ثم إن خالد بن الوليد بعد أن كابد الأهوال الجسام في حرب اليمامة، وعاين الموت، ورأى الفناء رأي العين، اضطرمت في أعماقه أمام مشاهد الفناء، عوامل البقاء!.. استعرت فيه غزيرة حب البقاء، وأداتها الزواج والتناسل.. فتقدم إلى مجاعة قائلا: "زوجني ابنتك". قال مجاعة: "مهلا، إنك قاطع ظهرك وظهري معك عند صاحبك!".

قال: "أيها الرجل، زوجني ابنتك".

فزوجة مجاعة ابنته العذراء الحسناء.

فلما بلغ ذلك أبا بكر، كتب إلى خالد مؤنبا: "يا بن أم خالد! إنك لفارغ! تنكح النساء، وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد!؟".

فكتب إليه خالد: "لعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور، وقرت بي الدار... فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أعتبتك (أرضيتك وأزلت عتابك)، وأما حسن

عزائي عن قتلى المسلمين، فلو كان الحزن يبقي حيا، أو يرد ميتا، لأبقى حزني الحي، ورد الميت!".

ولقد اقتحمت حتى أيست (يئست) من الحياة، وأيقنت الموت!.. وقد صنع الله بالمسلمين خيرا، وأورثهم الأرض، والعاقبة للمتقين".

أما من بقي من الأمراء الذين عقد لهم أبو بكر ألوية القتال، فقد أدوا ما كلفهم به الصديق، وردوا الناس إلى الإسلام بعد معارك عظيمة، وأرسلوا إلى خليفة رسول الله أموال الزكاة، وخمس الغنائم والسبي.

وهكذا عادت الأرض التي كفرت واضطرمت، إلى الإسلام والسلام.

الفصل الخامس عند

الصباح يحمد القوم السرى

دخل أبو بكر على امرأة من الأعراب، زعموا لـه أنها تتعبد بالصيام عن الكلام منذ حجت، لكيلا تتورط في لغو الكلام. فقال لها: "تكلمي فهذا لا يحل". فتكلمت، قالت له: "من أنت؟" وأشار إلى من كانوا معه ألا يعلموها أنه خليفة رسول الله، وأجابها: "أنا امرؤ من المهاجرين" قالت: "من أي المهاجرين أنت؟" قال: "إنك لسئول (كثيرة السؤال) أنا أبو بكر" قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح؟ قال: "بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم". قالت: "وما الأئمة؟" قال: "أوما كان لقومك رءوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟" قالت: "بلى" قال: "فهم أولئك الناس".

وهكذا كان الصديق شديد العناية بتهذيب الرعية بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، حريصا على تبصيرهم، وأخذهم بمكارم الأخلاق التي جاء محمد ليكملها.

كان يشعر أن الله سيحاسبه على كل فرد من الرعية، فولي الأمر مسئول عن الرعية، وعن النهوض بكل أمورها، وكفاية حاجاتها جميعا.

ذهب إلى الحج والتقى بالحجيج، فوقف يسألهم: "هل من أحد يشكو ظلامة؟" فلم يتقدم أحد بمظلمة، وأجمع الناس على أن أئمتهم عادلون، يتقون الله في الرعية، ويسيرون في الناس سيرة حسنة، اقتداء بخليفة رسول الله، إمامهم الأعظم..

وأتاه أعرابي، فسأله أن ينصحه، قال الرجل: "أوصني، ولا تطل علي فأنسى، يا خليفة رسول الله!" فابتسم الصديق، وأخذ بيد الأعرابي وقال له: "يرحمك الله، بارك الله عليك، أقم الصلاة المكتوبة، وأد زكاة مالك طيبة بها نفسك، وصم رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، ولا تكونن أميرا".

قال الأعرابي: "إنه ليخيل إلي أن أمراءكم اليوم خياركم" قال الصديق: "إن هذه الأمارة اليوم ليست يسيرة، وقد أوشكت أن تفشو وتكثر، حتى ينالها من ليس لها بأهل، وإنه من يك أميرا فإنه من أطول الناس حسابا، وأغلظهم عذابا، ومن لا يكون أميرا فإنه من أيسر الناس حسابا،

وأهونهم عذابا، لأن الأمراء أقرب من ظلم المؤمنين، ومن يظلم المؤمنين فإنه يغضب الله، فالمؤمنون هم جيران الله، وهم عواذ الله، واالله إن أحدكم لتصاب شاة جاره أو بعير جاره، فيبيت يقول: شاة جاري.. وبعير جاري! فإن الله أحق أن يغضب لجيرانه".

واسترعى نظر أبي بكر غياب بلال، فهو يعتزل الناس أو يكاد، فما يؤذن بعد، وهو منذ توفي رسول الله ❐، واجم، صامت، ولم يعد أحد يراه إلا في الصلاة، ولم يعد يصحب أبا بكر، أو يغشى مجالسه، كما تعودا منذ اشتراه أبو بكر وأعتقه، أول العهد بالإسلام، وإنه لشارد حزين ما يجف دمعه آخر الدهر!

ودعاه الصديق فعاتبه في انقباضه عن الناس جميعا، حتى عن صديقه أبي بكر نفسه! ولامه على انقطاعه عن الأذان..

وكان أبو بكر في الحق مشفقا على بلال من أحزانه، ووحدته واعتزاله الناس، فقال له بلال: "يا خليفة رسول الله، إن كنت إنما أعتقتني الله عز وجل، لأملك نفسي وأنصرف فيما ينفعني، فخل سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي، فإن

الجهاد أحب من المقام!" قال أبو بكر: "فإن الله شهيد أني لم أعتقك إلا له، وأنى لا أريد منك جزاء ولا شكورا، فهذه الأرض ذات الطول والعرض، فاسلك أي فجاجها أحببت". قال بلال: "كأنك أيها الصديق عتبت على في مقالتي، أو وجدت (حزنت) في نفسك منها؟" قال: "لا والله يا بلال ما وجدت في نفسي من ذلك، وإني لا أحب أن تدع هواك لهواي، ما دعاك هواك إلى ربك". قال بلال: "فإن شئت أقمت معك". قال: "أما إذ هواك في الجهاد، فلم أكن لآمرك بالمقام، وإنما أردتك للأذان، ولأجدن لفراقك وحشة يا بلال! ولابد من التفرق فرقة لا لقاء بعدها حتى يوم البعث، فاعمل صالحا يا بلال، وليكن زادك في الدنيا ما يذكرك الله ما حييت، ويحسن لك به الثواب إذا توفيت".

وجاشت نفس الصديق، فسالت دموعه على وجهه المعروق، حتى اخضلت لحيته الشيباء المخضوبة بالحناء..

وترقرقت عينا بلال بالدموع، وقال: "جزاك الله من ولي نعمة ومن أخ في الإسلام خيرا فوالله ما أمرك لنا بالصبر على الحق، والمداومة على العمل بالطاعة ببدع! وما كنت لأؤذن لأحد بعد النبي ﷺ!".

وبكى الرجلان الصالحان، حتى علا منهما نشيج فاجع، وهما يتذكران نبي الله..
وانصرفا، بلال إلى عزلته، وأبو بكر إلى خارج

المدينة.. أخذ الصديق يتأمل الحقول والبساتين، ويملأ صدره بعطر الأرض، ويمتع عينيه بمرأى الخضرة، ويتأمل في خلق الله.. ثم دخل بستانا مونقا، فتأمل طائرا يتنقل فرحا خفيفا بين الأغصان، يهجع إلى ظل شجرة، فقال: "طوبى لك يا طير! تأكل من الثمر، وتستظل بالشجر، وتصير إلى غير حساب! يا ليت أبا بكر مثلك!".

وعاد إلى مكانه في المسجد يدير دفة الحكم، ويأتيه كتاب من خالد بن الوليد يسأله الحكم في أمر لا يعرف حكمه، ولا عهد لهم به في حياة الرسول!.. كتب أنه وجد في بعض نواحي العرب رجالا يتزوجون رجالا!! فاستشار الصديق أصحاب رسول الله، وفيهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان أشدهم قولا، فقال: "إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا واحدة (قوم لوط)، فصنع الله بهم ما قد

علمتهم، أرى أن يحرقوا بالنار".. فكتب أبو بكر إلى خالد أن يحرقوا.. فحرقهم.

ومضى أبو بكر يحكم الناس على أساس من الشورى، وكان أبو بكر يجعل للشورى مكانا عليا، فهو يرى في تفسيره القرآن الكريم أن الله قرن الشورى بالصلاة والزكاة، فمدح أقواما من المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وأمرهم شورى بينهم.. فكأن الشورى من أركان الإسلام.

ولقد تعود أبو بكر كلما ورد عليه أمر أن ينظر في كتاب الله، فإذا وجد به حكما قضى به، وإن لم يجد تأمل في سنة رسول الله، فإن علم في ذلك الأمر سنة قضى بالسنة، وإن لم يجد، قال للناس: "أنا في كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله ❐ قضى في ذلك بقضاء؟"، فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه رسول الله قضاء، فإن ذكر له واحد حديثا لم يقبله مهما يكن شأن الراوي حتى يقويه في الحديث نفسه صحابي آخر، من ذلك أن جدة طلبت منه ميراثا، فقال لها: "لا أعلم لك شيئا في كتاب الله ولا سنة رسوله" ثم سأل العالمين، فقال أحد كبار الصحابة: عندي من ذلك علم.

أعطاها الرسول ☐ السدس، فلم يقبل الحديث حتى قواه صحابي آخر شهد بصحة الحديث.

فإن لم يجد الصديق حكما في الكتاب أو السنة، قام بما أوصى به رسول الله عندما يجد أمرا لا قضاء فيه بنص من القرآن أو الحديث.. قال رسول الله: "اجمعوا له العالمين".

وهكذا كان الصديق يجمع رءوس الناس وأخيارهم فيشاورهم، فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به، وإن اختلفوا أخذ بأي الآراء أدنى لتحقيق المصلحة.. وكان الصديق في التزامه السنة يحكم بالرأي، إذ قال الرسول: أنا أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي".

وقدم معاذ بن جبل أمير اليمن على المدينة، فقال له الصديق: "ارفع حسابك" فغضب وقال: "أحسابان: حساب من الله وحساب منكم؟! والله لا ألي لكم عملا أبدا" ذلك أن الصديق أراد أن يحاسب الولاة والعمال اتباعا للسنة، وتحقيقا لمصلحة الأمة، والاجتهاد بالرأي نظر عقلي بلا مراء.

ولقد قدم أهل اليمن بعد أن عادوا إلى الإسلام، ودخلوا المسجد على أبي بكر تائبين نادمين، فلما سمعوا

القرآن، اقشعرت جلودهم من خشية الله، وجاشت أنفسهم، وجعلوا يبكون خاشعين، فبكى أبو بكر، وقال: "هكذا كنا ثم قست القلوب!".

* * *

أقام خالد في أحد وديان اليمامة بعد أن هزم مسيلمة الكذاب، وشتت جيشه، ونكبه، وأبطل أحدوثته.

واتخذ خالد بيتا في ذلك الوادي الهادئ، جمع فيه بين زوجيه: ليلي أم تميم، وبنت مجاعة، وأراح ظهره واستجم، في انتظار أمر خليفة رسول الله.. وأرسل خالد وفدا من أهل اليمامة إلى أبي بكر، فأتوه تائبين، يعلنون عودتهم إلى الإسلام، وقال لهم أبو بكر: "ما هذا الذي استذل منكم ما استذل؟!" قالوا: "يا خليفة رسول الله، قد كان الذي بلغك مما أصابنا، وقد كان امرءا لم يبارك الله له ولا لعشيرته!".

ولم تكد حروب الردة تنتهي، حتى ثار أنصار العنسي باليمن ثورة أخرى، ولكن أبا بكر أمد فيروز قاتل العنسي بالعتاد والرجال.. ذلك أنه كان مسلما حسن الإسلام، يقاتل مرتدين يقودهم عمرو بن معديكرب وقيس بن عبد يغوث اللذان اندفعا للقتال بعصبية جاهلية تؤجج ما كان

بين اليمن والحجاز من خصومة، وترفض أن يدفع اليمن إتاوة لرجل من قريش، ليس رسولا ولا نبيا!.. فهكذا فهموا إيتاء الزكاة بعد النبي.

وانتصر المسلمون، وأرسلوا قيسا وعمرو بن معديكرب أسيرين.. وكان عمرو من صناديد العرب، وأفرسهم، وأكثرهم شجاعة.. فعز على أبي بكر أن يخسره، وحرص على أن يستخلصه للإسلام، ويستنقذه من التردد بين الإسلام والردة. قال له أبو بكر: "أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟! لو نصرت هذا الدين لرفعك الله!" فقال عمرو: "لا جرم لأفعلن ولن أعود!" فأطلقه الصديق، ولم يرتد عمرو بعدها قط، بل أسلم وحسن إسلامه، ونصره الله، ليكون له بلاء أي بلاء في الفتوحات.

وأما قيس، فقال له الصديق: يا قيس، أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة (أي خاصة وبطانة لك) من دون المؤمنين".

وندم قيس، فعفا عنه الصديق.

وكان للعفو عن هذين البطلين من أبطال العرب آثاره العميقة والعريضة، فقد تألف به الصديق قلوب أقوام، كانوا

قد عادوا إلى الإسلام بعد الردة خوفا أو طمعا، أو تحت وطأة قهر الهزيمة، فآتوا الزكاة أذلة وهم صاغرون لا مؤمنين متقين..

وكان آخر الأسرى وهو أشعث بن قيس زوجا لأم فروة أخت أبي بكر، وقد أسلم، ثم ارتد، ثم أسلم، ثم ارتد، فسموه "عرف النار" وهي في لغة أهل اليمن تعني الغادر، إذ غدر بقومه لما أحاط بهم المسلمون، لكي ينجو بنفسه، وعاهد المسلمين على تسليمهم حصنه، فقتلوا من فيه من المقاتلين، وسبوا ألف امرأة من عشيرته!

فلما مثل أمام الصديق أسيرا سأله: "ما تراني صانعا بك؟" قال: "لا يحل دمي!" (يعني أن لديه عهدا بالأمان)، ثم قال: "أو لا تحتسب في خيرا فتطلق إساري، وتقيلن عثرتي، وتقبل إسلامي، وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي، وترد على زوجتي". وكانت قد تركته لما ارتد، وأقامت مع أخيها.

وسكت أبو بكر، فقال الأشعث: "افعل تجدني خير أهل بلادي لدين الله". فأطلقه أبو بكر، وأقام بالمدينة مع زوجته، ليكون له في الفتوحات شأن.

* * *

وما زالت أموال الصدقات وأموال الغنائم تطرق المدينة، وما انفك الصديق يقسمها على الناس مسويا بينهم، وما برح بعض الصحابة ينصح له أن يميز السابقين إلى الإسلام، وأن يفضل المجاهدين الأولين على القاعدين درجة، وما فتئ الصديق يقول لهم: "الأعمال ثوابها على الله، وهذا معاش فالأسوة فيه (المساواة) خير من الأثرة".

ولقد غضب الأنصار، لأنهم كانوا يرون أن يفضلهم الخليفة، فهم الذين آووا ونصروا، ولقد كانوا ملاك المدينة وحكامها، وأصحاب أمرها وأموالها قبل الإسلام، فنزلوا عن الأمر للرسول، ثم لرجل من المهاجرين هو خليفة رسول الله.. فما بال الخليفة لا يجازيهم على فضلهم؟!

قالوا له: "فضلنا يا خليفة رسول الله". قال: "صدقتم. إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا، وإن صبرتم كان الله عز وجل" فقالوا: "والله ما عملنا إلا الله تعالى" ثم

انصرفوا. فصعد أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلى

وسلم على النبي، ثم قال: "يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا،

ونصرناكم بأنفسنا، لقلتم، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طفيل:

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت

بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوأ أن يملونا لو أن أمنا

تلاقي الذي يلقون منا لملت

همو أسكنونا في ظلال بيوتهم

ظلال بيوت أدفأت وأظلت

ونزل أبو بكر، فتذاكر مع بعض كبار الأنصار، ما كان منهم مع رسول الله ❐ بعد فتح مكة والطائف وغزوة حنين.. ذلك أن الرسول غنم كثيرا، فأجزل العطاء لأشراف تلك القرى، ليتألف قلوبهم إلى الإسلام، وفضل هذا النفر في العطاء على المهاجرين والأنصار، اطمئنانا إلى عمق إيمانهم، فتحدث في ذلك بعض الأنصار من الخزرج إلى بعض، وقالوا: "لقي والله رسول الله قومه!" فلما علم بما قالوا أمر سعد بن عبادة سيد الخزرج أن يجمعهم، فلما جمعهم إلى الرسول، قال: "يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟! (جدة: غضبه أو حزن)، ألم

آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟" فأطرقوا خجلا، ولم يجيبوه، فسألهم: "ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟!" فقالوا: "بماذا نجيبك يا رسول الله؟! الله ورسوله المن (بفتح الميم: الأنعام والفضل)".

وإذ تذكر الصديق رسول الله، وقف على قبره، فاغرورقت عيناه، وما كان يستطيع أن ينساه!

وإنه لكذلك إذ تلا بعض الأنصار آية من القرآن، فوجد أنه قد نسي ما بعدها، فلم يسأل أبا بكر، بل مضى يلتمس ما نسيه عند أحد قراء وحفاظ القرآن، فعلم أن ذلك القارئ الورع قد استشهد في اليمامة، فسأل عن آخر فوجده استشهد في اليمامة أيضا.

وكانت المدينة على الرغم من فرحها بانتصار المسلمين على المرتدين ما زالت تبكي شهداءها!!.. ففي حرب اليمامة وحدها قتل من المسلمين مائتان وألف، منهم عدد من كبار الصحابة، وفيهم أكثر حفاظ القرآن: نحو أربعين من القراء.

عصرت الأحزان قلب المدينة، وغمرت الدموع ابتسامات الفرح بالنصر، وضاقت الصدور، ثقلت المحنة

على القلوب، بقدر ما أضاء انتصار المسلمين غيابات النفوس، وقوى من إيمانهم، وغرس الثقة في أعماقهم.

ما في المدينة من بيت إلا سقط فيه يوم اليمامة شهيد.. من أجل ذلك لم يستخف الفرح بالنصر أحدا بقدر ما أرمضه الحزن على من فقده.

وإذ كان عمر بن الخطاب يبكى أخاه زيدا، أقبل عبد الله بن عمر معافى، يضيء وجهه شعوره بحسن البلاء، وروعة الأداء في حرب اليمامة.. وابتدره عمر بقوله: "ما جاء بك وقد هلك زيد؟! ألا داريت وجهك عني!؟" فما كان جواب عبد الله إلا أن قال في أسى ومواساة: "سأل الله الشهادة فأعطيها، وجهدت أن تساق إلي فلم أعطها".

وانصرفا.. أما عمر فقد انطلق فسمع أن بعض المسلمين يلتمس آيات من القرآن، فلا يجدها، لأن كثيرا من القراء قتلوا في غزوة اليمامة، ولقد سأل عمر نفسه عن آية، فقيل له: "كانت مع فلان". وقتل يوم اليمامة.. قال: "لا إله إلا الله". وأقبل عمر على الصديق في مجلسه المألوف بالمسجد فقال له: "يا خليفة رسول الله، إن القتل قد استحر بقراء يوم اليمامة، (استحر بفتح التاء والحاء وتشديد الراء: اشتد)، وإني

أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها، فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن".

وبغت رأي عمر أبا بكر، فما كان قد فكر في جمع القرآن قط! إن رسول الله لم يجمع القرآن بين دفتي كتاب كما يرى عمر!! قال أبو بكر: "كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله؟!".

ولكن عمر ما زال به، حتى شرح الله صدره لجمع القرآن، فدعا زيد بن ثابت الأنصاري، وهو أحد الذين كانوا يكتبون الوحي للرسول.

قال زيد بن ثابت: أرسل إلي أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، وعنده عمر، فقال أبو بكر: "عمر أتاني فقال: إن القتل استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذي رأى عمر".

وأكمل زيد: "وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك. كنت تكتب الوحي لرسول الله ❐، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن!" قلت: "كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ❐؟"! قال: "هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر".

ويكمل زيد بن ثابت: "فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، وصدور الرجال (الأكتاف: جمع كتف يعني العظام العريضة) والعسب (جمع عسيب وهو جريد النخل قبل أن ينبت عليه الخوص)، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره، وهما (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم* فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

"فلما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ❐ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله

شهادته بشهادة رجلين، والآية هي: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) فألحقتها في سورتها".

ولما فرغ زيد من جمع القرآن بين دفتي كتاب أطلق أبو بكر رضي الله عنه على هذا الكتاب اسم (المصحف) ونسخ منه مصاحف، فحفظ بذلك القرآن.

فقال الإمام علي عليه السلام: "رحمة الله على أبي بكر! كان أعظم الناس أجرا في جمع المصاحف. وهو أول من جمع بين اللوحين".

وكان القرآن كله قد جمع في عهد الرسول ❐، ولكن في صدور الحفاظ والقراء، وفي صحف وألواح وعسب متفرقة. وما قبض الرسول حتى كان قد رتب الآيات التي أنزلت إليه، ووضعها في سور، ورتب السور، ثم كان آخر عام له في الحياة الدنيا. فعرض القرآن مرتين على جبريل بترتيب آياته وسوره.. وكان من قبل قد تعود أن يعرض القرآن على جبريل في كل مرة..

وقد أخذ القرآن تلقينا عن الرسول عدد من كبار الصحابة، منهم أبو بكر وعلي وعمر وعثمان وعبد الله بن

مسعود وعبد الله بن عباس من المهاجرين، ومن الأنصار أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت..

وكان الرسول يقول لأصحابه: "لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه".. وكان النبي يملي القرآن على رسله الذين يبعثهم إلى أحياء العرب، ليعلموا أهلها القرآن، وأحكامه، ويفقهوهم في الدين.. وهكذا عرف كثير من الصحابة علوم القرآن: الناسخ والمنسوخ والخاص والعام..

ولما أوحي إلى النبي آخر أية من القرآن وهي قول الله تعالى: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) قال جبريل: "يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة".

وكان علي بن أبي طالب قد عكف على جمع القرآن منذ توفي الرسول.. فعندما بايع الناس أبا بكر بيعة عامة، نظر أبو بكر في الناس فلم يجد عليا، فأرسل إليه، فقال: "أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟! أكرهت بيعتي فقعدت عني؟" قال علي: " لا والله ولكن خشيت على كتاب الله أن يزداد فيه، فآليت على نفسي ألا أرتدي بردائي إلا لجمعة (لصلاة

الجمعة) حتى أجمع القرآن". ثم قام فبايع، وقد حمد أبو بكر لعلي جمعه القرآن..

وكان ممن جمعوا القرآن عبد الله بن عباس، وقد أفاد زيد مما جمعه علي وابن عباس، ثم اجتمع له كل ما كتب عليه القرآن من رقاع وعظام أكتاف وجريد النخل ورقيق الحجارة، وجعل زيد يراجع الآيات آية آية، مع كبار الصحابة، ويضاهي المكتوب على المحفوظ، حتى يتحقق منها ويضعها حيث رتبها الرسول، مستهديا بما جمعه علي وابن عباس، وبما يحفظه هو وكبار الصحابة تلقيا من الرسول.

فجاء القرآن في المصحف كما أنزل على الرسول.

قرأ عمر بن الخطاب (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان) بغير واو العطف بين" الأنصار" و"الذين"، فقال له زيد: "من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان". فاختلفا، فاحتكما إلى أبي بن كعب، فوافق على قراءة زيد بوجود واو العطف بعد كلمة "الأنصار" وقال أبي لعمر: "والله لقد أقرأنيها رسول الله

❒ هكذا وأنت تبيع الحنطة!" فتذكر عمر، وأقر قراءة زيد وأبي..

* * *

مهما تكن قسوة حرب اليمامة، ومهما يكن فيها من كره للمسلمين، فقد جعل الله فيها خيرا كثيرا، فقد فتح الله بها للإسلام فتحا مبينا.. وذلك أن انتصار المسلمين يوم اليمامة، حسم حروب الردة فيما حولها وفيما جاورها، فعادت إلى الإسلام كل البلاد الساحلية والمطلة على الخليج، مما أتاح للمثنى بن حارثة الشيباني – عظيم بني شيبان – أن يزحف براية الإسلام إلى مصب دجلة والفرات، ثم يتجه شمالا ليكون طليعة الفتح الإسلامي لدولة الفرس.

كانت الخلافات تمزق أمراء الفرس، وما يحكم بلاطهم إلا السم أو الخنجر!

وانتهت خلافاتهم إلى الاتفاق على أن تتولى العرش بنت كسرى، فسخر بهم من حولهم من العرب، وقالوا: "لا ملك لأرض فارس، إنما يلوذون بباب امرأة!".. على أن الفرس لم يلبثوا أن عزلوها وتولى أحد الأمراء، ولم يلبث أن تولى غيره!!

وقد أدى اضطراب الأحوال، وتصارع الأمراء إلـى
انشغال الفرس بعضهم ببعض، فقام رجل من العرب من بني
بكر بن وائل المتاخمين للفرس، هـو المثنـى بـن حارثـة
الشيباني وقام معه أحد أقاربه، فشنا الغارات علـى دهـاقين
الفرس (رؤساء)، فكانا يغنمان ما شاءا ولا أحد يقدر عليهما.
فكتب المثنى إلى أبي بكر يحدثه عن انحلال دولـة
الفرس، واضمحلال شأنهم، ويعرفه بمـا يصـنعه بفـارس،
ويسأله أن يؤازره بجيش من المسلمين، ليستخلص العـراق
العربية من قبضة فارس، ويعاهده على أن يفتح لـه فـارس
نفسها..

وأتى كتاب المثنى أبا بكر، وهو يفكر فيما عسى أن
يصنعه بعد أن انتهت حروب الـردة، واسـتقرت الأمـور،
ودانت بلاد العرب قاطبة للإسلام وبالإسـلام، كمـا تركهـا
الرسول، بل إنها تخلصت من مدعي النبوة الذين ظهروا في
عهد الرسول نفسه، وفتنوا بعض النـاس خـارج بلادهـم،
وأضلوا كثيرا.

كان العرب قد نزحوا من اليمن وما حولها منذ قرون بعد
انهيار سد مأرب، فصعدوا إلى شمال بلاد العرب، ومنهم

من أقام بالحجاز، ومنهم من سار شمالا مشرقا ومغربا حتى ضرب خيامه جنوب الشام، أو غربي العراق، في صحارى لم يكن السكان الأصليون يحبون الإقامة بها. وقد تخلف كثير من عرب الحجاز، في جنوب الشام عبر العصور، بعد رحلة الصيف، التي ألفتها قريش إيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن.. وهكذا تحولت بادية الشام إلى أرض عربية خالصة، ساد فيها من القبائل العربية بنو غسان.. وعاما بعد عام أخذ الغساسنة بأسباب الترف والحياة الحضرية، ولكنهم ظلوا عربا في مشاعرهم وتقاليدهم، متميزين عن الفينقيين من أهل الشام، وإن خضعوا مثلهم لسلطان الإمبراطورية الشرقية (الروم)!.

أما العرب الذين هاجروا إلى بادية العراق، فكان أظهرهم بنو لخم. وقد خضعوا كأهل العراق الأصليين من الآشوريين لحكم الفرس..

ومهما يكن انفصال العرب عن أهل البلاد التي سكنوها، فقد حاولوا الامتزاج بهم، ولربما فتنتهم حياة الحضر ونعومتها، فيغمسون فيها، ومنهم من شارك في الحياة السياسية، حتى لقد تولى عربي من بني السميدع عرض الإمبراطورية الرومانية وعرف باسم فيليب، وكان

قبل أن يتولى الملك فاتكا، يقود عصابة ضارية من الفتاك والصعاليك!

وكانت مدينة الحيرة في جنوب العراق، مدينة عربية خالصة، وكانت حركة التجار في ذلك الزمان تمر من الهند والصين إلى مصر والشام عبر بلاد عربية، وعبر العراق، وكانت مكة تتوسط طريق التجارة بطريق حضرموت فاليمن فالحجاز فالشام، وكانت الحيرة وبلاد جنوب العراق تتوسط الطريق الآخر من حضرموت إلى البحرين ثم تمخر عباب الخليج إلى قمته وتعبر العراق إلى الشام، ذهابا وإيابا..

وقد تأثر اللخميون بحضارة الفرس، كما تأثر الغساسنة بحضارة الروم، ولكن العقلية العربية لم تهو المجوسية الفارسية، ولا الوثنية الرومانية.. فما عبد اللخميون النار، ولا عبد الغساسنة آلهة الرومان!

ولكن العرب أقبلوا على المسيحية حين ظهرت، فاعتنقها أكثرهم، فقد عقلوها.

وقد حرص كل من الروم والفرس، على أن يوزعوا السلطة في القبائل العربية التي تقيم في بلادهم، فقسموا السلطان على أمراء متعددين وأشعلوا الخلافات بينهم، كيلا

يسمحوا للعرب بأن يتحدوا..! ذلك أن الفرس والروم آذنتهم نذر هذه الوحدة العربية المرتقبة، بخطر شديد يهدد كلتا

الإمبراطوريتين. وقد كان عرب اليمن والحجاز يعرفون أن العرب بالعراق والشام تحت حكم الفرس والروم، إنما هم أهل قربى، فلربما كانت للقبيلة الواحدة عشائر أو فصائل في بلاد العرب، وأخرى في دولة الفرس أو دولة الروم.. وقد كان سلطان فارس قد امتد في وقت ما إلى اليمن، وأحياء العرب المترامية حتى الخليج، فلما ظهر الإسلام، ثم اضطرمت حروب الردة استقلت هذه البلاد العربية جميعا عن الفرس، بعد أن انتصر فيها الإسلام على أهل الردة، وبدأت بفطرتها تشعر بوحدة ذوي القربى، وجعلت المصالح المشتركة بين هذه الأحياء من العرب تقرب بينها، وتضعها في صراع مع الفرس..

وقد كان هم أبي بكر كما كان هم الرسول من قبله، هو أن يؤمن حدود بلاد العرب من غدرات الفرس والروم، ومن أطماعهم، وبطشهم وبغيهم..

لكن الحروب المتصلة بين الفرس والروم قد أوهنت الدولتين معا وكانت الدولتان تتداولان النصر والهزيمة (غلبت الروم * في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين..) وقد غلبوا فعلا بعد نحو تسع سنين، واستردوا ما كان الفرس قد اغتصبوه من المقدسات المسيحية في بيت المقدس.

وكان أشد ما يهدد الحجاز هم الروم، ولقد فكر أبو بكر بعد أن انتصر على أهل الردة أن يغزو الروم..

ولكنه آثر التريث، فغزو الروم يحتاج إلى جيوش جرارة، وعدة حديثه، وأموال طائلة، ثم إن من الخير أن يوطد سلطان الإسلام في بلاد العرب، وأن يوثق عرى التعاون والوحدة والإخاء، بين أهل هذه البلاد، وأن يعمل فيهم بقول الله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى). والمسلمون ينظرون إلى أبي بكر، ويعلقون عليه الآمال، فهو شيخهم، وهو شيخ الإسلام.

فلما جاء إلى أبي بكر كتاب المثنى، سأل عنه، فعلم أنه هو ذلك الشريف في قومه، الشجاع الذي لقيه مع النبي وعلي وهم يطوفون بأحياء العرب داعين للإسلام.. وتذكر

أنه من سادة بكر بن وائل، وأنه قال للنبي عن قومه في ذلك اللقاء، حين سألهم النبي أن ينصروه ويؤووه.." أما ما كـان مما يلي مياه العرب، فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبـول، وأما ما يلي أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول. فإذا أحببت أن نؤويك مما يلي ميـاه العـرب، آويناك ونصرناك" فقال الرسول ❐: "ما أسأتم فـي الـرد إذ أوضحتم بالصدق".

وعلم أبو بكر أن المثنى حارب أهل الردة، وقاد من تمسك بإسلامه في تلك الأحياء، وأنه كسر عمال الفرس الذين أعانوا المرتدين، وأوقع بهم، ثم طاردهم إلى بلادهـم، بعـد انتصاره على أهل الردة، وأنه نزل بدلتا الفـرات ودجلـة، وعاهد القبائل العربية المقيمة هناك، فتعاهد معهم أن يحاربا معا، ليساعدهم على الاستقلال عن الفرس..

وظل المثنى يغير على أهل فارس بدلتا النهرين وهي أرض السواد، وسميت بالسواد لكثرة زرعها وخضـرته، فتبدو الخضرة من بعيد سوادا.

وكان أبو بكر يقرأ كتاب المثنى في مجلسه بالمسجد على الحصباء فسأل عمر بن الخطاب: "من هذا الذي تأتينـا

وقائعه قبل معرفة نسبه"؟ فقال قيس بن عاصم: "أما إنه غير خامل ولا مجهول النسب، ولا قليل العدد، ولا ذليل الغارة، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني".

ولما لم يتلق المثنى ردا من المدينة على كتابه، أسرع إلى المدينة، ليلقى خليفة رسول الله، بدلا من انتظار الرد، فقال: "يا خليفة رسول الله ابعثني على قومي فإن فيهم إسلاما، أقاتل بهم أهل فارس ونواحي السواد حولا، وأكفيك ناحيتي من العدو".

فوافق أبو بكر، وعاد المثنى إلى العراق، وظل يغير بقومه على أهل فارس، ونواحي السواد، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر بكتاب قال فيه: "إن أمددتني وسمعت بذلك العرب أسرعوا إلي، وأذل الله المشركين، مع أني أخبرك يا خليفة رسول الله أن الأعاجم تخافنا وتتقينا" فقال عمر: "يا خليفة رسول الله، ابعث خالد بن الوليد مددا للمثنى بن حارثة، يكون قريبا من أهل الشام، فإن استغنى عنه أهل الشام ألح على أهل العراق يفتح الله عليه".

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المثنى بن حارثة: "إني قد وليت خالد بن الوليد، فكن معه" ووجه

الصديق خالدا من اليمامة إلى العراق، وأوصاه أن يتألف أهل فارس، وكل من كان في ملكهم من الأمم.

وكان مما أوصى به الصديق خالدا: "فر من الشرف يتبعك الترف، واحرص على الموت توهب لك الحياة".

وكتب إليه: "يا خالد سر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر (تقو) بالزاد، وسر بالأدلاء (جمع دليل) ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه.. وأقل من الكلام، فإنما لك ما وعي منك، واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.. وإذا قدمت إليك وفود العجم فأنزلهم وأسبغ عليهم النفقة، وامنع الناس عن مجادلتهم ليخرجوا جاهلين، كما دخلوا جاهلين، ولا تلحن (من الإلحاح) في عقوبة، فإن أدناها وجع، ولا تسرعن إليها وأنت تكتفي بغيرها".

وتهيأ خالد للزحف من اليمامة إلى العراق..

ورأى أن بينه وبين العراق صحارى شاسعة كالتيه، ولم يكن لخالد عهد بها، فما اجتازها من قبل، ولا اقترب منها!

وبحث خالد عن دليل يهديه طريقه، إلى العراق، في هذه الصحارى المترامية الأطراف، المتباعدة الآفاق، فقال له رافع بن عمرو الطائي: "قد سلكتها في الجاهلية، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل الماء، فاحمل من الماء شيئا كثيرا". فاشترى خالد مائة من الإبل الشداد، فعطشها، ثم سقاها الماء حتى رويت، وكمم أفواهها، فجعل بطونها مخازن للماء ثم سلك المفازة.

حتى إذا مضى يومان، وخاف العطش على الناس والخيل، وخاف أن يذهب ما في بطون الإبل، نحرها فاستخرج ما في بطونها من الماء، فسقى الناس والخيل، ومضى.

فلما كان في الليلة الرابعة، قال رافع بن عمرو الطائي" انظروا هل ترون سدرا عظاما: (شجر النبق)، وإلا فهو الهلاك! فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه، فكبر وكبر الناس، ثم هجموا على الماء، فقال خالد:

عند الصباح يحمد القوم السرى

وتتجلى عنهم غيابات الكرى

(السرى: السير ليلا).

وكان جنود خالد يتناصحون بكلام، حفظوه من الهند، خلال رحلات التجارة، قال أحدهم لصاحبه وهو يناصحه: "الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والمعاودة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولى، والكرة إن فر".

وكان الصديق قد أرسل كتابا إلى الذين في جيش خالد، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، جاء فيه بعد حمد الله والثناء على رسوله: "... فقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمري، فسيروا معه ولا تثاقلوا عنه، فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته، وعظمت في الخير رغبته. فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمري".

* * *

وكانت أرض السواد جنات خصيبة، تنتج غلات كثيرة، يملكها الفرس، ويزرعها العرب، ولكنهم لا ينالون من ثمرات عملهم إلا ما يسد الرمق، وما يسمح لهم بالحياة، للاستمرار في فلاحة الأرض!

كان ملاك الأرض لا يتركون للفلاحين مما تخرج الأرض، إلا بقدر ما يمكنهم من العمل! ولا حقوق لهم بعد، فهم عبيد الأرض، يشغلون فيها ويكدحون كدحا إلى رب الأرض! هم تبع للأرض، يباعون معها، ولا سلطان لهم عليها!.. وكان ملاك الأرض من الفرس قساة بغاة باطشين، فكرههم العرب العاملون في أراضيهم، وتمنوا الخلاص منهم، وكرهوا الديانة المجوسية التي يعتنقها ظالموهم ومستغلوهم من الفرس، ولم يعقل هؤلاء العرب أن يعبدوا النار، بل اعتنقوا المسيحية لما علموا بها، إذ عقلوها.

والصديق بمعارفه الواسعة يعرف هذا كله، من أجل ذلك أوصى خالدا وجنده، أن يحسنوا معاملة الفلاحين من ضحايا الحكم الفارسي، فهم عرب مثلهم، وأولو قربى، وهم أهل كتاب، فهم أشد الناس مودة للذين آمنوا.

ثم إنهم هم الذين يعملون في الأرض، وقد تلقى الصديق من الرسول: أن آتوا العامل أجره، قبل أن يجف عرقه.

أوصى أبو بكر جنده أن يرفعوا الظلم عن الفلاحين، إذا فتح الله عليهم أرض العراق، وأن يشعروا أولئك المعذبين

بأن الإسلام جاءهم بالعدل والإحسان، وبكل ما شرعه للحياة كتاب الله وسنة رسوله..

ولقد أوصى الصديق ألا يبقي في جيشه متعبا، وألا يكره أحدا على الجهاد، فإن آنس في أحد جنده مللا أو كللا، بعد معاناة اليمامة، فليسرحه من فوره.. يجب أن يكون الجند كلهم نشطين إلى الجهاد، في حب صادق للنصر أو الشهادة..

كما أوصى الصديق خالدا ألا يجند أحدا من أهل الردة الذين عادوا إلى الإسلام حتى يأمره بذلك الصديق نفسه.

فأعلن خالد قبل الزحف أنه يأذن في الرجوع، لأي مقاتل أدركه الملل أو الكلل من الحرب، فرجع من الجيش عدد من المقاتلين، مما دفع خالدا على أن يستمد الخليفة جندا غيرهم، ليعوضوا ما فقده من جنده، فأرسل إليه الصديق القعقاع بن عمرو التيميمي وحده!

فسأله بعض مجلس شوراه: "يا خليفة رسول الله، أتمد رجل قد ارفض عنه جنوده برجل واحد!؟" قال: "لا يهزم جيش فيه مثل هذا". ثم كتب إلى خالد مع القعقاع:

"استنفر من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول (ﷺ) ولا يقاتلن معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي".

كان المثنى بن حارثة الشيباني ينتظره بثمانية آلاف مقاتل على الحدود، فانضم بهم إلى خالد.. وكان خالد في طريقه قد استنفر الناس كما أمره أبو بكر، فبلغ جيشه عشرة آلاف مقاتل..

وقسم خالد الجيش ثلاث فرق، الأولى على رأسها المثنى، وسيره خالد من فوره، واستأخر عنه يومين. والثانية يقودها عدي بن حاتم، استقدمها عنه يوما واحدا، والثالثة هي المؤخرة، عليها خالد نفسه.. أي أن الفرق الثلاث ستزحف خلال أيام ثلاثة: فرقة المثنى، وفي اليوم التالي فرقة عدي، وفي اليوم الذي يليه فرقة خالد: أمير الجيوش كلها.

ومضى كل أمير بجيشه في اتجاه من نواحي العراق، ليلتقوا على قدر، فيطبقوا على العاصمة: الحيرة.

أما خالد بن الوليد فقاد فرقته إلى الحيرة، وفي طريقه إليها نزل بقرى السواد، فانقض عليها، ولم تثبت له حاميتها من الفرس، وقتل من جندها الفرس خلقا كثيرا، فأسرع أهل القرى إليه فصالحوه على ألف درهم، وكتب لرئيسهم معاهدة

الصلح: "بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادي – ومنزله شاطئ الفرات - إنك آمن بأمان الله – إذ حقنت الدم بإعطاء الجزية - وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك (أي الخراج: الضريبة). وجزيتك ومن كان في قريتك – جانقيا وباروسما - ألف درهم، فقبلتها منك، ورضي من معي من المسلمين بها منك، ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ، وذمة المسلمين على ذلك".

وانطلق خالد في طريقه إلى الحيرة، فاعترضه رئيس حامية قرية أُلَّيس (بفتح اللام المشددة وسكون الياء)، فسير إليه المثنى بن حارثة، وأوقع بالحامية جميعا، وكانوا يقتتلون إلى جوار نهر، فسحقهم المثنى ما بين قتيل وغريق! وصالح أهل القرية من العرب..

وتقدم خالد حتى دنا من الحيرة، وقبل أن يبلغها تصدت له حامية فارسية، يقودها قائد فرسان كسرى، فوجه خالد إليه المثنى فصاولهم، وأوقع بهم.

وسبقت خالد إلى أهل الحيرة أنباء انتصارات المسلمين، فخشي أهل الحيرة أن ينكبهم المسلمون، كما نكبوا القرى التي صاولتهم، فخرج أهل الحيرة يستقبلون خالدا،

وفيهم عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة، وهانئ بن قبيصة، قال خالد لعبد المسيح: "من أين؟" قال: "من ظهر أبي" قال خالد: من أين خرجت؟" قال: "من بطن أمي" قال خالد: "ويلك! في أي شيء أنت؟" قال: "في ثيابي" قال: "أتعقل؟" قال: "نعم وأقيد" قال خالد: "إنما أسألك" قال عبد المسيح: "وأنا أجيبك" قال: "أسلم أنت أم حرب؟!" قال: "بل سلم" قال: "فما هذه الحصون التي أرى؟" قال: "بنيناها للسفيه نحبسه، حتى يجيء الحليم فينهاه".

ثم قال لهم خالد: "إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته وإلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر!". فقالوا: "لا حاجة لنا في حربك!".

فصالحهم على تسعين ومائة وألف درهم.

ثم أرسل هذه الجزية إلى أبي بكر، مع جزية القرى التي صالحها من قبل (ألف درهم)، فكانت أول جزية تطرق المدينة من العراق..

ولبث خالد في مدينة الحيرة، وبعث رسالة إلى هرمز، نائب كسرى على العراق، وانتظر منه ردا.

وهذا الأمير الفارسي كان شديد القسوة على رعيته من عرب العراق، وكان قاسي القلب، خبيث الطوية، غادرا فاتكا، لا عهد له ولا أمان!

وكان عرب شبه الجزيرة العربية يثبون أحيانا على بلاده، لينصروا ذوي قرباهم من عرب العراق، فيلقون منهم المساعدة، فزاد ذلك من أضغانه على رعاياه من عرب العراق.

وكذلك كانت قراصنة الهند تأتيه من الخليج فتعربد عليه أياما، ثم تنفلت بما غنمته، ويطارد حملات قراصنة الهند في البحر، فلا يبلغ منها شيئا..

وكان هرمز لمكره السيئ، وسوء خلقه، وخباثة معدنه يضرب به المثل، فيقول عرب العراق: "أخبث من هرمز! وأكفر من هرمز!".

وكان الفرس يجعلون قلانسهم على أحسابهم من عشائرهم، ومراتبهم في الدولة، وكان أعلاهم مرتبة يضع على رأسه قلنسوة مرصعة بالجواهر، قيمتها مائة ألف درهم! فكان لهرمز قبعة ثمينة ثمنها مائة ألف درهم!

* * *

أصبح الأمير الفارسي وأمسى فتلقى من خالـد بـن الوليد
كتابا يقول فيه: "أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسـك
ولقومك الذمة (أي اعترف بالذمة)، وأقر بالجزية، وإلا فـلا
تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت، كما تحبـون
الحياة!".

فلما قرأ هرمز كتاب خالد تغيظ عليه، ثم كتب إلــى
ملك فارس يطلب النجدات، ثم انطلق ليصدم خالـدا بغتـة،
وعلم خالد فخرج إليه ليلقاه في الكواظم، وغير خالد طريـق
سيره ليلتف حول هرمز وجنده، ويأتيهم من خلفهـم، فغيـر
هرمز خطته، ليواجه خالدا عند مكان يقال له الحفير. وأنزل
به جنده، وتلقى فيه مدده، وجعل يعبئ الناس، حتى اجتمع له
ش كثيف، بلغ أضعاف جيش خالد، فلما علم خالد بـذلك،
داوره وناوره، واتجه إلى الكواظم مرة أخرى

ومل جند هرمز هذه المداورة، فأظهروا سأمهم، فأمر
بالسلاسل، فأوثقهم بها، جماعة جماعة، ذلك أنه أساء الظـن
بهم جميعا، وحسبهم في مللهم هذا يريدون الهرب، فقـال
بعض أعوان هرمز له ولجنده: "قيدتم أنفسكم لعـدوكم! فـلا
تفعلوا، فإن هذا طالع سوء!".

وزحف هرمز بجنده وبما أمده به ملكه أردشير، فبلغ الكواظم قبل خالد، فنزل الفرس على الماء، ونزل خالد بجيشه، ولا ماء يستقون منه، أو يسقون الخيل، فشكوا ذلك لخالد، فقال لهم: "جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء! وجاهدوهم على الماء فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين".

فلما تقابل الصفان اقتتلوا على خيولهم.

وفوجئ الفرس بقتال المسلمين العرب، فقد كانوا يرونهم حفاة، فقراء، لن يجسروا على مواجهتهم! ولكن شجاعة العرب أدهشتهم، فإذا بالفرس يتزايلون في أغوار نفوسهم، لقد حاول بعضهم أن يهرب، فجذبوا المقرنين في الأصفاد والسلاسل معهم، فأوقعوهم، ودهستهم سنابك الخيول!.. واستيقن هرمز أنه مغلوب، فانتهز فرصة هدوء المعركة، وأسر إلى حرسه من الفرسان أمرا، وكانوا يحيطون به، وبغتة، نزل عن فرسه، ودعا خالدا ليبارزه، فترجل خالد، وتقدم إلى هرمز، فاختلفا ضربتين، ثم وثب عليه خالد، واحتضنه، وإنه ليوشك أن يطرح هرمز أرضا، انقض حرس هرمز على ظهر خالد ليطعنوه من ظهره، فعاجلهم القعقاع فأطار رأس قائد الحرس، وفلق هامات

أخرى، واضطرب الفرس، وقد ركب العرب ظهورهم وأكتافهم، ولطمتهم السلاسل، فتساقطوا، لتطأهم الخيل والدواب، عاجزين عن الإفلات من أسنة العرب.

وغنم العرب من الفرس حمل ألف بعير، وبعث خالد سرايا تفتح ما حول الحيرة من حصون، فغنموا أموالا كثيرة.

وعلم غدر هرمز بعد ذلك خالدا أن يحمي ظهره كلما بارز فارسيا.

ولم يعرض خالد لمن لم يقاتلوه من الفلاحين، بل أحسن معاملتهم كما أوصاه الصديق، وأبقاهم في الأرض التي يفلحونها، ومكنهم من إنتاجها، ومتعهم بثمرات عملهم، فمن دخل منهم في الإسلام، حدد له نصيبه من الزكاة، ومن بقي على دينه، فرض عليه الجزية، وهو أقل بكثير مما كان ينهبه المالكون الفرس، ولم ينتزع الأرض من أيدي أصحابها الفرس، ولكنه أنصف العاملين فيها وكلهم عرب مسيحيون. فأحسوا بأن عصرا جديدا من العدل والإخاء الإنساني يشرق عليهم من خلال هذا الفتح العربي الإسلامي.

وأرسل خالد خمس الغنائم والأموال إلى الصديق، ووزع الباقي على المقاتلين.

وكان مما أرسله إلى الصديق قلنسوة هرمز.. ولكن الصديق أهداها إلى خالد، مكافأة له على حسن بلائه.

وأرسل خالد فيما أرسل إلى المدينة فيلا أبيض، وما كان العرب قد شاهدوا فيلا أبيض ولا أسود، منذ عام مولد الرسول، عندما جاء أصحاب الفيل بالفيل، ليهدموا الكعبة، فجعل الله كيدهم في تضليل..

فلما سار الفيل الذي أرسله خالد إلى الصديق في طرقات المدينة، هرع الناس لمشاهدته وجلين، وقال نسوة في المدينة: "أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع؟!".

فرده الصديق إلى خالد..

وكان مما أرسله خالد إلى الصديق في خمس الغنائم، طيلسان مرصع، كان قد صالح عليه أهل القرية اسمها بانقيا في ناحية من نواحي الكوفة، وهو في طريقة إلى الحيرة، وعن وقعتها يقول شاعرها:

أرقت ببانقيا ومن يلق مثلما

لقيت ببانقيا من الهم يأرق

(الطيلسان: كساء أخضر ثمين يلبسه رؤساء الفرس ووجهاؤهم).

وأعجب الطيلسان أبا بكر رضي الله عنه، فكساه الحسن بن علي عليهما السلام.

* * *

عندما كان خالد والمثنى ينتقلان من فتح إلى فتح، في دولة الفرس، انشرح صدر خليفة رسول الله ليحقق ما كان قد تمناه رسول الله ﷺ: أن يحرر عرب الشام من سلطان الروم، وأن ينشر نور الإسلام في غياهب تلك الأرض التي ملأتها الإمبراطورية الرومانية الشرقية جورا وظلما، وفسادا!

فأرسل أبو بكر الصديق إلى هرقل إمبراطور الروم رجلا من حكماء المسلمين، ومن أكثرهم حصافة، هو عبد الله بن الصامت.

قال عبد الله بن الصامت: "وجهني أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – إلى ملك الروم، لأدعوه إلى الإسلام، أو آذنه بحرب. فسرت حتى أتيت القسطنطينية، فأذن لنا عظيم الروم، فدخلنا عليه، فجلسنا، ولم نسلم، ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام، ثم صرفنا يومنا ذلك، ثم دعا بنا يوما آخر، ودعا خادما له، فكلمه بشيء، فانطلق، فأته بعتيدة (العتيدة: النموذج "ماكيت")، فيها بيوت كثيرة،

وعلى كل بيت باب صغير، ففتح بابا، فاستخرج خرقة سوداء، فيها صورة بيضاء، كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجها، مثل دارة القمر ليلة البدر، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا قال: هذا أبونا آدم عليه السلام، ثم رده، وفتح بابا آخر، فاستخرج خرقة سوداء، فيها صورة بيضاء، على صورة نبينا محمد ❐، وعلى جميع الأنبياء، فلما نظرنا إليه بكينا، فقال: مالكم؟! فقلنا: هذه صورة نبينا محمد ❐، فقال: أبدينكم، إنها صورة نبيكم؟ قلنا: نعم هي صورة نبينا، كأنا نراه حيا، فطواها، وردها، وقال: أما إنها آخر البيوت إلا أني أحببت أن أعلم ما عندكم، ثم فتح بابا آخر، فاستخرج منه خرقة سوداء، فيها صورة بيضاء، أجمل ما يكون من الرجال، وأشبههم بنبينا محمد ❐، ثم قال: وهذا إبراهيم، ثم فتح بيتا آخر، فاستخرج صورة رجل آدم (يعني: أسمر)، كهيئة المحزون المفكر، ثم قال: هذا موسى بن عمران، ثم فتح بيتا آخر، فاستخرج صورة رجل له ضفيرتان، كأن وجهه دارة القمر، ثم قال: هذا داود، ثم فتح بيتا آخر، فاستخرج صورة رجل جميل على فرس، له جناحان، ثم قال: وهذا سليمان، وهذه الريح تحمله، ثم فتح

بيتا آخر: فاستخرج صورة شاب جميل الوجه، وفـي يـده عكازه، وعليه مدرعة صوف (مدرعة: جبة)، ثم قال: وهذا عيسى روح الله، وكلمته، ثم قـال: إن هـذه الصـور إنمـا توارثها الملوك واحدا من بعد الآخر حتى أفضت إلي .

لم يشف جواب الإمبراطور أبا بكر، وكان أبو بكـر يخشى أن يقتحم الروم أرض الحجاز، وكانت الحـدود بـين بلاد العرب والإمبراطورية الرومانية بلاد الغساسنة، وهـم عرب، بنو عمومة عرب شبه الجزيرة العربية، ولكن جنـد الروم كانوا هم حماة أرض الغساسنة، جنوب الشام، فإن هي إلا ولاية رومانية، كما كانت أرض بني لخم ولاية فارسـية، حماتها الفرس..

وكان أبو بكر يحب أن يفرغ من فتح العراق، ليوجه جنده لفتح الشام، معتمدا في الحالين، على سكان البلد العرب، المضطهدين الحالمين بالانعتاق!..

ولكنه خشي أن يعجل عليه إمبراطور الروم، فيزحف إلى بلاد العرب، وجيوش المسلمين منهمكـة فـي حـرب العراق.

فآثر الصديق أن يختار هو نفسه وقت القتال، وساحته، بدلا من أن يفرض عليه القتال. ورأى الصديق أن يؤمن حدوده الشمالية المتاخمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية جنوبي الشام، فما زال هرقل إمبراطور الروم يمني نفسه بغزو بلاد العرب! فأرسل الصديق خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء، وهي مصيف الحجاز، وفيها قال أحد شعرائهم.

وأخبرتماني أن تيماء منزل

لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

وهذه شهور الصيف عني قد انقضت

فما للنوى تلقى بليلى المراميا؟!

وأوصى أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص أمير تيماء أن يقيم بها يقظا، فطنا. ليكون حاميا لمن خلفه، من المسلمين في بلاد العرب، من فتكات الروم، وغدرات ملكهم.. وأوصاه بالأناة والصبر، وحذره من العجلة في أمره.

وشدد عليه أبو بكر ألا يبرح تيماء المتاخمة لجنوب الشام، وأن يدعو القبائل التي حول تيماء إلى الانضمام إليه،

إلا من كان قد ارتد منهم، وأمره ألا يقاتل إلا من قاتله، حتى يأذن له أبو بكر نفسه.

ولكن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب نصحا للصديق، ألا يجعل خالد بن سعيد بن العاص أميرا على تيماء وأشاروا عليه أن يختار غيره لحماية بلاد العرب من مغامرات الروم، فقد رأيا أن عملا كهذا يحتاج إلى رجل أوتي الحكمة والشجاعة معا، أما خالد بن سعيد بن العاص: "فلا روية عنده بل هو ضعيف التروية، وإنه لمخذول!"، ولقد أضافا: "إنه رجل فخور، مغرور، سريع الإقدام، سريع الإحجام!".

وإنهما ليذكران أنه بعد البيعة العامة لأبي بكر، حاول أن يخرج على الجماعة، وأن يحرض بني عبد مناف، فأقبل على عثمان وعلي، فقال لهما مؤنبا على بيعتهما: "يا بني عبد مناف لقد طبتم نفسا عن أمر لكم، يليه غيركم!" يقصد خلافه رسول الله، وهو من بني عبد مناف..

قال عمر لأبي بكر: "أتؤمره وقد صنع ما صنع وقال ما قال؟!" ولكن أبا بكر أصر، فانطلق سعيد على تيماء، فضم إليه ما حولها من القبائل العربية، حتى أصبح له جيش

كثيف، فأغراه هذا بمصاولة الروم، وأرسل إلى الصديق يستأذنه، ويستمده.

وانتظر خالد بن سعيد رد الخليفة..

* * *

وحشد الروم جيوشهم، وتواجه الجيشان: جيش خالد بن سعيد، بمن انضم إليه من قبائل العرب المجاورة لتيماء، وكلهم مسلمون، وجيش الروم! ووقف الجيشان ينتظران على التخوم: هذا في تيماء أرض العرب، وهذا في أدنى الأرض من دولة الروم!

وقبل أن يرد أبو بكر على خالد بن سعيد، دعا إليه عددا من المهاجرين والأنصار فالتفوا حوله في المسجد.

قال أبو بكر لمجلس شوراه: "كان رسول الله ❐ قد عول أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه، واختار ما لديه. والعرب بنو أم وأب، وقد أردت أن استنفرهم إلى الروم بالشام، فمن هلك منهم هلك شهيدا، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين، مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين".

ثم سألهم المشورة، فقال عمر: "واالله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه، قد واالله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي ذكرت، فما قضى االله أن يكون ذلك، حتى ذكرته أنت الآن! فقد أصاب االله بك سبل الرشاد. سرب إليهم الخيل في إثر الخيل، وابعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تتبعها الجنود، فإن االله عز وجل ناصر دينه، ومقر الإسلام وأهله، ومنجز ما وعد رسوله".

وارتاح أبو بكر لقول عمر، ثم تكلم عبد الرحمن بن عوف، فقال رأيا آخر..

قال: "يا خليفة رسول االله، إنها الروم وبنو الأصفر! (يقصد الشقر): حد حديد، وركن شديد! واالله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاما، ولكن تبعث الخيل فتغير في أداني أرضهم، ثم تبعثها فتغير، فترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضروا بعدوهم، وغنموا من أداني أرضهم، فقووا بذلك على قتالهم، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن، وإلى أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعا. فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك".

فوجم الناس، ودهتهم الحيرة برهة: أي الرأيين أصوب؟ أرأي الصديق والفاروق – وكان الرسول لا يخالفهما إذا اتفقا على رأي - أم رأي عبد الرحمن بن عوف أحذق تجار العرب، وأقدرهم على الكسب؟!

وطال صمت الناس، فسألهم أبو بكر،" ماذا ترون رحمكم الله؟!"

قال ذو النورين عثمان بن عفان: "أرى أنك لأهل هذا الدين شفيق عليهم، فإن رأيت رأيا فيه رشد وصلاح وخير، فاعزم على إمضائه، فإنك غير ضنين ولا متهم".

فقال الناس: "يا خليفة رسول الله، ما رأيت من رأي فأمضه، فإنا سامعون لك مطيعون، لا نخالف أمرك، ولا نتهم رأيك، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك".

وخالد بن سعيد بن العاص ما زال ينتظر رد الخليفة: أيقدم أم يحجم؟!

ولم يشأ الصديق أن يبرم أمرا، أو يأذن للجيش الإسلامي بالتقدم، حتى يستشير أهل مكة.. فقد رأى أن يوسع قاعدة الشورى، فيدخل فيها إلى جوار المهاجرين والأنصار من أهل المدينة آخرين من المسلمين ذوي الرأي.. فلماذا

يخص أهل المدينة وحدهم بالشورى، وما بال أهل مكة، وأهل القرى الآخرين؟!

ولما أذاع الصديق أنه سيرسل إلى أهل مكة ليشيروا عليه، خالفه عمر، وزعم أن السابقين هم وحدهم، دون غيرهم، أهل الشورى!

فعلم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو بما كان من عمر، فأتيا المدينة، فقال سهيل لعمر: "ألسنا إخوانكم في الإسلام، وبني أبيكم في النسب؟! أفإنكم إن كان االله قدم لكم في هذا الأمر قدما صالحا قاطعو أرحامنا، ومستهينون بحقنا؟!".

قال عمر: "إني واالله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام، وتحريا للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين".

الصديق يرى أن يسوي بين المسلمين في كل أمر: في العطاء والمشورة، أما الفاروق فكان يرى تقديم السابقين، ويقول ساخرا لمن يعاتبونه في ذلك: "لا تلومن إلا أرواحكم التي تأخرت بكم!".

فلما اتفق الصديق والناس على مناجزة الروم، قال لهم: "فإني مؤمر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيتكم وسيركم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".

وأرسل الصديق إلى خالد بن سعيد بن العاص الرد الذي طال انتظاره: "أقدم ولا تحجم، واستنصر بالله".

فاقتحم خالد بن سعيد، صفوف الروم، فتفرقوا عنه هاربين، وكتب إلى أبي بكر بالنصر، فرد عليه: "تقدم، ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك!".

فتقدم حتى بلغ القسطل في طريق البحر الميت، فلقي الروم على شاطئه فهزمهم مرة أخرى.

فتفرق الروم مجانين من الغيظ، يعجبون لما عاينوه من قوة العرب المسلمين..! وأعدوا جيشا ضخما، يربو على ضعف جيش خالد بن سعيد.

فأرسل إلى الخليفة يبشره بهزيمة الروم مرة أخرى وينبئه بكثافة ما حشدوه، ويطلب منه مددا.. وأبو بكر ما زال يفكر فيمن يجعلهم أمراء على الجيوش التي يعدها لفتح الشام..

وسئل لماذا لا يستعمل أحدا من أهل بدر أميرا أو قائدا.. قال: "إني أرى مكانهم، ولكني أكره أن أدنسهم بالدنيا".

وإنه ليذكر قول الرسول لعمه العباس حين سأله ولاية، قال ﷺ: "يا عم، نفس تحييها خير من ولاية تحصيها".

من أجل ذلك حرص أبو بكر على أن يبقى إلى جواره بعض كبار الصحابة، ليعاونوه، ويشيروا عليه، وليفقهوا الناس في أمور دينهم..

ولكن الحاجة اضطرت أبا بكر آخر الأمر إلى ما لا يحب!! فاضطر إلى استعمال بعض هؤلاء على كره منه..

فلما عقد ألوية أمراء الجيوش التي سيوجهها إلى الشام، استعمل أبا عبيدة بن الجراح أمين الأمة قائدا أعلى لجيوش الشام!

ونظر أبو بكر في خير ما يعده للقاء الروم، فرأى أن يستنفر أهل اليمن، فهم أولو قوة وأولو بأس شديد، وهم من أوائل العرب إسلاما، ومن أعمقهم إيمانا، ولئن كان بعض أحيائهم قد ارتد، إنهم منذ تابوا لأحرص الناس على الجهاد

في سبيل الله، وعلى نصرة خليفة رسول الله، فهو اليوم شيخ الإسلام.. وإنهم ليرون أن الله لن يغفر لهم ردتهم، حتى يجاهدوا في سبيله بأنفسهم وأموالهم.

وكتب الصديق إلى أهل اليمن: "أما بعد، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا، (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله). فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا (أي من عندنا) من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام".

فخف ذو كلاع الحميري إلى سلاحه وفرسه، وتداعى ملوك اليمن، وزحف جيش عظيم منهم إلى المدينة، ليلقوا خليفة رسول الله، فيأمرهم بما يعملون.

أتى ملوك اليمن أبا بكر، يقودهم ذو الكلاع الحميرى ملك حمير، من خلفه ومن حوله ألف عبد من الفرسان، وعلى رأسه التاج، وعلى حلته الجواهر المتلألئة، وبردته تسطع بخيوط الذهب المرصع باللآلئ والياقوت والمرجان! وبحث ذو الكلاع عن خليفة رسول الله، وهو يدعو الله أن يكون ما يلبسه من حرير وجوهر، ملائما لمقابلة أبي بكر الصديق، وهو الآن ملك الدنيا!! سأل ذو الكلاع عن ملك

الدنيا، أبي بكر الصديق، ودلوه على المسجد، فلما دخل يبحث عن ملك الدنيا، وجد شيخا نحيلا، معروق الوجه، وعليه ثوب خشن، ولا شيء يسطع من ثيابه!.. لا شيء على الإطلاق غير الورع، يضيء وجهه الأبيض!.. أين عرش ملك الدنيا؟! لا عرش!.. إنه يجلس على الحصباء!.. ملك عرشه أرض المسجد، وبلا تاج، وحلته الملكية برد خشن!!.. وتحسس ذو الكلاع ما يرتديه من المخمل والحرير والفراء..!

ثم غشي ذا الكلاع الحياء.. ووجم برهة، وانطلق، فألقى ما يرتديه، ولبس ثوبا خشنا مثل أبي بكر، ولقيه نفر من عشيرته في سوق المدينة، وعلى كتفه جلد شاه، ففزعوا، وقالوا له: "قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار!".

وفكر في أمر أبي بكر الذي كان يحسبه ملك الدنيا، فلما رآه إذا هو شيخ الإسلام! فقال لهم: "أفأردتم مني أن أكون ملكا جبار في الجاهلية، جبارا في الإسلام؟! لا هاالله (لا والله بلهجة اليمن) لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع الله، والزهد في الدنيا!".

وصنعت ملوك اليمن كما صنع ذو الكلاع الحميرى، فتخلوا عن التيجان المثقلة بالجواهر، وتركوا حلل المخمل الموشى بخيوط الذهب والياقوت والدر والمرجان، واشتروامن سوق المدينة ثيابا خشنة، ووضع الصديق في بيت المال ما تخلوا عنه جميعا من نفائس.

وبحث ذو الكلاع عن وزير لأبي بكر، إذ رأى أن الحديث مع الوزير أيسر عليه من التحدث إلى ملك الدنيا، وشيخ الإسلام!

وأخبروه أن عمر هو وزير أبي بكر، فأقبل ذو الكلاع على عمر، وهو في جماعة من المهاجرين والأنصار، وسمع واحدا منهم يقول لعمر: "بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدية، فأقمت ببابه سنة لا أصل إليه، ثم اطلع اطلاعه من قصره، فلم يبق أمام قصره أحد إلا خر له ساجدا! ثم أمر بهديته فقبلت!" وتقدم ذو الكلاع فسلم، ثم قال لعمر: "لي ذنب ما أظن أن الله يغفره لي" فسأله عمر: "وما هو؟!" قال: "تواريت عمن يتعبد لي، ثم أشرفت عليهم من مكان عال، فسجد لي زهاء مائة ألف" (زهاء: ما يقرب من). فقال عمر: "التوبة بالإخلاص، والإنابة بالإقلاع يرجى بهما

مع رأفة الله الغفران. قال الله تعالى: (لا تقنطوا من رحمة الله)".

اليمن وأصبح ذو الكلاع، فأعتق عبيده جميعا، قال: "هم أحرار لوجه الله، وقادهم إلى الشام، وتبعه ملوك الآخرين بأتباعهم.

* * *

لم يكن مدد أبي بكر قد أتى خالد بن سعيد بن العاص بعد، وكان عكرمة بن أبي جهل بعد أن هزم أهل الردة في حضرموت وما حولها، في طريقه مددا له، كذلك خف عمرو بن العاص يقود جيشه إلى الشام.

وكان عمرو بن العاص منذ قضى على الردة في قضاعة (شمال الحجاز)، مقيما بها، أميرا عليها، فأرسل إليه أبو بكر يستثيره في الزحف إلى الشام، قال لعمرو: "وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك".

فرد عليه عمرو: "يا خليفة رسول الله، إني سهم من سهام الله، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها..".

ثم كتب الصديق إلى الوليد بن عقبة، ووجهه إلى الشام، فأسرع يستبق الآخرين، فكان هو أول من أتى خالد بن سعيد بن العاص، وأنبأه بما أمده به خليفة رسول الله من جيوش عظيمة، وأبلغه أمر الخليفة ألا يصاول الروم حتى تأتيه الجيوش، فيستطيعوا أن يصاولوا جيش الروم ذا العدة الحديثة، والعدد الكبير.

ولكن خالد بن سعيد بن العاص، تعجل لكي يحرز فخر الانتصار على الروم! وشجعه على المخاطرة أنه علم أن عرب الشام، وهم مسيحيون، في شقاق بعيد مع حلفائهم الروم.. فهرقل إمبراطور الروم يدين بمذهب في المسيحية يؤمن بالتثليت، وبازدواج طبيعة المسيح، أما عرب الشام فيؤمنون بالتوحيد، وبالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، ودعاهم هرقل إلى عقيدته، فأبوا فجعل يقسو عليهم، ويضطهدهم، ويعذبهم! وهذا جعلهم أشد قربى للعرب المسلمين الذين يؤمنون بإله واحد أحد لا شريك له، فضلا عن قرابة العروبة نفسها، ثم إنهم سمعوا عن عدل المسلمين وحسن معاملتهم للمعذبين في أرض العراق!

وهكذا تجنب عرب بادية الشام قتال بني عمومتهم من بلاد العرب، ثم إنهم وجدوا فيهم أمل الخلاص.. وكان هرقل قد حشد عرب الشام مقدمة لجيوشه، فتنحوا وتركوا خالد بن سعيد بن العاص، يتخذ طريقه، ويخترق صفوفهم، وأغرى هذا قائد العرب المسلمين بالتوغل في أرض الروم، مخالفا عن أمر خليفة رسول الله..

وتراجع جيش الروم، إلى أعماق أرض الروم، استدراجا لخالد بن سعيد بن العاص ولجند المسلمين، من حيث لا يعلمون!

حتى إذا انطلت خدعة قائد الروم على المسلمين، انقض عليهم الروم، شرقي بحيرة طبرية عند مرج الصفر، فأحاطوا بالمسلمين، وأوقعوا بهم، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، منهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص.! فلما علم أن ابنه سعيدا قتل في المعركة، ورأى أنه لا محالة مهزوم مهزوم، خارت قوى القائد، وغم عليه أمره، ولاذ بالفرار فيمن بقوا أحياء من جنده، واتخذ طريقه في بادية الشام عائدا على المدينة.

وعلم الصديق بكل ما كان، فحزن حزنا شديدا، وندم على أنه جعل خالد بن سعيد بن العاص، أميرا على جيش، وقال معتذرا: "كان عمر وعلي أعلم بخالد بن سعيد مني. ولو أطعتهما فيه لاتقيته".

وأرسل أبو بكر إليه، وهو في طريق فراره إلى المدينة: "أقم مكانك! فلعمري إنك مقدام محجام نجاء من الغمرات"! (نجاء صيغة مبالغة من النجاة).

ولكن أنباء العراق جاءت سارة تترى، تتحدث عن انتصارات خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، فخففت عن الصديق بعض ما وجد. فلما أن جاءه البشير صلى صلاة الشكر، ثم صلاة الغائب على أرواح الشهداء.

ومرت بخاطر الصديق رضي الله عنه ذكريات مريرة عن خالد بن سعيد بن العاص، كان عمر وعلي محقين إذ نصحاه ألا يؤمر خالد بن سعيد هذا!..

قدم سعيد هذا من اليمن، بعد وفاة الرسول بشهر، وعليه جبة ديباج.. فلقي عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، فصاح عمر مستنكرا أن يلبس رجل الحرير، بعد أن حرمه الرسول على الرجال! فمزق الناس جبة

خالد بن سعيد، فقال خالد لعلي: "يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغلبتم عليها؟!" فقال علي عليه السلام: "أمغالبة ترى أم خلافة؟!" قال: "من أولى منكم بهذا الأمر يا بني عبد مناف؟" قال عمر رضي الله عنه: "فض الله فاك! والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت، ثم لا يضر إلا نفسه!".

فاضطغن عمر عليه، وأقبل على أبي بكر فأبلغه بما كان، ولكن أبا بكر لم يحفل حينئذ بما قاله عمر، وعقد لواء الإمارة لخالد بن سعيد على جيش، ووجهه إلى تخوم الروم في تيماء، فغضب عمر وقال لأبي بكر: كيف تؤمره بعد ما صنع ما صنع، وقال ما قال؟" لقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائض فيها فلا تستنصر به، فإنه مخذول". وكذلك نصحه علي، ولكنه خالفهما في أمر خالد بن سعيد هذا، حتى جر على المسلمين ما جر!!

* * *

أيا ما يكن الأمر، فلابد من إصلاح ما أفسده خالد بن سعيد!

لابد من حملة صدق تسترد هيبة الدولة الجديدة، التي مرغها خالد بن سعيد في أوحال الروم، فلا يفكر قيصر بعد

هذه الضربة في الاستخفاف بالمسلمين، ولا يدبر لابتلاع أرضهم!.. إن إخوانهم العرب في أدنى أرض الروم ليضيقون بما يلقون من الاضطهاد لحملهم على عقيدة يرفضونها، ولاستنزاف طاقاتهم، وحرمانهم من ثمرات ما هم فيه كادحون!

وعقد الصديق الألوية لأمراء الجيوش، نازلا عن سياسته في عدم استعمال أهل بدر، فقد أصبحت الأمة في حاجة إلى الكفاءة العسكرية، والحكمة، وبراعة الكيد الحربي، وكل تميز به أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة.

فعقد الصديق لأبي عبيدة لواء على جيش عظيم، ووجهه إلى الروم.

وعقد لعمرو بن العاص لواء وجعله أميرا على جيش آخر، فإذا التقى بأبي عبيدة، فأبو عبيدة هو الأمير، وشدد الصديق على عمرو في هذا، لأنه لم ينس يوم بعثه الرسول على جيش فيه أبو بكر نفسه، وفيه عمر، ثم أرسل الرسول أبا عبيدة مددا للجيش، وأمر بأن يتولى أبو عبيدة إمارة الجيشين عندما يجتمعان، وجاءت الصلاة فقام أبو عبيدة ليؤم

الناس، فرفض عمرو وقال له: "إنما أنت مدد لي وأنا الأمير!".

وحاوره في ذلك أبو بكر وعمر، فأصر عمرو! فنزل له أبو عبيدة، طائعا، تجنبا للخلاف، وتنزها عن المنافسة على الإمارة!

إن أبا بكر ليعرف في عمرو حب الإمارة، من أجل ذلك شدد عليه أن الأمير هو أمين الأمة أبو عبيدة حين يجتمعان.

وعقد الصديق ليزيد بن أبي سفيان على جيش كبير.. وجعل في الجند بعض أهل بدر، منهم الزبير بن العوام.

ووجه الجيوش الثلاثة إلى الروم.

وقام في الناس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، وقال: "ألا إن لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل الله كفاه الله، عليكم بالجد والقصد (الاعتدال والاستقامة)، فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له.. ولا عمل لمن لا نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب

أن يخص به، هي التجارة التي دل الله عليها، ونجى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة".

ووضع أبو بكر لكل من أمراء جيوشه خطة سيره، وحدد لكل وجهته التي هو موليها.

فأما أبو عبيدة بن الجراح، فقد وجهه إلى حمص ليكون أميرا عليها، وخرج معه يودعه وهما ماشيان، ثم دعا له الله بالنصر، وافترقا..

وأما عمرو بن العاص فإلى فلسطين، والوليد بن عقبة إلى الأردن، وأوصى كلا منهما بقوله: "اتق الله في السر والعلانية، فإنه (من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب). (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله. إنك في سبيل من سبل الله، لا يسعك فيه الإدهان (المداهنة) والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم، وعصمة أمركم، فلا تن ولا تفتر". ثم قال لهما: "استخلفا على عملكما، واندبا من يليكما".

وعقد ليزيد بن أبي سفيان على الشام، وولاه ما ضيعة ابن عمه خالد بن سعيد بن العاص، وما يتعين على يزيد الآن أن يسترده، وودعه الصديق ماشيا، يغبر قدميه

ساعة في سبيل الله، وأوصاه: "يا يزيد" إني قد وليتك لأبلوك وأجربك، فإن أحسنت زدتك، وإن أسـأت عزلتـك، فعليـك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له، وأقرب الناس مـن الله أشدهم تقربا إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد بن سعيد بـن العاص، فإياك وعبية الجاهلية (هي الكبرياء والزهو) فإن الله يبغضها ويبغض أهلها".

وإذا قدمت على جندك فأحسن صـحبتهم، وابـدأهم بالخير، وعدهم إياه (أي بالخير)، وإذ وعظتهم فأوجز، فـإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا، وأصلح نفسك يصـلح لـك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها، بإتمام ركوعها وسـجودها، والتخشع فيها وإذا قدم عليك رسل عدوك فـأكرمهم، وأقلـل لبثهم (أي إقامتهم) حتى يخرجوا من عسكرك وهم جـاهلون به، ولا تريثهم (من التريـث أي التمهـل)، فيـروا خللـك، ويعلموا علمك.. وامنع من قبلك من محادثتهم، وكـن أنـت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك، فيختلط أمـرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة.

ولا تخف عن المشير خبرك، فتؤتى من قبل نفسك.

واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر من حرسك، وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب (أي أجعلهم يتعاقبون) بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أكثر من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها (من اللجاج)، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدقعا (أي لا تجبن أمام تنفيذها)، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين (من العبث)، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول (الخيانة) فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له".

وقد جعل عمال أبي بكر وصيته هذه دستورا لهم في الحكم، وقاعدة للتعامل مع الجند والرعية، ومنهجا في حسن معاملة أهل الكتاب.

روى يزيد بن أبي سفيان: "قال لي أبو بكر لما بعثني إلى الشام: يا يزيد! إن لك قرابة عسيت (من عسى) أن تؤثرهم بالإمارة، من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا (أي التوبة والعوض) حتى يدخله جهنم، ومن أعطى أحدا حمى الله، فقد انتهك في حمى الله شيئا بغير حقه، فعليه لعنة الله، وتبرأت منه ذمة الله عز وجل".

* * *

وظل يوصي بأهل الذمة، ويتشدد في ذلك. أتاه سلمان الفارسي، فسأله النصيحة، قال: "يا سلمان، اتق الله، واعلم أنه ستكون فتوح، فلا أعرفن ما كان حظك منها، ما جعلته في بطنك، أو ألقيته على ظهرك.. فلا تقتلن أحدا من ذمة الله، فتخفر الله في ذمته فيكبك الله في النار على

وجهك!". وكان أبو بكر يجهد لكي يكسب للإسلام كل الذين
امتازوا بفضائلهم، وتفوقوا بخبرتهم وذكائهم، وكسبوا ثقة الناس بحسن رأيهم، وقوة عزائمهم ومضائهم، ولكي يضم إليه كل من أوتي الحكمة.

كان قيس بن مكشوح فارسا عظيما، وكان شجاعا، وكان حكيما، وقد أقبل على الصديق حين استنفر القبائل لفتح العراق وفتح الشام.. فرأى الصديق أن جيوش الشام قد تواجه مشقات في مصاولتها جيوش هرقل الذي ركبه الغرور، منذ انتصر على الفرس، وأصبح قيصر الروم، يحكم العالم ويهدده من القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية! وكان قيس بن مكشوح محنكا، صاحب خبرة في فنون الحرب، فرأى الصديق أن يعين به أبا عبيدة بن الجراح، فوجهه إليه، وأوصاه، فقال: "قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب، ولا أظن له عظيم حسبة، ولا كثير نية في الجهاد، وليس للمسلمين غنى عن مشورته ورأيه في الحرب، فأدنه، وألطفه (أي قربه وأغدق عليه) فإنك تستخرج بذلك نصيحته لك، وجهده على عدوك! ورأى أنك غير مستغن عنه، ولا مستهين بأمره".

وقال الصديق لقيس بن مكشوح، وهو يبعثه إلى أبي عبيدة لينفعه بحسن رأيه، وحكمته وخبرته، وحنكته: "إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين الذي إذا ظلم كظم، وإذا أسيء إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على

الكافرين، فلا تعصين له أمرا، ولا تخالفن له رأيا، فإنه لا يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك، ولا تأمره إلا بتقوى الله، فقد كنا نسمع أنك شريف مجرب، وذلك في زمان الشرك والجاهلية الجهلاء، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم في الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره".

فقال له قيس: "إن بقيت ولقيت (أي لقيت الأعداء) فسيبلغك من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما يسرك ويرضيك". فقال له أبو بكر: "افعل ذلك!".

* * *

وبلغ أبا بكر شيء ساءه عن أبي سفيان، فأحضره إليه، وأخذ يعنفه، واحتد عليه، وأقبل أبو قحافة، وكان قد كف بصره، فسمع الصياح، فسأل الذي يقوده: "على من يصيح ابني؟" فقال له: "على أبي سفيان"، فدنا من أبي بكر، وقال له: "أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق الله وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية؟! لقد تعديت طورك وجزت مقدارك!" فابتسم أبو بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار، وقال له: "يا أبت، إن الله قد رفع بالإسلام قوما، وأذل به قوما آخرين".

وإنه لفي دست الحكم، على حصباء المسجد، إذ أقبل رجل عليه وعثاء السفر، ومعه رمح بطرفه رأس قائد رومي، وروع الصديق لهذا المنظر! وسأل الرجل عما يحمله: فقال" يا خليفة رسول الله، أرسلني عمرو بن العاص يبشرك بالنصر على الروم في فلسطين، ومعي رأس قائد الروم".

فأنكر أبو بكر ذلك، فقال الرجل: "يا خليفة رسول الله، إنهم يصنعون ذلك بنا" قال: "أفنستن (نتبع) فارس والروم؟!! لا يحمل إلي رأس، إنما يكفي الكتاب والخبر".

وجاء كتاب من خالد، وخبر بالنصر الحاسم في العراق.

ويأتيه كتاب من أبي عبيدة بن الجراح وخبر الفوز العظيم في الشام.

وتأتيه مع البشرى أموال الجزية والخراج (الضرائب)، وسبي كثير.. ويقسم الأموال بالسوية كما تعود، ويرسل مع زيد بن ثابت مالا إلى امرأة عجوز، فتسأل زيدا: "ما هذا؟" قال: "مال قسمه أبو بكر بين النساء" قالت:

"أترشونني في ديني؟!" قال: "لا" قالت: أتخافون أن أدع ما أنا عليه؟!" قال: "لا" قالت: "والله لا آخذ منه شيئا".

ويرسل أهل الجزية هدية إلى أبي بكر فيقبل الهدية، ولكنه يستنزل ثمنها مما عليهم من أموال الجزية.

ويحشد هرقل حشودا عظيمة ليقاتل المسلمين الذين كانوا يزحفون تحت رايات النصر حتى دخلوا حمص، وصالحوا أهلها على الجزية.. احتشد هرقل لمصاولة المسلمين في معركة فاصلة، على نهر اليرموك، فرد أبو عبيدة على أهل حمص ما كان قد أخذه منهم من الجزية والخراج، ليتألف قلوبهم، ويضيفهم إليه، في مواجهة الروم، وقال المسلمون لأهل حمص: "قد شغلنا عن نصرتكم، والدفع عنكم، فأنتم على أمركم".

فقل أهل حمص: "لولايتكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم". ونهض اليهود وقالوا: "والتوراة، لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب عليها، ونجهد!" فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت، وقالوا: "إن ظهر (انتصر) الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى

ما كنا عليه (من اضطهاد وقهر)، وإلا فإنـا علـى أمرنـا (أحرار) ما بقي المسلمون!".

وعجب النـاس فـي أرض فـارس والـروم مـن انتصارات هؤلاء العرب المسلمين، على الرغم مـن تفـوق جيش الفرس والروم عليهم عدة وعديدا!! كيف تغلـب فئـة قليلة فئة كثيرة. هي بعد أفتك منها سلاحا؟!

لماذا ينتصر المسلمون؟ ! إن إيمانهم ليصـب فـي أجلادهم قوة لا تقهر، وإن عصارة جديدة لتصب فيهم طاقـة مثل طاقة المد الزاحف، لا ترد، ولا تصد! لكأنهم طوفان من الإرادة والعزم والإصرار.

ولكن... بماذا انتصر المسلمون؟ بم ينتصرون عـن قلة؟! سئل في ذلك طليحة بعد أن أسلم، وأقام فـي الشـام، يحدث الناس عن القوة الروحية العظيمة التـي يتمتـع بهـا المجاهدون المسلمون.. لقد أقسم للناس أن الإسلام منتصر لا محالة، وسيثل عرش كسرى، وعرش قيصر، وترتفع راياته على الآفاق، في جميع أرجاء الأرض!.. لقد كان طليحة أكثر من أبي بكر مالا، وأعز نفرا، ولكن جنود أبي بكر هزمـوه

عن قلة، كما هزموا من كان أكثر منه مالا وأعز نفرا: مسيلمة كذاب اليمامة!

سأله صاحب له: "ويلكم! ما يهزمكم؟.." قال: "أنا أحدثك ما يهزمنا، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وكنا نلقى أقوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه!".

هكذا ينتصرون!

وهكذا بعد طول المعاناة تحت غياهب الليل الداجي، هكذا عند الصباح يحمد القوم السرى!.

الفصل السادس

شيخ الإسلام فاتحا

كان الصديق إذا أراد أن يحرض المؤمنين على القتال، صعد المنبر فقال: "والله لا نبرح (نقوم) بأمر الله، ونجاهد في سبيل الله، حتى ينجز لنا وعده، ويفي لنا بعهده، فيقتل من يقتل منا شهيدا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في أرضه، وعد الصدق لا خلف له، قل الله عز وجل: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم)".

وكان يعظ الناس، ويفقههم في دينهم، ويحضهم على التقوى. خطب فقال: أوصيكم بتقوى الله، أن تتقوه، وتثنوا عليه بما هو أهله، إنه كان غفارا، وأن تخلصوا الله اليقين فيما بلغكم من كتابه، فإنه أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين). ثم أعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي. هذا كتاب الله بينكم، لا يطفأ نوره، ولا تنفد عجائبه،

فاستنصحوا كتابه واتبعوا كلامه، واستضيئوا منه اليوم لظلمتكم، فإنما خلقكم لعبادته وأمركم بطاعته، وقد وكل بكم كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون".

"ثم اعلموا – عباد الله - أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي آجالكم وأنتم في عمل الله فافعلوا، ولن تنالوا ذلك إلا بالله، وسارعوا قبل أن تنقضي أعماركم فيريكم سوء أعمالكم".

وسمع الناس يتفاخرون بالنصر، فاعتلى المنبر، وقال:

"أما بعد، أيها الناس، إني أوصيكم بتقوى الله العظيمفي كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير. من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك، وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب، وإلى التراب يعود؟! هو اليوم حي وغدا ميت، فاعلموا وعدوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردوا علمه على الله، وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه محضرا، فإنه قال عز وجل: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد)".

فاتقوا االله عباد االله، وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر االله، واالله غفور رحيم".

وكان أبو بكر إلى اهتمامه بوعظ الناس يشرف على حرب العراق وحرب الشام، ويتقصى خبر كل جيش هناك، وكانت الرسل تجوب الفيافي من المدينة، ثم تعود تلك الرسل إلى أمراء الجيوش بما يرى بهم خليفة رسول االله..

وتواكبت الانتصارات في العراق والشام، وتجاوبت آفاق الشام بما يصنعه خالد والمثنى في دولة الفرس، وارتجت أنحاء دولة الفرس بما يصنعه أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص بالروم!

أعد هرقل لكل جيش من المسلمين أضعاف عدده من الروم، فبعث إلى أبي عبيدة جيشا من ستين ألفا، وكان جيش أبي عبيدة نحو عشرين ألفا، ومعه عكرمة بستة آلاف، وأخرج هرقل أخاه على رأس تسعين ألفا، وسيره إلى عمرو بن العاص بأعلى فلسطين، وكذلك وجه جيوشا كثيفة إلى يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل، فأشار عمرو بن العاص على أبي عبيدة أن يجمع الجيوش الإسلامية كلها، في جيش واحد

مجتمعين، ووافق أبو عبيدة على هذا الرأي، واستشار أمراء الجيوش فأقروه، واتفقا أن تلتقي الجيوش على ضفة اليرموك.

وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر يستشيره في ذلك، فكتب الصديق إليه: "اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب! واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه".

فاجتمع المسلمون، وعسكروا على ضفة اليرموك.

فلما علم هرقل، أمر جيوشه أن تتحد في معسكر واحد، وأن ينزلوا أمام المسلمين على ضفة اليرموك.

فنزل الروم مجتمعين في واد ضيق بين جبلين، أمام المسلمين، ورأى عمرو بن العاص ذلك، فقال: "أيها الناس، أبشروا! حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير!".

وهكذا عسكروا أمام المسلمين، وأقام كل من المعسكرين يتربص بالآخر، في انتظار الاقتتال.

وطال الانتظار، وخالد في العراق، يثب من نصر إلى نصر مبين، والفرس يتهافتون!

فبعد أن فتح خالد الحيرة، وهي عاصمة العراق العربي،أقام بها ينتظر أمر أبي بكر..

وكان الفاتحون قد عاينوا جمال العراق، ووفرة زروعه وخيراته، وجمال حدائقه وبساتينه، وذاقوا في العراق من الطيبات من الرزق ما لم يعرفوه في بلادهم، وبهرتهم مراتعه، وفتنتهم مرائي الجمال وظلاله وماؤه، فكان خالد كلما خاف عليهم الملل، أو الإحساس بالغربة، قام فيهم خطيبا، فقال: "ألا ترون ما هو هنا من هذه الأطعمات، فوالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله، والدعاء (الدعوة) إلى الإسلام، ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه!".

وأسرع رؤساء البلاد المجاورة للحيرة يصالحون خالدا على الجزية، فبسط سلطانه على أرض شاسعة، حتى

بلغ ما يجمعه عماله من الجزية ألفي ألف (مليونين)، وكما تعود ترك الفلاحين يعملون آمنين في الأرض، ورفع عنهم ما كانوا يلقونه من ظلم دهاقين الفرس.

خلال ذلك كان أمراء الفرس يتصارعون على العرش، وقد غمهم سقوط الحيرة، فجعلوا كل همهم إلى إنقاذ المدائن عاصمة الدولة..

ووزع خالد على البلاد المفتوحة حاميات عسكرية، لتصد أية غارة محتملة، ولتقوم على إرساء العدل بين أهل تلك البلاد، ولتدفع عنهم ما عسى أن ينزل بهم، من ظلم الملاك والرؤساء الفرس.

ومازال خالد ينتظر في الحيرة، فقد أمر الصديق ألا يبرح الحيرة، وإن برحها فلا يوغل في الفتح، حتى يدركه عياض بن غنم ليحمي ظهره..

وعياض لم يصل!

والسأم يفتك بخالد!

إنه ينتظر سنة كاملة، وهو قادر على أن يفتح بلاد الفرس جميعا بمن معه من الجيوش، دون حاجة على عياش، وحسبه المثنى، وعدي بن حاتم الطائي، والقعقاع..

وخالد يتلظى من الشوق إلى فتح المدائن. ولا نبأ بعد عن عياض! إنه ما يزال بعيدا على مسيرته ثلاثة أيام، يحاصر دومة الجندل، بالقرب من حدود الشام، فلا دومة تستسلم، ولا هو يقتحم!

وشكا خالد السأم لصحبه، فقال: "لولا ما عهد على الخليفة لم أنتظر عياضا، وما كان دون فتح فارسي شيء، إنها لسنة كسنة النساء!".

وأرسل كتابا إلى أمراء فارس المتصارعين، قال فيه: ".. الحمد الله الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرا لكم. فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، نجزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة!".

وأرسل إلى أهل فارس قاطبة: "أسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا (اقبلوا الذمة)، وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر!".

وعلم خالد أن الفرس وجهوا جيوشا إلى الأنبار وعين التمر، على مقربة من الحيرة.. واستشعر الخطر،

فستزحف إليه هذه الجيوش الفارسية بلا مراء! وفكر في أمر الخليفة.. ولكن الخليفة يحذره من أن يوغل في أرض فارس.

وتأول خالد أمر الخليفة، فزعم أن الزحف على الأنبار وعين التمر ليس إيغالا في أرض الفرس.. إن الخليفة لا ينهاه إلا عن الزحف إلى المدائن فحسب، حتى يأتيه عياض!

فليزحف إذن إلى هذين الموقعين القريبين من الحيرة، قبل أن يثب عليه الفرس منهما!.. وزحف إلى الأنبار وترك القعقاع خلفه أميرا على الحيرة.

وعلى الجانب الآخر من العراق، كان المثنى يفكر في غزو المدائن عاصمة الفرس، وكان لا يمر بجماعة من الفرس، إلا صدمها، وكسرها.

وفي أثناء مطاردته جيشا من جند الفرس الفارين منه مر بحصن حصين، تقيم فيه إحدى أميرات الفرس، ويسميه الناس: "حصن المرأة"، فأمر المثنى أخاه المعنى بن حارثة بحصار حصن المرأة، فضرب عليه المعنى حصارا محكما، وانطلق المثنى يحاصر حصنا آخر لزوج المرأة، فاقتحم المثنى عليه الحصن، وقتل جميع من فيه، وغنم أموالهم

وأشياءهم الثمينة، فقسم أربعة أخماس ما غنم على جنده، وأرسل الخمس بالبشرى إلى الخليفة بالمدينة.

فلما علمت الأميرة الفارسية الشابة الجميلة بقتل زوجها، استسلمت، فأسلمت الله، ثم أسلمت نفسها للمعنى، فتزوجها.

* * *

وخالد يمضي في طريقه إلى الأنبار، يوقع كل من يقف أمامه حجر عثرة، وبرز إليهم قوم يصاولونه، وكانوا على مائدة طعام فاخر، فتركوها ليباغتوا خالدا، ولكنه هزمهم، ففروا جميعا، فأمر مناديه فنادى في رجاله: "الأسر! الأسر! لا تقتلوا إلا من امتنع!".

واستأسروا جميعا، ونظر المجاهدون إلى الطعام الفارسي الشهي، فقال لهم خالد: "كلوا هذا الطعام فهو لكم".

وجلسوا يتناولون الطعام، وكان فيه رقاق، ويسأل رجل منهم: "ما هذه الرقاع البيض!؟ فيجيبه آخر: "هل سمعتم برقيق العيش؟ فهذا هو!".

فلما بلغ خالد الأنبار وجد من دونها خندقا واسعا عميقا، من خلفه الأسوار العالية الحصينة!.. كيف الوصول إلى المدينة!؟ وفكر خالد في خطة تمكنه من استخلاص المدينة من حاميتها الكبيرة، فأمر رجاله أن يرشقوا جند الفرس بالنبال في عيونهم.. فأصابوا نحو ألف منهم، ففقأت السهام عيونهم، فولولت نسوة الأنبار، وتصايح الناس في رعب: "ذهبت عيون أهل الأنبار!" فسميت تلك الغزوة: "غزوة العيون".

وأرسل أمير الأنبار الفارسي إلى خالد يطلب الصلح، فوافق خالد وأرسل إلى الأمير الفارسي شروط الصلح فلم يقبلها..

وإذن فلا بد من اقتحام المدينة عنوة، وفض حصونها على من بها..! ولكن دون ذلك أهوال!.. هناك خندق عميق عريض يلف حول المدينة كالسوار حول المعصم.. وللفرس براعة في تحصين مدنهم بالخنادق، وقد نقل سلمان الفارسي هذه البراعة إلى المسلمين في عهد الرسول، فأشار عليه بحفر خندق حول المدينة، فحمى المدينة من الأحزاب،

فانفضوا لم ينالوا خيرا، وعادوا خاسرين خاسئين، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولكن كيف السبيل إلى اجتياز الخندق الذي يحمي الأنبار إذن؟!

وومضت في رأس خالد فكرة الحل، وميضا خاطفا.. فأمر جنده أن يذبحوا الإبل الضعاف جميعا، وسيعوضهم عنها خيلا وأنعاما وإبلا شدادا مما سيغنمون.. فذبحوا ضعاف الإبل، وألقوا بها في غيابة الخندق عند أضيق مكان منه، ومازالوا به حتى ردموه ردما، فلما استوى بالأرض، أوطأ خالد فرسه أكوام الذبائح، واندفع إلى المدينة، ومن خلفه جنوده، وما إن رأى الأمير الفارسي تدفق خالد بجنده، كأنه اندفاع بعض عناصر الطبيعة الجائحة، سلم لخالد على شروطه التي كان قد رفضها ! وسأله أن يبلغه مأمنه، فوافق على ذلك خالد على ألا يأخذ الفارسي من متاعه أو ماله شيئا، وخرج الأمير الفارسي بأهله سالمين مكتفين من الغنيمة باستنقاذ أنفسهم من القتل والأسر والسبي.

وتوافى أهل القرى التي حول الأنبار، فصالحوا خالدا على ما فرض من شروط.

وكان أهل فارس قد تناقلوا فيما بينهم أنباء وقائع خالد، وبطشه بمن يقاومه، أو يتصدى له.. وكانت هذه الأنباء تتواتر، فتثير الرعب في قلوب الفرس، وتقشعر لها جلودهم!

وإنهم لكذلك إذ علموا أن جيشا فارسيا عظيما أقبل من الأنبار، ليصد خالدا، وليسحقه، فعسكر هذا الجيش الفارسي على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات، وانتظر أي القائدين المسلمين يقبل: خالد أو المثنى، لينفرد به، فإذا فرغ منه يسهل عليه كسر الآخر، وطرده من أرض الفرس..

وتقدم المثنى فعلم بحشود الفرس، فخشي أن يواجه جموعهم الضخمة، بالقلة القليلة التي يقودها، فأرسل إلى خالد نبأ جيوش الفرس العظيمة وسأله المدد، فأسرع خالد بجنده ليلقى الفرس، وحاصرهم من جميع أقطاره، فأزهق من جند الفرس آلاف المهج، في طليعتهم ثلاثة من أشجع قوادهم.

واندفعت بقايا الجيوش الفارسية المنهزمة إلى القناة التي تصل دجلة بالفرات، وولوا الأدبار، ولاذوا بالفرار، وقذفوا بأنفسهم عراة أو أنصاف عراة إلى الماء، فلم يطاردهم أحد من المسلمين لجهلهم السباحة!

وغنم خالد غنائم عظيمة، فوزع أربعة أخماسها على المقاتلين، وأرسل بالخمس الباقي إلى أبي بكر، ووهب أسلاب الفرس من الدروع النفيسة كل من أبلى بلاء حسنا من رجاله ورجال المثنى: كل على قدر حسن بلائه.

ووادع الفلاحين العرب الذين لم يحاربوا، وصالحهم على الجزية، كذلك صاروا أهل ذمة، وصارت أرضهم لهم، يؤدون عنها الخراج، وقد قتل في هذه المعركة من الفرس نحو ثلاثين ألفا، وفر الآخرون، وسبى خالد نساءهم وأطفالهم.

* * *

فحشدت الفرس لخالد جموعا أكبر.

واصطفت الفرس بعض عرب العراق من بكر بن وائل، وهم قوم المثنى.

وعجب العرب المسلمون من أن يحالف الفرس عليهم بنو عمومتهم من عرب العراق! وحاول المثنى أن يفض حلف قومه مع الفرس، ولكن إغراء الفرس لمن انضم إليهم من عرب بكر بن وائل كان أقوى من كل شيء!

فلما استيأس خالد منهم، أقسم أن يجعلهم عبرة لمن يفكر من عرب العراق في الانضمام إلى الفرس!

ووضع خالد كمينا لجيش الفرس وحلفائهم من بكر بن وائل، فلما التقوا جميعا، اقتتلوا أشد قتال، فمزق خالد صفوف جيش الفرس، وفرق شمل حلفائهم من بني بكر، ثم جاءهم الكمين الذي نصبه خالد من خلفهم، وهو يقاتلهم من أمامهم، والتف هو والكمين حولهم في خفة، وبراعة فائقة، وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة.. وخرج فارس شجاع من أهل فارس يتحدى خالدا، وهو يحسب أنه غالبه، وكان الفرس يعدون هذا الفارس بألف، فبارزه خالد فقتله، فتزايل الفرس إلى أغوار نفوسهم، واستأسر من بقي منهم أحياء، فأسرهم خالد، وكان في القتلى والأسرى بعض رؤساء بكر بن وائل، وإخوتهم وأبنائهم..

فاجتمعت عشائر منهم يأتمرون بخالد، ويتعاهدون على الثأر لقتلاهم وأسراهم، وكاتبوا الفرس، فأرسلوا إليهم جيشا كبيرا، فاجتمعوا بمكان اسمه: "أنيس".

وسار إليهم خالد، واقتتل الجمعان قتالا شديدا، حتى ظن كل منهم أن الصبر قد فرغ!

فنذر خالد: "اللهم إن هزمتهم، فعلي ألا أستبقي منهم من قدرت عليه، حتى أجري من دمائهم نهرهم!".

وكانوا على ضفة نهر، وكان خالد قد سد عنه الماء، ليكلا يهرب المنهزمون من جنود الفرس في اليم، كما حدث في الغزوة السابقة.

وبعد عناء شديد هزمهم خالد، وأسر منهم خلقا كثيرا، فأمر بضرب أعناقهم جميعا، وظل يوما وليلة يرى دماءهم تسيل، ولكنها لا تجري في النهر..

فقال له القعقاع: "لو قتلت أهل الأرض جميعا لم تجر دماؤهم، ولكن أجر عليه الماء، تبر بيمينك".

فأجرى عليه الماء فجرى بالدم، فسمي الماء نهر الدم.

قال خالد عما لقيه في قتاله هذا: "لقد قاتلت يوم مؤتة، فانقطع في يدي تسعة أسياف، وما لقيت قوما كمن لقيتهم من أهل فارس! وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس!".

* * *

وأنباء انتصارات خالد، وقصص بطشه الرهيب، تسبقه أينما زحف، فتزلزل الفرس زلزالا عنيفا، وتحقق له النصر قبل الصيال!

وهكذا كانت خشيته بعض أسلحته! ولقد تعاظمت هذه الخشية، بقدر تعاظم عدد الذين ولوا أمامه فرارا، وملئوا منه رعبا..

وكان خالد يعمد إلى أن يثير هذا الرعب منه، في قلوب العدو، من الفرس، وأحلافهم أخلاط عرب العراق. فقد تجاسروا عليه، وسخر منه ومن جنده زعماء الفرس أول الأمر، حتى فلق الهامات وأطار الرقاب، وركب منهم

الأكتاف! فأدرك الفرس وحلفاؤهم أن هؤلاء الغزاة الفاتحين المسلمين من بلاد العرب، غير الذين قاتلوهم، عبر تاريخالملاحم الكبرى، والبطولات المعجزة!..

فهؤلاء المسلمونيستحبون الموت على الحياة، ولا يرضون إلا بالنصر أو الاستشهاد في سبيل الله.. وإنهم ليتدفقون بطاقات مجتاحة، أشد اجتياحا من طاقة المد في طوفان يجرف كل ما أمامه، من أحياء وأشياء!

ولكن هذه الطاقة المخيفة، كانت تتحول بعد أن تنتصر إلى باقة لطيفة من الرقة، والوداعة، والرحمة، والعدل!

* * *

واجتمع أمراء فارس ورؤساؤها وقادة عسكرها، فنظروا في أمر خالد وأمرهم، فاتفقوا على أن يجعلوا همهم حماية عاصمتهم المدائن، فهي رمز فارس كلها، وفيها إيوان كسرى، وسرير الملك، فجهزوا أكثف ما استطاعوا تجهيزه من جيوش، ووزعوها على جميع الطرق المؤدية إلى المدائن: أم المدائن في بلادهم..

فلما فتح خالد الأنبار، وجد أهلها العرب يجيدون الكتابة والقراءة، فطلب بعض من في جنده من الصحابة أن يمكنهم من تعلم القراءة والكتابة على أيدي بني عمومتهم عرب العراق، فهيأ لهم خالد ذلك...

ورأى خالد أن ينطلق إلى مكان قريب، تجمع فيه جيش من الفرس، وبعض عرب العراق من بكر بن وائل، ومن استطاعوا استنفارهم من البدو هناك، وكان الغضب قد أعمى أقواما من بكر بن وائل، منذ قتل خالد وأسر عددا من

سادتهم وأبنائهم، وسبى بعض نسائهم وأطفالهم، فصيرهم مماليك للفاتحين!

وكان في عرب العراق كل خصائص الحمية العربية والأنفة والإباء، والحرص على الثأر.

وجعل أمراء الفرس على قيادة العرب رجلا منهم، شريفا فيهم، مهيبا، مطاعا هو: قرة بن قرة، وجعلوا على جيش الفرس أعظم أبطال فارس، وهو مهران، فلما اجتمع الجيشان قال قرة لمهران: "إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدا" قال: "صدقت، فأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم" (أي الفرس)، ثم أضاف: إن احتجتم إلينا أعناكم!".

فتقدم قرة بني بكر بن وائل وحلفاءهم العرب الآخرين، فساروا ليكونوا أول من يصادم جيش خالد، فقال أصحاب مهران من قادة الجيش الفارسي: "يا مهران، ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب؟!".

فأجاب مهران: "إنه قد جاء من قتل ملوككم، وفل سيوفكم (جعل سيوفهم غير قاطعة)، فاتقيته بهم، فإن كانت الدائرة لهم على خالد (أي انتصروا عليه) فهي لكم، وإن

كانت الأخرى، لم تبلغوا منهم حتى يهنوا، فنقاتلهم ونحن أقوياء، أرأيتم؟! فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم!"

فأعجبهم مكره وكيده..

فلما التقى خالد بجيش عرب العراق بقي الفرس في حصونهم ينتظرون ما تنجلي عنه المعركة!.

والتقى الجمعان: عرب شبه الجزيرة المسلمون، وأخلاط عرب العراق!

ورأى خالد حقنا للدماء العربية أن يعمد إلى قائد جيش عرب العراق، فحمل خالد عليه، فأخذه أسيرا، فانهزم عسكره قبل أن يبدأ القتال! فطاردهم خالد بجنوده فأسر كثيرا منهم، وفر الباقون!

وحينئذ نزل مهران وجنده من حصنهم مذعورين، وفروا جميعا.. وفروا على عجل، تاركين وراءهم نساءهم، وأطفالهم، ومتاعهم، وأموالهم، ونجوا برءوسهم!.

أما المنهزمون من عرب العراق، فاعتصموا وراء جدران الحصن، فأدركهم خالد، وفض عليهم الحصن وأخذهم أسارى، وقتل قائدهم، وقتلهم جميعا، وسبى كل من كان في الحصن من النساء والولدان، واستولى على أموال كثيرة

ومتاع نفيس.. ووزع أربعة أخماس ما غنم على المقـاتلين، وأعجبته فتاة من السبي بارعة الجمال، فاشتراها، وأعقتهـا، وتزوجها.

وأرسل إلى الصديق بالمدينة خمس الغنائم ، وخمس السبي.. فكان أول سبي من الفرس يرد المدينة.

* * *

فرح الصديق، وفرح أهل المدينة بأنبـاء النصـر، وفرج عليهم المال الذي أرسله خالد ممـا غنمـه، وأهـدىالخليفة رسول خالد جارية من السبي، مكافأة له على ما بشره به من نصر، وما حمله إليه من ثروة!

وقال أبو بكر يثني على خالد: "عزت النساء أن يلدن مثل خالد"، وأنشد:

نفس عصام سودت عصاما

وعلمته الكر والإقداما

وشرد أبو بكر فيما يحدث في الشام مع الروم، وفي خطب عياض مع الفرس، منذ حاصر دومة الجندل...

وإن الخليفة لفي شغل بما يجرى في أرض فـارس وأرض الروم، يفكر فيمـا ينبغـي عملـه، إذ أقبـل عليـه

عبد الله بن جرير البجلي، فقال له: "يا خليفة رسول الله، إن رسول الله ❐ لما كلمته في قومي بني بجيلة، وهم أوزاع متفرقون في العرب (أوزاع: موزعون) وعدني ❐ أن يجمعهم لي، فيجعلني عليهم (أي أميرا عليهم)، وعندي بذلك شهود يشهدون، ولكنه توفي وقومي أوزاع بأحياء العرب..."
وأشهد البجلي على قوله الشهود!

فغضب أبو بكر، واعترته حدته، حتى لقد اهتز جسده النحيل، وارتفع صوته الخفيض، فصاح: "ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين، ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم، ثم أنت تكلفني ما لا يغني؟!".

وأمره بأن يمضي إلى خالد بن الوليد في العراق، فينضم إلى جنده، ويجاهد تحت قيادته.

ثم التفت الصديق إلى أصحابه يشاورهم في أمر فارس والروم، أيبعث خالدا مددا لأبي عبيدة؟! أيرسل مددا آخر للمثنى؟، ومددا لعياض بن غنم يؤازره في حصاره دومة الجندل؟!.

وقبل أن يقولوا آراءهم قال: "إني أشير عليكم، وإنما أنا رجل منكم، تنظرون فيما أشرت به عليكم. وفيما أشرتم به علي، فنجتمع على أرشد ذلك!".

فأجمعوا أمرهم على أن يبعث الوليد بن عقبة على رأس جيش كبير مددا لعياض، بدومة الجندل.

فلما أقبل الوليد وعياض، فقال الوليد آخر الأمر: "الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف. ابعث إلى خالد فاستعده!".

وطرب عياض للفكرة!

حقا.. لماذا لم يفكر في خالد يستغيثه، فخالد ذو رأي في الحرب سديد، وهو ينتصر في كل حروبه بالذكاء، وحسن الحيلة، وبالرأي الرشيد، بقدر ما ينتصر بشجاعته، وجسارته، وشدة قوته، وما إثخانه في الأرض، وبطشه بالأعداء إلا من حسن الرأي، ليرهبهم، وليرعبهم، فيهابوه!

كتب عياض يستغيث خالدا، فوثب خالد فرحا لما بلغه كتاب عياض، فما من شيء يستثير المشاعر مثل دوي طبول الجهاد، وانعكاس الشمس على جبهات المحاربين وخوذهم، والتماع الحراب والسيوف بوميض النصر، وما من

شيء يشنف أذنيه مثل حمحمة الخيول الصاهلة، وصدى النفير العزاف، ورجع صرخات القتال، وما تكتحل عيناه بمثل النقع المثار، في ميادين الوغي! وما يشجيه طربا مثل قرع الحديد على الحديد، وخفق الأسنة فوق الدروع، وقول الفوارس: ويك خالد أقدم!

ونشط يكتب من فوره ردا على عياض بن غنم:

لبث قليلا تأتك الحلائب
يحملن آسادا عليها قاشب
كتائب تتبعها كتائب!
(الحلائب: المطايا، قاشب – سيوف).

واستخلف خالد على عين التمر عوين بن الكاهل الأسلمي، وانطلق يسابق الريح إلى دومة الجندل، وهي على بعد نحو عشرة أيام، ومر خالد بكربلاء في طريقه إلى دومة الجندل، ونزل بها يستريح، ولكن أحد قواد جيشه اشتكى كثرة الذباب في كربلاء، فقال له خالد: "اصبر، فإنما أريد أن أستفرغ المسالح (أجلي الفرس عن الثكنات) التي أمر الخليفة بها عياضا، فيسكنها رجالنا العرب، فتأمن جيوش المسلمين

أن يؤتوا من خلفهم، وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجده أمة!".

ثم أكمل خالد انطلاقه إلى دومة الجندل، وما زال فتح المدائن عاصمة الفرس يراوده!! ولكنه آثر ألا يصنع شيئا، قد يغير عليه قلب أبي بكر!

ومهما يكن الأمر، فغير بعيد من المدائن، يعسكر المثنى بن حارثة الجسور برجاله، فيثب من حين لآخر على ما حول المدائن، ويروع جند الفرس، ويفسد عليهم أمنهم!.. والفرس مشغولون بصراعاتهم، وخلافاتهم، وعربدة كل أمير على الآخر، وكيد بعضهم لبعض، ولكنهم على الرغم من هذا الشقاق البعيد، ليتفقون على بذل النفس والنفيس، لحماية عاصمة ملكهم: المدائن، فلئن غزاها العرب المسلمون، إنها إذن لنهاية الفرس!

* * *

حين اقترب خالد من دومة الجندل، عرف أن صاحبها هو أكيدر بن عبد الملك وهو من عرب العراق.

وتذكره خالد..!

وقد ابتلي أكيدر هذا بخالد، وعرف بأسه، حينما بعثه النبي إليه، عقب فتح مكة.

لن ينسى أكيدر بطش خالد به، وبرعيته أهل دومة الجندل، إذ انقض عليهم بغتة كأنه طارق من القضاء، فنكب حامية دومة الجندل، واحتضن أكيدر، وأخذه أسيرا، وهدد أهل دومة الجندل، إن لم يفتحوا له أبوابها، أن يقتل أميرها أكيدر، فمكنوه في الوقت منها، فغنم ألفي بعير، وثمانمائة شاة، وقمحا كثيرا، وأربعمائة درع، واستاق أسيره أكيدر وغنائمه إلى رسول الله في مدينته، فأسلم أكيدر، وحالف المسلمين، ولكنه عاد فنقض الميثاق، وناصر الفرس على بني عمومته العرب المسلمين!

تذكر أكيدر بطش خالد، وشدته على من يخاصمه، ووداعته بمن يسالمه، ورفقه بمن يعتزل حربه، فأقبل على قومه، يحذرهم خالدا، قال لهم: أنا أعلم الناس بخالد! لا أحد أيمن طائرا منه (أسعد حظا)، ولا أحد (أشد) في حرب! ولا يرى وجه خالد قوم، كثروا أو قلوا، إلا انهزموا عنه! فأطيعوني، وصالحوا القوم".

فلما أبوا قال لهم: "لن أمالئكم (أنحاز إليكم) على خالد، فشأنكم!". وانصرف عنهم، فذهب إلى خالد مستأسرا فأسره، وأرسله إلى الخليفة بالمدينة..

ووضع خالد خطته، فجعل الحصن بين جنده وجند عياض، بحيث يسهل الإحاطة به، والإطباق عليه.. واستعرض خالد خصومه من الفرس وحلفائهم، فوجد على رأس كل قبيلة من البدو زعيمها، وعلم أن الجودي بن ربيعة هو رئيس أهل دومة الجندل، واستطلع خالد مواقعه ومواقع عدوه من الفرس والبدو، ثم التقى الجمعان، واستعر القتال، فبارز خالد الجودي بن ربيعة، فأوقع به وأخذه أسيرا، وأسر الأقرع بن حابس زعيما آخر من العدو، وصاول عياض جند القبائل فهزمهم..

وفر الناجون بحياتهم فدخلوا حصنا حصينا، وحسبوا أنهم قد أووا إلى ركن شديد! فأحاط خالد بالحصن، وقتل منهم مقتلة عظيمة، حتى سدت جثث القتلي باب الحصن!

ودعا خالد بالجودي بن ربيعة، فأمر بضرب عنقه، كما ضرب أعناق الأسرى الآخرين، إلا أسرى كلب، إذ أجارهم بعض قواد المسلمين، فقال لهم خالد: "ويلكم !

أتحفظون أمر الجاهلية، وتضيعون أمر الإسلام؟" وكان ممن أجارهم الأقرع بن حابس، وكان من المؤلفة قلوبهم.ثم اقتحم الحصن خالد بجنوده، فقتلوا من فيه من الجند جميعا.. أما النساء فأخذوهن سبايا، وباعوهن في السوق، بالمزاد..! وراقت لخالد منهن فتاة باهرة الجمال، هي ابنة الجودي بن ربيعة، فاشتراها، وأعتقها، وتزوجها.. وطاقت بذهن خالد ذكريات زواجه من بنت مجاعة بعد اليمامة! وتذكر الخليفة الصديق!

وفي الحق أن خالدا كان كلما عاني المعارك، وعاين فيها الموت، اضطرمت فيه غريزة حب البقاء، واحتدمتفحولته مختلجة ببطولته، فانطلق يتزوج النساء، لا يقاوم نفسه، وكأن الأمر أقوى منه!..

وكان أبو بكر قد عهد عهدا.. وخالد يضع عهد الصديق على العين والرأس، ويلتزم قوله، ولا يحب بعد أن يغضبه منه، فكفى ما كان! وحسبه أنه صفح عنه غير مرة!. إن خالدا ليشعر بأنه ولد مطيع لأبي بكر، وأنه ابن يجب أن يكون برا، ليجزي الإحسان بالإحسان، وليرد فضل أبي بكر، ودفاعه عنه، ورفقه به.

إن خالدا ليحفظ عهد الصديق، ولا يحيد عن حرف واحد منه: "أن يأتي العراق من أسفل (أي من الجنوب)، ويأتي عياض بن غنم العراق من فوق (أي من الشمال)، فأيكما سبق إلى الحيرة، فهو أمير الحيرة، فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فضضتما مسالح (ثكنات) الفرس، وأمنتم ظهر المسلمين، فلا يؤتى المسلمون من خلفهم، فليقم بالحيرة أحدكما، وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عما في أيديهم، واستعينوا الله واتقوه، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوها، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصي، ومعالجة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة"!

ولقد سبق خالد إلى الحيرة، وغلب عليها، فأصبح

أميرها.. وها هو ذا الآن يسرع إلى دومة الجندل، في أعلى

العراق، عياضا.

وإن خالدا ليحفظ لأبي بكر وصية عامة، يوصيه بها،

كلما بعثه مجاهدا في سبيل الله: "يا خالد، عليك بتقوى الله،

وإيثاره على من سواه، والجهاد في سبيله. يا خالد، عليك

بالرفق بمن معك من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك، ثم لا تخالفهم".

والخليفة يشدد دائما على أمراء جيوشه، أن يشاوروا في الأمر من معهم من المهاجرين والأنصار، ثم لا يخالفوهم فيما أشاروا به أبدا..

وأقام خالد أياما في دومة الجندل، ولكنه علم أنه لم يكد يسير بجيشه إليها، ويمعن في الصحارى المترامية، حتى انتقض بعض الذين صالحوه من قبل!

وتجمع الفرس وبعض عرب العراق، وثاروا على المسلمين، فأسرع خالد بالعودة إليهم، وهو يقسم أن يباغتهم في منازلهم، فيحصدهم حصدا!

فلما بلغ الحيرة التي كان قد اتخذها عاصمة له، جعل عليها عياض بن غنم، ووجه القعقاع بجيش كثيف إلى المكان الذي تواعد العرب والفرس، واسمه الحفير.

وهزم القعقاع جيش الفرس وقتل قائدهم، وغنم منهم، وفر جند الفرس ليتحصنوا ببلد آخر اسمه الخنافس، وواعد خالد قواده على يوم معين وساعة معينة ليفضوا إلى الحصن،

ويفتكوا بمن فيه من الفرس، فلما سمع الفرس بمقدم خالد وجيوش المسلمين، أسرعوا بالفرار!

ثم زحف خالد وقواده ليلا، إلى منازل أعراب العراق، ومضارب خيامهم، فباغتوهم وهم نيام، فقتلوا رجالهم جميعا، واستحيوا النساء وأخذوهن سبايا..

وكان من بين من قتلهم خالد رجلان معهما من الخليفة كتاب بإسلامهما! فلما خوطب في ذلك، ندم، وقال: "أما إن ذلك ليس علي، فقد نزلا على أهل الحرب!".ثم عوض أولادهما من نصيبه من الغنائم، وأوصى بهم.

ولكن عمر غضب على خالد، وخاطب في أمره الخليفة أبا بكر، فقال له: "هيه يا عمر! كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب!".

وتكاتب أمراء الفرس وبعض أشياخ البدو، وتواعدوا، فلما اجتمعوا في أحد المواقع القريبة من المدائن، فكر خالد في أن يهاجمهم، فإذا تم له النصر، خاض الغمرات إلى المدائن، ليحاصرها هو والمثنى من كل أنحائها.. ولكنه لم يستأذن الخليفة! وخشي غضبه، فعدل، واتجه بالجيوش

الإسلامية إلى تغلب حلفاء الفرس، فباغتهم، فلم يفلت مقاتل منهم، وقتلوا جميعا، وسبى خالد نساءهم وغنم منهم أموالا طائلة، وأرسل الخمس إلى الخليفة، فاشترى علي بن أبي طالب من السبي صابحة بنت ربيعة بن بجير التغلبي، فأسلمت، وأعتقها، وتزوجها، فولدت له ابنا سماه عمر، وبنتا سماها رقية، وما سمى علي ابنه عمر إلا تيمنا بعمر بن الخطاب الذي كان يحبه حبا عظيما، وسمى ابنته رقية تيمنا برقية بنت الرسول امرأة عثمان بن عفان.

وإن خالدا ليتعجب كلما نظر في أمر هؤلاء الأخلاط من عرب العراق!! لقد أعانهم الإسلام ورفع عنهم إصرهم، والأغلال التي في أعناقهم، وأذاقهم ثمرات عملهم، واستخلص لهم حقوقهم من مستعبديهم الفرس، فلماذا يتنكرون اليوم لصناع الجميل، بدلا من العرفان بالجميل؟!.. ما أغراهم بذلك؟! مهما يبلغ من عظم رشوة الفرس لهم، فهم الخاسرون!! فلو أتيح للفرس أن ينتصروا على المسلمين، لعادوا إلى إذلال هؤلاء العرب واستبعادهم.. إن الفرس يطلقون على أي رئيس من حلفائهم أخلاط عرب العراق: الكلب!

قال خالد لزعماء هؤلاء الأخلاط من عرب العراق: "ويحكم! أأنتم عرب؟ فما تنقمون منا نحن العرب؟ أو عجم (فرس) فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟! (يعني ما عاملهم به العرب المسلمون)؟!" قالوا: "بل نحن عرب"، قال: "لو كنتم كما تقولون لم تحادونا (تحاربوننا)، وتكرهوا أمرنا!" قالوا: "يدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية" قال: "فاختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، إن نهضتم فهاجرتم، وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة (أي الحرب)، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة" قالوا: "بل نعطيك الجزية" قال متغيظا عليهم: "تبا لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه، واستدل الأعجمي!".

* * *

بعد أن حقق خالد هذا النصر كله، ذهب إلى أعلى العراق، فأخذ يجول ويصول على ضفاف الفرات، لا يرى غير الإعجاب به، والخضوع له، حتى إذا بلغ مدينة القراض

على الحدود بين العراق والشام، أي بين دولة الفرس ودولـة الروم، نزل بها.

وأقبل شهر رمضان، فـأفطر خالـد وأمـر جيشـه بالإفطار، ليتقووا على الحرب المتصلة، فأمامهم بـلاء فـي سبيل الله شديد..

ومضى المهاجرون والأنصار في جيشه ينصـحون أفراد الجيش بالإفطار، فقد أفطر الرسول وأمرهم بذلك، وهو يحارب، يوم فتح مكة.

عسكر خالد على ضفة في شمال الفـرات، والـروم على الصفة الأخرى، لا يفصل بينهما إلا الفرات، وهكذا وجد نفسه محاطا من جميع نواحيـه بـالأعـداء: الـروم أمامـه، والفرس وراءه، ومن حوله أخلاط أعراب تؤجج حقدهم عليه حمية الجاهلية، والرغبة الملتهبة في الثأر!!

ورأى الروم في إصرار خالد على الوقوف أمـامهم يستعرض قوته، لونا من الاستخفاف بهم، والإزراء علـيهم، وانتقاصا وحطا من كرامتهم، فاستنفروه إلى قتالهم، ردعا له وتأديبا، فلا يتجاسر بعد عليهم، مهما تكن انتصاراته في دولة

الفرس باهرة ومذهلة!.. وليعلموه أنهم الرومان، غير الفرس، فلا يطمع فيهم!

فأرسلوا إلى خالد: "إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم".

رد خالد: بل اعبروا إلينا" قالوا: "فتنحوا" قال: "لا أفعل، اعبروا أسفل منا".

فقال الروم لحلفائهم من البدو: "امتازوا، حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبح، من أين يجيء".

فلما عبروا النهر أسفل من جيش خالد، امتازوا، وتفرقوا، فوقف أخلاط الأعراب ناحية بلوائهم، وكان الروم بلوائهم.

وقال خالد لجنوده: "ألحوا عليهم، ولا ترفعوا سيوفكم عنهم!".

وقدم الروم أمامهم جيش حلفائهم البدو، فانقض فرسان المسلمين عليهم، في سرعة خاطفة أذهلتهم.. سرعة انقضاض لا يعرفها هؤلاء الأخلاط، ولا عهد للروم أنفسهم بها!.

وذهل الروم عن أنفسهم أمـام صـفوف المسـلمين المتدفقة المجتاحة في عنف وسرعة، وتساقط قتلى العدو من البدو وجند الروم، حتى لقد قتل منهم عشرات الألوف!

فرأى خالد أن يعود بجيشه إلى الحيرة، التي اتخـذها عاصمة له، وكان شهر ذو القعدة قد أقبل، ففاضت نفس خالد بالحنين إلى مكة، وبأشواق إلى عرفات!.. فلما بلغ الحيـرة، انسل في نفر من أعز صحابه خفية، دون أن يعلم أحدا، إلى بيت الله الحرام.. وتعلق بأستار الكعبة باكيـا، شـاكرا الله، يسأله المغفرة عما عسى أن يكون قد اقترفه من الذنوب بغير قصد..

وضرب المثنى في أرض الفرس، وانسـاح فيهـا، فغزاهم غزوات خاطفة، لم يكن لهم بها عهد، وكان الفـرس ثقالا، يلبسون دروعا مثقلة بالجواهر وخوذا مـن الصـلب، ويتمنطقون بما يزيدهم ثقلا، فأصبحت حركتهم بطيئة، أمـا جند المسلمين فكانوا خفافا، يتحركون بسهولة، ويسـر، فمـا كانوا يرتدون ما يقل حركتهم، فدروعهم أخـف وزنـا مـن دروع الفرس والروم، فهي من الزرد الخفيف أو الجلد!.

من أجل ذلك استطاعوا أن يثبوا في خفة، وأن يحاوروا، ويداوروا، ففعلوا بعدوهم الأفاعيل!

ولم يكن المثنى أقل فتكا بعدوه من خالد، وكان في جيشه عدد من المهاجرين والأنصار، ممن يجاهدون بحرص شديد على إحدى الحسنيين: الفوز أو الشهادة!

فما كان عسكر المثنى أرفق اجتياحا، ولا أبطأ تدفقا، من عسكر خالد!

وقد أغار المثنى على مواقع كثيرة في طريق العاصمة المدائن، يراوده حلم الاستيلاء عليها، ولكنه انتظر حتى يأمره الخليفة من المدينة، أو بالقليل يأمره خالد، فخالد أميره اليوم، فهو بأمر الخليفة أمير أمراء جيوش المسلمين بالعراق..

وإن الانتصارات الخاطفة الباهرة التي حققها المثنى، حين توجه تلقاء المدائن، لتذهل الفرس وحلفاءهم من أخلاط العرب، وإنهم ليتناقلون عنه أنه أقسم أن يوطئ خيل المسلمين إيوان كسرى، فتهتز المدائن فرقا..!!

وإن خبر هذه الانتصارات ليطرق مدينة رسول الله بالبشريات، فيصلي خليفة رسول الله وصحابته شكرا لله،

ويطرب أهل المدينة طربا ما عرفوه منذ الانتصارات الأولى في زمن الرسول..!

قال نسوة في المدينة عن المثنى وخالد أن كليهما أوتي قوة عظيمة، لم يؤتها بشر، فهو يصنع المعجزات!! وضجت طرقات المدينة بلعب صبيانها: هذا يمثل خالدا، وهذا يشخص المثنى، وكلاهما يفعل أروع وأعظم مما صنعه الأبطال الخرافيون، في أساطير الأولين..!

وهكذا أصبحت بطولة خالد والمثنى حديث السمار، في ليالي المدينة، يتكلمون بها على خفق القلوب الوجلة المبهورة، كما يسمرون بما تصنعه الجن في الصحارى من خوارق تثير الرعب والإعجاب!..

وخشي عمر على الناس، أن يفتنوا بخالد والمثنى، فتونا يجعلهم يحسبون أن خالدا والمثنى، إنما يأتيان ما يأتيان، من دون الله!! فأشار على الصديق بعزلهما، وتولية غيرهم، وسينتصران بإذن الله، وبقوة الإيمان، فيؤمن الناس بأن الله وحده هو صانع النصر، لا خالد ولا المثنى! والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!..

رد الصديق رأي عمر، ولم يوافق عليه أحد من الصحابة الذين تعود أبو بكر أن يشاورهم في الأمر.

وأبو بكر، كلما جاءه بشير بانتصار ساحق لخالد على الفرس حمد الله، وجمع المهاجرين من قريش، فقال لهم:"يا معشر قريش، عدا أسدكم على الأسد (الفرس)، فغلبه على خراذيله!" (جمع خرذلة وهي قطعة اللحم).

ولكن الصديق غضب على خالد بغتة، وأوشكت الحدة التي تعتري الصديق أن تغلبه على إعجابه بخالد! إذ علم أن خالدا حج سرا، فلم يستأذنه، ولم يعرف أحدا بأمر حجه، بل تكتمه. وسير قادة جناحي جيشه إلى أماكن متفرقة، وأوهمهم أنه باق مع قلب الجيش خلفهم! ثم خرج بجماعة قليلة من أصحابه، وكأنه يتحسس من مواقع العدو! واختار إلى الحج طريقا شاقا غير مألوف، ولا مأمون، ولكنه قصير جدا..

وإذ علم الحقيقة بما صنعه خالد عاتبه وحذره وأنذره، ولكنه لم يفكر بعقابه!

وما زال أبو بكر ينتظر من الشام نبأ يسر الخاطر، ويشرح الصدر، ولكن لا أنباء بعد!. فبعث يسال أبو عبيدة

عن اليرموك، ما خطبه؟! لم لم يصادموا الروم!؟ فرد أبو عبيدة عليه يطلب مددا..!

* * *

وكان أبو بكر لما فكر في تجهيز جيش لفتح الشام، قد دعا إليه صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار، وهم أهل شوراه.

فلما اجتمعوا، شاورهم في أمر غزو الشام، فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قال قائلهم: "يا خليفة رسول الله، ما رأيت من الأمر فاقضه، فإنا سامعون لك ومطيعون، لا نخالف أمرك".

فوافقوا جميعا على هذا القول، وعلي بن أبي طالب ساكت!

ونظر إليه الخليفة يستطلع رأيه، فقال له: "ماذا ترى يا أبا الحسن". فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي، ثم قال: "أرى أنك مبارك، ميمون النقيبة (أي مبارك النفس)، فإنك إن سرت إليهم بنفسك، أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله تعالى".

قال أبو بكر: "بشرك الله بخير. من أين علمت هذا؟" قال: "سمعت رسول الله ❐ يقول: لا يزال هذا الدين ظـاهرا على كل ما ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون". قال أبو بكر: "سبحان الله! ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني، سرك الله في الدنيا والآخرة يا أبا الحسن".

رأى الصديق أن يمد جيوش المسلمين المعسكرة على ضفة اليرموك، فدعا من في المدينة من الصحابة.

فلما شاورهم الخليفة في الأمر، بمن يمد أبا عبيـدة؟ أجمعوا أمرهم على إرسال خالد بن الوليد مددا، فقـال أبـو بكر: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

فكتب إلى خالد: "سر حتى تأتي جمـوع المسـلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل مـا فعلت (الحج سرا بلا إذن) فإنه لم يشج الجموع مـن النـاس بعون الله شجاك، (الشجا: الغصة، وأشجاه: أغصـه، أشـعره بالغصة) ولن ينزع الشجى من الناس نزعك (أي لن يزيـل هذه الغصة من حلوق الناس أحد، كما تزيلها أنت)، فليهنئـك أبا سليمان (كنية خالد) النعمة والحظوة، فأتم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فـإن الله

له المن، وهو ولي الجزاء.. دع العراق، وأخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم، ثم امض مخففا، في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا إليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة، والسلام عليك ورحمة الله".

وعجب خالد. كيف يصبح أميرا على أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة؟! لقد أبى الصديق أن يجعل عمرو بن العاص، وهو ما هو، أميرا على أبي عبيدة!..

وكان الصديق إذ وجه الجيوش إلى الشام، جعل على كل جيش أميرا، ووجهه إلى موضع من دولة الروم بالشام، وجعل أبا عبيدة أميرا على الجميع. كلما التقوا، فلم يرق ذلك لعمرو بن العاص أمير الجيوش الذي وجهه الخليفة إلى فلسطين، وكان عمرو يعتز بانتصاراته في عهد الرسول، ثم في حروب الردة، فمضى عمرو إلى عمر بن الخطاب، فقال له: "يا أبا حفص، إنك قد عرفت بصري بالحرب، ويمن نقيبتي في الغزو، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ، وقد علمت أن أبا بكر ليس يعصيك، فأشر أن يوليني هذه الجنود

التي بالشام، فإني أرجو أن يفتح الله على يدي هذه البلاد، وأن يريكم والمسلمين من ذلك ما تسرون به".

فقال له عمر: "لا أكذبك، ما كنت أكلمه في ذلك، لأنه لا يوافقني أن يبعثك على أبي عبيدة، وأبو عبيدة أفضل منك منزلة" قال عمرو: "فإنه لا ينقص أبا عبيدة شيئا من فضله أن ألي عليه!".

قال عمر: "ويحك يا عمرو! إنك والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا! فاتق الله، ولا تطالب بشيء من سعيك إلا وجه الله، واخرج في هذا الجيش، فإنك إن يكن عليك أمير في هذه المرة، فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميرا ليس عليك أحد!".

فطابت نفس عمرو، ثم أقبل عليه الخليفة فكرر له ما قاله من قبل: "يا عمرو، إنك أحد الأمراء، فإذا جمعتكم حرب، فأبو عبيدة أميركم".

ثم نصحه الصديق وهو يودعه قال: "يا عمرو، إنك ذو رأي وتجربة للأمور، وبصر بالحرب، وقد خرجت في أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة،

فرب رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور".

فسر عمرو بثناء أبي بكر عليه، ومضى إلى حيث سيره.

* * *

تهيأ خالد للسير إلى الشام، فأتاه كتاب من الخليفة يأمره فيه بمن يأخذ الجند، ومن يدعهم للمثنى، قال: "يا خالدلا تأخذ مجدا إلا خلفت لهم مجدا، فإذا فتح الله عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك".

فقسم خالد الجند نصفين: نصفا يسير به على الشام، ونصفا للمثنى، ولكنه جعل الصحابة جميعا من نصيبه!

فقال له المثنى: "والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة، وإبقاء النصف، فوالله ما أرجو النصر إلا بهم! فأنت تعريني منهم!".

فما زال به خالد يسترضيه، ويعوضه عن الصحابة بمقاتلين من سادة أقوامهم من أهل البأس، وممن عرفوا بالشجاعة والصبر، وشدة المراس، فرضي المثنى آخر الأمر.

وحشد خالد جنوده، وانطلق ليعبر إلى الشام صحارى رهيبة، غائبة النواحي، مترامية الآفاق، كأنما هي التيه!

وسأل الأدلاء: "كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين!..".

قالوا له: "لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش، فوالله إن الراكب المفرد ليخافه على نفسه! إنك لن تطيق ذلك الطريق بالخيل والأثقال. إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء!".

قال خالد: "إنه لا بد من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم".

وعزم خالد على سلوك هذا الطريق، مهما تكن مخاطره! فكم فاز بالطيبات العاجل اللهج! وكم فاز باللذة الجسور!

فنصحه الدليل أن يستكثروا من الماء، فلا ماء حتى يجتاز ذلك الطريق.

فأمر خالد جنوده أن يخزنوا الماء في بطون الإبل العطاش، ثم يشدوا مشافرها لكيلا تجتر، فتستنزف الماء! ففعلوا.

وسار به دليل حاذق، فكانوا يشقون بطون بعض الإبل، فيشرون منها الماء، ويسقون الخيل.

وبعد أربعة أيام اكتشفوا أن الدليل لا يحسن الرؤية، فسأل الناس: "انظروا هل ترون شجرة كقعدة الرجل؟" قالوا: "ما نراها" قال: "إنا الله وإنا إليه راجعون! هلكتم والله، وهلكت معكم!".

ولكنه بعد قليل عاد يقول: "انظروا ويحكم!" قالوا: "لا نرى إلا شجرة قد قطعت وبقي منها بقية".. فكبر الدليل فرحا، فهللوا جميعا وكبروا، حتى إذا أتوا الشجرة، قال لهم الدليل: "احفروا في أصلها"، فحفروا، فتفجرت عين غزيرة عذبة الماء، فشربوا، وسقوا الخيل، حتى ارتووا جميعا.

فقال الدليل مزهوا: "والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام".

ونزل خالد بقرية، فوجد قوما يشربون الخمر، ومعهم النساء، ومغنيهم يغني:

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل

منايانا قريب ولا ندري ألا عللاني

بالزجاج وكرروا

علي كميت اللون صافية تجري

ألا عللاني من سلافة قهوة

تسلي هموم النفس من جيد الخمر

أظن خيول المسلمين وخالدا

ستطرقهم قبل الصباح مع النسر

فهل لكمو في السير قبل قتالكم

وقبل خروج المعصرات من الخدر

(كميت: أحمر داكن)، (المعصرات: الفتيات في سن بلوغ الحلم).

فقتلهم جند خالد، وسبوا النساء، وصالح خالد قريتهم، كما صالح كل القرى التي مر بها، حتى وصل إلى ظاهر دمشق، تحت راية سوداء، كانت لرسول الله ❐ تسمى العقاب، فلما توقف خالد يستريح برجاله تحت رايته العقاب سمى ذلك المكان ثنية العقاب.

وأرسل خالد سرية إلى الغوطة، فقاتلوا حاميتها فقتلوا رجالها، وسبوا النساء، وساقوهن والولدان إلى خالد..

ثم زحف بجيشه علـى بصـرى، فهزم رجالهـا، وصالحهم فكانت بصرى أول ما فتحه خالد من مدن الشـام، وبعث بأخماس السبي والغنائم إلى الخليفة بالمدينة.

وقبل أن يتوجه خالد تلقـاء اليرمـوك، كتـب إلـى أبي عبيدة: "أما بعد، فإني أسأل الله لنا ولـك الأمـن يـوم الخوف، والعصمة في دار الدنيا من كل سوء. وقـد أتـاني كتاب خليفة رسول الله ❐ يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالقيام على جندها، والتولي لأمرها، والله ما طلبت ذلـك قـط، ولا أردته إذ وليته، فأنت على حالك التي كنت عليها، لا نعطيك ولا نخالفك، ولا نقطع أمرا دونك، فأنت سيد المسـلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك، تمم الله ما بنا وبك مـن إحسان، ورحمنا وإياك من صلي النـار، والسـلام عليـك ورحمة الله".

فلما فرغ أبو عبيدة من قراءة كتاب خالد، قال: "بارك الله في خليفة رسول الله فيما رأى، وحيا الله خالدا".

كما كتب خالد إلى عامة المسلمين بالشام: "أما بعـد، فإن كتاب خليفة رسول الله (❐) أتاني بالمسير إلـيكم، وقـد شمرت وانكمشت (اجتهدت في السير)، وكأني قـد أظللـت

عليكم خيلي ورجلي (رجالي)، فأبشروا بإنجاز موعد الله وحسن ثواب الله، عصمنا الله وإياكم باليقين، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين".

وكتب الصديق إلى أبي عبيدة: "أما بعد، فإني وليت خالدا قتال العدو بالشام، فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره، فإني لم أبعثه عليك (أي أميرا) ألا تكون عندي خيرا منه! ولكنني حسبت أن له فطنة في الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرا".

* * *

ومن قبل كان هرقل قيصر الروم، قد كتب لأمراء جيوشه: "أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، وبقي لكم نصفه مع بلاد الروم، أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام، ونصف بلاد الروم!".

فاستنكفوا من النزول عن شيء للعرب، وعصوا أمر قيصرهم هرقل.

وكانوا قد احتشدوا على ضفة اليرموك، في واد ضيق جعلوه خندقا لهم، ولم يكن لهم طريق للخروج منه إلا

الطريق الذي عسكر عليه المسلمون!.. فكانوا كلما خرج منهم جماعة اقتنصها المسلمون، فظلوا محاصرين في هذا الخندق، لا هم يهاجمون بجمعهم، ولا يهاجمهم المسلمون مجتمعين!

وظلوا هكذا حتى جاء خالد بن الوليد في نحو عشرة آلاف مقاتل، فأصبح المسلمون نحو أربعين ألفا، منهم ألف صحابي، فيهم مائة شهدوا بدرا، ولمن شهد بدرا من الصحابة فضل، وسبق، وخير، وبركة.

أما الروم، فكانوا في نحو مائتين وأربعين ألف مقاتل، وقد أمدهم هرقل بأمهر قائد في الدولة الرومانية الشرقية، هو باهان، وأقام خالد نحو ثلاثة أسابيع في عسكر المسلمين، فلم يجد في معسكرهم وحدة، إلا وحدة المكان!.. فأبو عبيدة رجل ورع تقي زاهد في الإمارة، لا يفرض نفسه!!

وكل جيش عليه أمير مستقل!!.. ومن الحق أن كلا منهم يشعر بأن أبا عبيدة خير منه، وبأنه أمير أمراء الجيوش كما أمره أبو بكر، ولكن كل أمير يؤم جنده في الصلاة، بدلا من أن يكون أبو عبيدة إماما لهم جميعا!

عبأ باهان جنود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وصفهم بإزاء جند المسلمين، في نظام لم يره المسلمون من قبل؟! وكان باهان هو القائد الأعلى لجيوش الروم، فالكلمة له هو وحده، دون أمراء الروم..

واجتمع أمراء الجيوش الإسلامية يتشاورون.. كيف يواجهون، وهم متفرقون. جيوش الروم التي اتسقت في نظام صارم، تحت إمرة قائد واحد؟!

ولم يشأ خالد أن يكون أميرا عليهم، كما أمره الخليفة، إلا أن يختاروه عن رضا طائعين.

وقف خالد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال" إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، فلا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة، وأنتم على انتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي تعلمون أنه الرأي من واليكم". فقالوا: "هات! فما الرأي؟" قال: "إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يعلم أننا سنتياسر (أي نتساهل بعضنا مع بعض)، ولو علم بالذي كان ويكون لقد (لفض وزنا ومعنى) جمعكم! إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم،

وأنفع للمشركين من أمدادهم (جمع مدد)، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان لأحد الأمراء، ولا يزيده عليه إن دانوه له. إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله، ولا عند خليفة رسول الله ❐، هلموا، فإن هؤلاء قد تهيئوا، وإن هذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم، لم نزل نردهم، وإن هزمونا، لم نفلح بعدها! هلموا فلنتعاور الإمارة (أي نتناوب الإمارة)، فليكن بعضنا اليوم، والآخر غدا، والآخر بعد غد، حتى تتأمروا كلكم، ودعوني أتأمر اليوم".

فاختاروه أميرا عليهم يومهم هذا، فقسم الجيوش إلى كراديس (أي فرق)، كل كردوس أو فرقة ألف رجل، وجعل أبا عبيدة بن الجراح على كراديس القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وجعل على كل كردوس قائدا من الأبطال البواسل مثل القعقاع، وعكرمة، وذي الكلاع الحميري، وصفوان بن أمية.

ونظر أمراء الجيش إلى الكراديس، فقال بعضهم لبعض في إعجاب: "إن هذه تعبئة لم تعرفها العرب من قبل!"

قال خالد: "إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس أكثر فـي رأي العين من الكراديس!".

أكثـر وسمع خالد رجلا يقول: "مـا أكثـر الـروم وأقـل المسلمين!" فنهره خالد قائلا: "بل ما أقل الروم، ومـا المسلمين! إنما تكثر الجنـود بالنصـر، وتقـل بالخـذلان" واصطنع خالد الجواسيس، وبـث العيـون علـى الـروم، يخالطونهم.. وكان بعـض بـدو الشـام يتجسسـون علـى المعسكرين، وينقلون الأنباء بين المسلمين والروم. وأجـزل خالد العطاء لهؤلاء الجواسيس. فأطلعوه على أسرار الـروم جميعا، وقص عليه البدو ما اعترى قواد الـروم مـن قلـق وخوف، حين علموا بمقدم خالد، وما أصابهم من حيرة حين شاهدوا تنظيمه الجيد للجيوش الإسلامية".

وكان أكثر قادة الروم فزعا أمير رومانـي هو جرجة، وقد عاش بالشام زمنا طويلا، فأتقن العربيـة، وسـمع عـن الإسلام والمسلمين، ولكم شاقه أن يعرف حقيقة الإسلام! فقد سمع عن انتصار المسلمين على الفرس في العراق، وعجب لهؤلاء الفقراء الضعفاء، كيف يهزمون دولة عظمى كفارس!

* * *

جعل خالد على قلب الجيش أبا عبيدة، وعلى الميمنة عمرو بن العاص، ومعه شرحبيل، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وجعل أبا الدرداء قاضيا للجيش، وعبد الله بن مسعود والمقداد وغيرهما يتلون على الناس سورة الأنفال، وهي سورة الجهاد..

وخالد على فرسه يستعرض نظام الجيش وتعبئته، ويتأمل جيوش الروم الكثاف في أبهتهم وخيلائهم، وقد نزلوا واديا ضيق المهرب، وهم يصيحون صيحات الحرب، ولهم هزيم قاصف كالرعود!.

فتقدم خالد على فرسه إلى أبي عبيدة، فقال له: "إني مشير بأمر" قال عبيدة: "قل ما أمرك الله به أسمع لك وأطع!" قال خالد: "إن هؤلاء القوم (الروم) لا بد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرق الخيل (الفرسان) فرقتين، وأجعلهما وراء الميمنة والميسرة، حتى إذا صدموهم، كانوا لهم رداء (معينا) فنأتيهم من ورائهم". فقال أبو عبيدة: "نعم ما رأيت!".

وأمر خالد أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى ما وراء الجيش كله، فإذا حاول أحد المسلمين أن ينهزم أو فر، رأى أبا عبيدة فاستحيا منه، فعاد إلى القتال، فتأخر أبو عبيدة، وجعل مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبأ خالد نساء المسلمين وراء خطوط الجيش كله، وسلحهن بالسيوف، والحراب، وقضبان الحديد، والعصي، والأخشاب، والأحجار، وقال لهن: "من رأيتنه فارا فاضربنه بهذه الأحجار والعصي والأخشاب حتى يرجع، فإذا لم يرجع فاقتلنه!".

ولما أوشك الجمعان أن يلتقيا وقف أبو عبيدة يخطب في المقاتلين، فقال: "عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة (من دحض أي بطل) للعار، ولا تبرحوا مصافكم (صفوفكم)، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق (جمع درقة: ترس من الجلد)، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم".

وجعل المسلمون يشد بعضهم أزر بعض ويقويه، فخطب معاذ بن جبل الأنصاري، قال: "يا أهل القرآن، ومتحفظي الكتاب (أي حفاظ القرآن)، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، والجنة لا تدخل بالأماني! ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق. ألم تسمعوا لقول الله: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم)".

وتنافس الخطباء، كل يخطب الذين هم تحت رايته، أو جند فرقته.

وخطب عمرو بن العاص، قال: "يا معشر المسلمين، غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا، وقصرا قصرا، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد (أي الحملة الشديدة

عليهم)، تطايروا تطاير أولاد الحجل (جمع حجلة بفتحتين: طائر ضعيف)".

وقام أبو هريرة فقال: "سارعوا إلى الحور العين، وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن. ألا وإن للصابرين فضلهم".

وطاف يزيد بن أبي سفيان بالكراديس يقول: "الله الله! إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وهم دارة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك".

ولما تقارب الجمعان، طلب قائد الروم خالدا، فبرز له خالد، فقال له القائد الروماني: "إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم هو الجهد (المشقة) والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاما وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها!!".

فنظر إليه خالد ساخرا منه، مستهزئا به، ثم قال: "إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء!!.. وإنه قد بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم..!

فجئنا لذلك!" فقال أمراء الروم: "هذا والله ما كنا نتحدث به عن العرب".

فانصرف خالد ضاحكا..

وارتفع للروم هزيم صاخب!

وجال خالد بفرسه على فرق الجيش، ثم أمر عكرمة والقعقاع، أن يبدءا القتال، فخرج كل منهما يدعو قائدا من شجعان الرومان إلى النزال، فما خرج لكليهما أحد من شجعان الروم، فبارزه، إلا صرعه!.. وهاب بقية أبطال الروم عكرمة والقعقاع، فأمر قائد الروم جنده أن يشدوا جميعا، وأقحم خالد خيله، وحمي الوطيس، واحتدم الصيال، وتقاتل الجمعان حتى ظن كل منهما أن الصبر قد نفد! وارتجت الآفاق بأصداء صرخات الرجال، ورنين وقع الحديد على الحديد، والشمس تتوهج على الدروع والخوذ والجباه، وثار النقع، حتى غصت الحلوق بالتراب المثار.. ولا أحد يعرف بعد لمن النصر..!

وأقبل فارس من المسلمين على أبي عبيدة، فقال له: "إني قد تهيأت لأمري، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟"

قال أبو عبيدة: "نعم، تقريه عني السلام، وتقول: يا رسول الله، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا".

وتقدم الفارس العربي: الرمح في يد: والسيف في يده الأخرى، فأقحم فرسه في خيل الروم، وهو يضرب باليمين والشمال، وخيل الروم تهوي من حوله صرعى جليلة، ووجهه وضاء، وثغرة باسم، حتى أزاح صفا للروم، فتقدم من خلفه فرسان المسلمين، يخوضون في صفوف الروم، والرءوس تتطاير وتلطم وجوه الأحياء، والأشلاء تختلط بفيضان من الدماء!..

ومر الظهر والعصر، واستشهد الفارس العربي الذي كان قد تهيأ للقاء الله ورسول الله .. وبدأت الشمس تهبط في الأفق، واختلطت الصفوف، وبلغت القلوب الحناجر، وحاول جماعة من المسلمين أن يفروا من الروع، فزجرهم النساء، وقذفوهم بالحجارة قبل أن يقتربوا منهن..

وعلى شعاع النهار الشاحب، والغسق يزحف من الغرب، التمعت السيوف في أيدي نساء المسلمين، واقتحمن يضربن هامات جند الروم، ويدفعن من يريد الهرب من المسلمين، وخولة بنت ثعلبة تصيح، وهي تلوح بسيفها

وبرمحها، وتحرض غيرها من النساء أن يتلقين بالسيوف أعناق من يحاولون الهرب من المسلمين العرب، ومن يهجمون من الروم! وأنشدت:

يا هاربا عن نسوة تقيات

فعن قليل ما ترى سبيات!

فأثارت النسوة النخوة في العرب المسلمين الفارين، ثم إنهن لم يمكن أحدا من الفرار.. فعاد الهاربون يخوضون الغمرات والأهوال مستميتين في القتال، فلا مفر!!

لابد من الفوز أو الشهادة.

واضطربت صفوف الروم، فأسرع بعض رجالهم بالهرب، ولكن نساء الروم في عدتهن الحربية، اعترضنهم بالسيوف وأعدنهم إلى القتال، ومن لم يعودوا إلى ميدان المعركة قتلتهم النساء الروميات!

وثبت يزيد بن أبي سفيان، وأبلى أحسن البلاء، ففتح الثغرات في جيش الروم، وتدفقت من هذه الثغرات جموع المسلمين من فرسان ومشاة، وتقدم خالد من خلفهم فحاصرهم، واستمر القتال حتى الغروب.

ثم أدرك الكلل والإعياء جنود الروم والمسلمين على السواء! فتوافق الجمعان على فترة راحة، لم يعد يملأ الجو فيها غير أنين الجرحى، وخفق التقاط الأنفاس، وزفرات الإعياء، وهمسات شجية من أصوات المساء!

* * *

وبعد أن استراحوا لحظات، وقف خالد على رأس جيشه، ينظم صفوفه التي سادها الاضطراب خلال الاقتتال، وأمر بنقل الجرحى إلى آخر الصفوف، ليعالجهم النساء.

ورأى قائد الروم أن يعيد تنظيم صفوفه المنهكة المختلطة، وأمر بنقل الجرحى بعيدا عن ميدان المعركة.

ولما أعاد قائد الروم تعبئة جنده، اختار واحدا من أبرع وأشجع فرسانه، وجعله قائدا لطليعة الجيش، وهو جرجة الذي عاش حياته بالشام، وسمع عن المسلمين، وكان يتطلع إلى أن يعرف كل شيء عنهم وعن الإسلام، والذي تهيب خالد بن الوليد.

وقف جرجة في مقدمة طليعة الجيش الروماني، ثم تقدم إلى جيوش المسلمين حتى أصبح بين الصفين، فنادى: "فليخرج إلي خالد بن الوليد" فخرج خالد، وجعل أبا عبيدة

مكانه، وتقدم جرجة، وتقدم خالد، حتى تماس عنقا فرسيهما، وقد أمن كل منهما صاحبه، فقال جرجة: "يا خالد، اصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخدعني، فإن الكريم لا يخدع. بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟!".

قال خالد: "لا" قال جرجة: "فلم سميت سيف الله؟" قال: "إن الله عز وجل بعث فينا نبينا ﷺ، فدعانا، فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعا ثم إن بعضنا صدقه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به، فتابعناه، فقال لي: أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين والمنافقين".

قال جرجة: "صدقتني".

ثم قال: "يا خالد، إلام تدعوني؟" قال: "إلى أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده رسوله.. وإلى الإقرار بما جاء به من عند الله".

قال: "فمن لم يجبكم؟" قال خالد: "فالجزية ونمنعهم" (أي نحيمهم). قال: "فإن لم يعطها؟" قال: "نؤذنه (ننذره) بحرب، ثم نقاتله".

قال جرجة: "فما منزلة الذي يدخل فيكم، ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟" قال: "منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا".

قال: "هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟". قال: "نعم، وأفضل" قال: "وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟" قال: "إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا ❐، وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعناه أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا".

قال جرجة: "بالله لقد صدقتني، ولم تخادعني". قال خالد: "بالله لقد صدقتك، وما بي إليك من حاجة" قال: "صدقتني..".

* * *

وكان باهان قائد جيوش الروم، قد أغرى أحد البدو بالاختلاط بجيش المسلمين لنقل أخبارهم، قال له: "ادخل في هؤلاء القوم، فأقم فيهم يوما وليلة ثم ائتني بأخبارهم". فأقام

يوم وليلة ثم أتاه، فقال له: "هؤلاء قوم بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن مليكهم لقطعوا يده!" فقال القائد الروماني: "لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها! ولوددت أن الله يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرهم علي، ولا ينصرني عليهم!".

ثم أمر باهان جنده أن يزحفوا، فتقدم جرجة في مقدمة طليعة الجيش، ومعه عسكره، فأفسح خالد لهم طريقا، فقال جرجة: "علمني الإسلام"، فقاده خالد إلى خيمته، فصب عليه ماء فطهره، وعلمه الوضوء، فتوضأ، ثم صلى خالد به ركعتين، وعسكره وطليعة جيش الروم في انتظار جرجة قائدهم خارج خيمة خالد!..

وظن الروم الآخرون أن خالدا أوقع جرجة وعسكره في كمين، فانقضوا على المسلمين، فاضطروهم إلى التراجع، وعكرمة على كردوسه أمام خيمة خالد، فلما رأى المسلمين يتراجعون، صاح في وجه الروم" لقد قاتلت رسول الله في كل موطن، أأفر منكم". قم قال لقومه: "من يبايعني على الموت؟" فبايعه أربعمائة من كردوسه فيهم ابنه عمرو، فوثبوا على الروم، وثبة رجل واحد، فأزالوهم من مكانهم.

وأمر خالد الجيش كله بالتقدم، والانقضاض السريع.
واندفع المسلمون يحاربون برغبة في الاستشهاد، جهادا في سبيل الله، ولا خيار أمامهم إلا الفوز أو الموت!..
وكان الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله، ممن شهدوا المعركة من أهل بدر، ومن العشرة الكرام البررة، المبشرين بالجنة..
وكان من فرسان المعركة وشجعانها.. اجتمع إليه جماعة من فرسان الناس وأبطالهم، فقالوا له: "ألا تحمل فنحمل معك؟" فقال: "إنكم لا تثبتون!" فقالوا: "بلى!".
فأسرع يتقدم إلى صفوف الروم، ولكنهم عندما وثب الروم تأخروا عن الزبير، فاقتحم هو صفوف الروم، فأثخن فيها، وانزاحوا عنه، حتى خرج من الجانب الآخر.
ثم كر راجعا يضرب عن يمين وعن شمال، حتى بلغ أصحابه، فقادهم مرة وأقدموا جميعا، فاضطربت صفوف الروم، فشد أجناد آخرون من الروم، فصاولهم جمع من المسلمين، وصرخات الحرب تتعالى من الروم، تجاوبها هتافات المسلمين: "الله أكبر! الله أكبر!" ودعاء معاذ بن جبل يتسلق التراب المثار، والأسنة الخفاقة، والدم المراق: "اللهم

زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكنية، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء!".

وانكشف شرحبيل وأصحابه، فتراجعوا، فقال لهم أبو عبيدة: "ألم تسمعوا الله يقول: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..)؟".

واضطربت الصفوف، وانهزم عمرو بن العاص، فتقهقر في أربعة من أمراء جيشه، وحسب النساء من خلف صفوف الجيش أن عمرو بن العاص يريد أن يهرب هو ومن معه، فزجروهم وقذفوهم بالحجارة، فأقدموا، واختلطت الصفوف، والمسلمون يشدون ليفوزوا بالنصر أو الاستشهاد..

والفضاء يرتج بقراع السيوف والرماح، ووقع الأسنة على الدروع، ورجع الصدى من حمحمة الخيل وصلصلة الحديد إذ يصدم الحديد، تغمرها صيحات المسلمين المدوية: "الثبات الثبات يا معشر المسلمين، يا نصر الله اقترب..".

واقترب الفرج، ثم جاء نصر الله!

وزلزل الروم من عزمات المسلمين، وكانوا أخلاطا من الروم ومن بدو الشام، وكانوا يكرهون هرقل لكثرة ما اضطهدهم ليحملهم على مذهبه الديني!

لم يكن هناك ما يوحد قلوب جيوش وعقول الروم!! وتساءل حلفاؤهم بدو الشام في أعماقهم: "عن أية قضية يدافعون؟ وفي سبيل أي هدف يقاتلون؟!" وبدأ البدو من عرب الشام يفرون!

وتضعضع عسكر الروم.. ونساء المسلمين من وراء الصفوف يشحذن همم الرجال، ويشعلن حماسة المجاهدين.

وانقض جرجة بعسكره يحارب الروم إلى جوار خالد.. وأحس خالد بأن الروم يتهافتون، وأنهم يبحثون عن مهرب.

ولم يكن أمامهم مهرب من الوادي الضيق الذي أصبح خندقهم، إلا باقتحام جيوش المسلمين!!

فأفرج لهم خالد في جيشه منفذا واسعا يهربون منه، فاندفعوا بخيولهم مذعورين، حتى يبلغوا مكانا منحدرا كالهاوية وراء جيش المسلمين، وكانوا قبل المعركة قد ربط أكثرهم بعضهم إلى بعض كيلا يهربوا، فلما بلغوا حافة المنحدر السحيق، تهاوى فيه كل الفارين!! يهوي المقاتل منهم فيجذب عشرة ممن أوثقوا معه في رباط واحد!!

فبلغ من قتل بسيوف المسلمين، أو في الهاوية نحو مائة ألف من الروم!

وكان تذارق شقيق هرقل من بين القتلى، وفر قائدهم باهان فيمن فروا.

وفر الروم وتركوا المعسكر بما فيه، وتركوا النساء الروميات المقاتلات والمسالمات..

وبعد المعركة، قال هرقل لأمراء جيشه الذين أقبلوا عليه منهزمين: "ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم! أليسوا بشرا مثلكم؟!" قالوا: "بلى". قال: "فأنتم أكثر أم هم؟!" قالوا: "بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن". قال: "فما بالكم تنهزمون؟!" فقال شيخ من عظماء الروم: "من أجل أنهم يوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم (يتبادلون الإنصاف)، ومن أجل أننا نركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض"! فقال هرقل: "صدقتني".

وقال القعقاع يفخر بالنصر من قصيدة طويلة:

ألم ترنا على اليرموك فزنا

كما فزنا بأيام العراق!!

ودخل المسلمون معسكر الروم، فغنموا منه مغانم عظيمة لم يغنموا مثلها من قبل، وسبوا كثيرا من نساء الروم الشقراوات.

وعلى الرغم من كثرة شهداء المسلمين فإن أنباء النصر مسحت الدموع!

فأضاءت المدينة ليلتها بالنور العظيم.. وبلغ من ضخامة ما غنمه المسلمون أن حصل كل مقاتل على نحو ألف درهم.. وملأ السبي من بني الأصفر وبناته الشقراوات بيوت المدينة.

وأشرقت النفوس بهذا الفتح المبين، الذي حققه خليفة رسول الله، فسجدوا الله شاكرين، يؤمهم شيخهم، شيخ الإسلام ذو البدن الضعيف النحيل، الورع، التقي الجليل، الذي أصبح بنصر الله وفضله شيخ الإسلام الفاتح!.

الفصل السابع

هموم الخلافة..!

تناهت إلى المدينة من ساحات القتال قصص كثيرة،

منها الذي أضحك، وأبكى!

وجلس الصديق على سرير الحكم، مفترشا حصباء المسجد أو الحصير، حيث تعود أن يجلس الرسول ❐، فادراكت تلك القصص على خليفة رسول الله، يلحق آخرها أولها، فإذا هو يضحك حتى تبدو نواجذه، أو تفيض عيناه من الدمع..

علم أن من قتل في اليرموك من المسلمين بلغوا ثلاثة آلاف، فيهم جرجة الرومي، أحدث الناس إسلاما..

وأصيبت عين أبي سفيان بسهم.

ومن تلك القصص ما رواه عبد الله بن الزبير، وكان صبيا لا يقاتل، ولكنه خرج مع أبيه الزبير بن العوام، يمده بالنبال في المعركة، وكان الزبير بن العوام، من أمهر الرماة بالقوس، ومن أشجع المقاتلين بالسيف والرمح. قال عبد الله بن الزبير: "كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا

يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم، وإذا أبو سفيان بـن حـرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح الذين أسلموا (بعد فتح مكة)، فرأوني حدثا فلـم يتقـوني، فجعلـوا واالله إذا مـال المسلمون وركبتهم الروم، يقولون: إيه بني الأصـفر! فـإذا مالت الروم وركبهم المسلمون، قالوا ويح بني الأصفر! فلما هزم االله الروم أخبرت أبي فضحك فقال: قـاتلهم االله! أبـوا إلا ضغنا، لنحن خير لهم من الروم!".

ومن ذلك أن خالد بن الوليد لما دخل الحيرة، وملـك قصورها، الشامخة الباذخة، وفيها قصر الخورنق والسـدير، عز على أحد عرب العراق أن يرى عربـا مثلـه فقـراء، يسكنون قصور النعمان بن المنذر، وسائر قصور المنـاذرة، فقال:

أبعد المنذرين أرى سواما
تروع بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى
قلوصا بين مرة والحفير؟!
(مكانان)
فصرنا بعد هلك أبي قبيس

كجرب المعز في اليوم المطير!

(قلوص: إبل – مرة والحفير: مكانان – هلك: هلاك).

وقصور المنذرين أو المناذرة تلك هي التي اعتصم فيها أشراف الحيرة، لما حاصرها خالد، وكانت قصورا حصينة ذات قلاع وحصون منيعة، فاجتمع القسيسون والرهبان على رأس أهل الحيرة، ورأوا أن أهل القصور باعتصامهم فيها يستنفرون خالدا لفتح المدينة حربا، ولقتل أهل الحيرة، فزحفوا جميعا يقودهم القسيسون والرهبان، وحاصروا القصور، وهم يصيحون: "يا أهل القصور! ما يقتلنا غيركم!" فاضطروهم إلى مصالحة خالد على الجزية، بدلا من الحرب!

ومن ذلك أن رجلا من جند خالد اسمه شويل أتاه، وهو يصالح أهل الحيرة، فقال: "إني سمعت رسول الله ❐ يذكر فتح الحيرة، فسألته كرامة بنت أمير الحيرة، وهي أجمل فتياتها، وكان شويل قد رآها من قبل مرات في شبابه، أثناء زياراته التجارية للحيرة، فشغفته حبا! فقال له الرسول: "هي لك إذا فتحت الحيرة عنوة".

وجاء شويل بشهود أقروا كلامه. فشرط خالد على أهل القصور في الحيرة أن يسلموه كرامة بنت صاحب الحيرة ليدفعها إلى شويل.

فكبر ذلك عليهم، واتفقوا ألا يسلموها، ولو هلكوا جميعا!

فلما رأت كرامة أن المصالحة قد لا تعقد، وأن أهلها سيهلكون دفاعا عنها، قالت لهم: "اصبروا، ما تخافون على امرأة عجوز؟! فإنما هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي، فظن أن الشباب يدوم!".

وما زالت بهم تحاورهم في ثقة حتى اطمأن بالهم، وأمن سربهم، فأعطوها لخالد، فدفعها إلى شويل، فلما أقبل عليها قالت له: "ما أربك إلى عجوز كما ترى" فادني (أي خذ منى فدية واتركني)". قال: "إلا على حكمي!" قالت: "فلك حكمك". قال: "لست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم!".

فاستهزأت به خفية وأظهرت أنها استكثرت ذلك المبلغ من المال، لتخدعه!

ثم أتته بما طلب، تتظاهر بأنه كلفها ما فوق طاقتها، ففرح بالمال، وسرحها، فعادت إلى أهلها!

فلما عرف أصحابه بذلك لاموه، وقالوا له: "لو حكمت بمائة ألف درهم، لأدتها إليك". قال: "ما كنت أرى أن عددا يزيد على ألف! وكان نيتي غاية العدد".

ومن ذلك أن أبا عبيدة بن الجراح، لما عسكر بالمسلمين على ضفة اليرموك، بعث إلى تذارق قائد جيش الروم، وهو شقيق هرقل، ليلقى وفدا من المسلمين، ليتكلموا معه قبل أن ينشبوا القتال!

وأرسل إليهم تذارق أنه في انتظارهم، على الرحب والسعة.

فمضى أبو عبيدة بمن معه إليه، فوجدوا معسكره في ثلاثين رواقا، وثلاثين سرادقا، كلها من الديباج الثمين، فأبوا أن يدخلوا عليه فيها، وقال أبو عبيدة له من خارج الأروقة والسرادقات: "لا نستحل الحرير، فابرز لنا!" فخرج من سرداقه، ومشى إليهم على بساط موشى، فانتظره أبو عبيدة والوفد، حتى فرغ من المشي على البساط، ولم يحدثوه إلا عندما أصبح مثلهم على تراب الأرض!

فلما علم هرقل بذلك، قال لأمراء دولته: "ألم أقل لكم!؟ هذا أول الذل!".

ومن ذلك أن خالدا لما انتصر في الشام، أتوه بعكرمة وابنه عمرو بن عكرمة، وكلاهما جريح، جعل خالد يعالجهما، مع اللائي يتولين علاج الجرحي من نساء المسلمين، ثم وضع رأس عكرمة على فخذه، ورأس ابنه عمرو بن عكرمة على ساقه.

ويهمهم خالد لنفسه من خلال الزفرات: "ويزعمون أننا لا نستشهد!"..

وظل يقطر الماء في حلق كل منهما حتى استشهدا، فسقطت دموعه على وجهي الشهيدين!.

ومن ذلك أن المثنى قاتل جماعة من العدو في البر، فهزمهم وفروا أمامه، فطاردهم، فهربوا منه في الخليج، والمثنى لا يعرف السباحة، لا هو ولا جنده من المسلمين!..

فانتظر حتى أتى الجزر، فانكشف الماء عن القاع، وأصبح ضحلا، فأقحم المثنى الإبل والخيل والحمير والبغال بما عليها من عتاد، وبمن عليها من رجاله، وأمر الباقين أن يقتحموا الماء على أقدامهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأخذ يتضرع إلى الله، وهم يرددون دعاءه: "يا

أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حي، يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، يا ربنا!".

فاجتازوا ذلك الخليج، يمشون من قاعه على رمل فوقه ماء قليل، لا يكاد يغمر منهم ومن الدواب إلا ما دون الركبة! فأدركوا عدوهم فقاتلوهم، وهزموه، وغنموا منهم مغانم كبيرة، وسبيا كثيرا، ثم عاد المسلمون على رمل الخليج كما جاءوا، وما زال الجزر يهيئ لهم طريقا آمنا، حتى إذا عبروا، طغى الماء وارتفعت أمواج المد.

حدث هذا كله، وراهب من أهل تلك البلاد، قد أخرجته ضجة الجند من صومعته، فوقف يتأمل ما يحدث، وبهر به، فأسلم، من تلقاء نفسه!

فسألوه: "ما حملك على الإسلام؟" قال: "ما مهده الله من أثياج البحر (جمع ثيج. الوسط والسطح)، وما كشفه للمسلمين من رمال ليسيروا عليها آمنين، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحرا: اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك، والبديع فليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، الحي الذي لا يموت، وخالق ما يرى وما لا يرى، وكل يوم أنت في شأن، علمت كل شيء بغير تعلم".

وأضاف الراهب: "فعلمت أن الله ما أعان القوم بالملائكة في حروبهم، إلا وهم على حق!".

ومن ذلك أن خالدا أراد أن يحقن دماء أهل المدينة، فتقدم إليها، ومن خلفه ومن حوله حاميته التي تحرسه، كيلا يطعن غدرا، ونادى قواد عدوه بأسمائهم واحدا بعد واحد، ليخرجوا فيصالحوه، ويكفي الله الناس القتال، فلم يجبه أحد، إلا رجل من عرب العراق، رد عليه، وخرج إليه لا مصالحا، بل متحديا مبارزا، وكان هذا العربي أفرسهم وأشجعهم، فقال له خالد: "يا بن الخبيثة ما جرأك علي من بينهم؟! وليس فيك وفاء!". فانقض الرجل يبارز، فضربه خالد أول ضربة، فقتله!

فخرج الآخرون، فصالحوا خالدا..

* * *

على أن أكثر ما كان يفكر فيه الصديق – حين يفكر في الحرب – هو أمر عرب الشام!.. كيف ناصروا سجانيهم الروم، على محرريهم وبني عمومتهم العرب المسلمين من أبناء شبه جزيرة العرب!؟.

وكان أبو بكر يقارن العقيدة التي يدين بها عرب العراق النصارى، فيجدها أقرب إلى الإسلام من نصرانيةالرومان التي أراد هرقل فرضها على رعيته، فلما فشل كان يضطرهم إليها بالاضطهاد العظيم، والعذاب الأليم!

لقد عرف الصديق أن الروم يدينون بأن الله ثالث ثلاثة، أما رعاياهم من النصارى غير الرومان في الشام والعراق، وقبط مصر، فيرفضون هذا، كما يرفضها المسلمون، فهم إلى المسلمين أدنى منهم إلى الروم.

من أجل ذلك قال فيهم الله تعالى في القرآن: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون* وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين).

وهم يؤمنون بما قاله الله في القرآن عن السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ويرون كما يرى المسلمون أن من الكفر القول بأنه إله، أو بأنه ثالث ثلاثة آلهة!! (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم).

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلـه إلا إله واحد).

(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت مـن قبلـه الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) أي كانا من البشـر، وأرسل الصديق إلى أمراء جيوشه في دولة الفرس والـروم أن يحسنوا عرض الإسلام على الناس، وأن يدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فالنصـارى العـرب فـي الدولتين أقرب الناس مودة للذين آمنوا.

وحذر الخليفة أمراء جيوشـه أن يفرحـوا بـأموال الجزية، فلأن يهدي الله بأحدهم رجلا واحدا خير له عنـد الله من الدنيا وما فيها.

* * *

أقام المثنى بن حارثة الشيباني فـي قصـر الحـاكم بالحيرة، وهو قصر عظيم أقامه النعمان بن المنذر... وكانت أنباء انتصارات المسلمين على الروم، تتواتر على المثنـى، فتلهب عزيمته، وتشحذ إرادته، وتشد أزره علـى اسـتكمال النصر بفتح المدائن: حلمه العريض، كما كانت أكبر أحـلام خالد بن الوليد.

إن المثنى الآن هو المسئول عن جيش المسلمين في
العراق، بعد أن فصل خالد إلى الشام، بنصف المسلمين.
يجب على المثنى أن يحتفظ بما حققه خالد من
فتوحات، وأن يزيد!

لقد آن الأوان لفتح عاصمة الفرس.

وإذ كان المثنى يتجهز لفتح المدائن، ويفكر في أن
يضم إليه المرتدين الذين تابوا، وعادوا إلى الإسلام، وإذ كان
يعد كتابا للخليفة يستأذنه في ضمهم، ويعد كتابا إلى زعمائهم
يغريهم بما في الفرس من طيبات، إذ هو في ذلك كله يريد
أن ينتهز اضطراب الأمر في دولة فارس، اتفق الأمراء
الفرس على تولية واحد منهم، وعاهدوه على النصرة، ليحموا
المدائن عاصمة الدولة من غزو المثنى بن حارثة الشيباني،
وجنده المسلمين، المستميتين في القتال.

اتفق أمراء فارس فولوا عليهم شهريران وهو ابن

أردشير. ولم يكد يجلس على عرش الأكاسرة، حتى
جهز
جيشا عظيما، وأمره بالزحف إلى المثنى في الحيرة، قبل أن
يبتدر المثنى عاصمة الدولة بالوثوب عليها!

وخشي المثنى أن يقتحموا عليه الحيرة، وهو يعلم أنه

ما غزي قوم في عقر دارهم قط، إلا ذلوا!

فخرج المثنى من الحيرة مسرعا، واستخلف عليها أحد أمراء جيشه، ورأى أن يقابل زحف كسرى الجديد هذا، فانطلق تلقاء المدائن، وعلى أحد جناحي جيشه أخوه المعنى الذي فض حصن المرأة، وتزج الأميرة الفارسية الحسناء، وجعل المثنى على الجناح الآخر لجيش المسلمين أخاه الآخر مسعود بن حارثة.

وبلغ المثنى مدينة بابل في بعض الطريق إلى المدائن، فأقام بها يستريح ويريح جيشه، ويعبئه تعبئة أفضل، فأقام الثكنات في طريق جيش الفرس، وملأها بجند بواسل أشداء، واستعمل جواسيس من المغامرين الأذكياء، وبثهم في عسكر الفرس..

وجاءه كتاب كسرى الجديد، شهريران، كتب: "إني قد بعثت إليكم جندا من وحش أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم!".

وجعل كسرى الجديد على رأس هؤلاء الجند قائدا، جسورا مغامرا، اسمه هرمز جاذويه.

فرد المثنى على كسرى فارس: "إنما أنت أحد رجلين: إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة – عند الله، وفي الناس – الملوك! وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم، والحمد الله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير!".

فجزع أمراء الفرس من رد المثنى على ملكهم الجديد، وقالوا عنه: "إنما أتي شهريران من شؤم مولده ولؤم منشئه – وكان يسكن ميسان - وبعض البلاد شين وشؤم على من يسكنه".

ثم قالوا له: "جرأت علينا بالذي كتبت به إليهم، فإذا كاتبت أحد فاستشر".

وزحف جيش الفرس، وفي مقدمته فيل عظيم مدرع مخيف، تعود الفرس الاعتماد عليه في المعارك، فالتقى جيش الفرس بجيش المثنى خارج بابل، فاقتتلوا قتالا عنيفا، وأقحم الفرس الفيل صفوف المسلمين ففرقها، فناداهم المثنى أن ينقضوا على الفيل فيضربوه ضربة رجل واحد، وقادهم إلى الفيل، يطعنونه في كل مكان بالرماح والسيوف، ويرمونه بالنبال، حتى قتلوه، وهزموا كسرى، ففر الفرس مذعورين

من شدة وطأة المسلمين عليهم، وطاردهم المسلمون، حتى أبواب المدائن.

وفي ذلك أنشد شاعر أعرابي من جيش المسلمين، كان قد هجرته امرأته، فانضم لجيش المثنى مجاهدا، حتى شهد غزوة بابل، ثم رجع إلى البادية.. أنشد:

هل حبل خولة بعد البين موصول

أم أنت عنها بعيد الدار مشغول!

وللأحبة أيام. تذكرها

وللنوى قبل يوم البين تأويل

حلت خويلة في حي عهدتهمو

دون المدائن فيه الديك والفيل

يقارعون رءوس العجم ضاحية

منهم فوارس لا عزل ولا ميل

(عزل بضم العين وسكون الزاي جمع أعزل بلا سلاح. ميل جمع أميل وهو السيئ الركوب).

ولم يحتمل كسرى شهريران نبأ الهزيمة، فخر صريعا.. قتلته الصدمة من فوره!

واندفع المسلمون يطرقون أبواب المدائن.. ولكن لا بد من جيش عظيم!

وأرسل المثنى إلى الخليفة يستأذنه في تجنيد جيش ممن عرفهم من أهل الردة الذين تابوا، فهم أنشط الناس إلى قتال الفرس، إما تدينا وندما، أو تطلعا وطمعا!..

ولكن الصديق لم يرد على المثنى.

فوقف أمام المدائن ينتظر.

وتداعى أمراء الفرس ليختاروا لهم كسرى جديدا، فلم يتفقوا إلا على أميرة حكيمة، سارت فيهم سيرة حسنة، وحكمت بالعدل، فأحنق ذلك عليها بعض الأمراء، فدسوا لها السم، ولم تكد تستقر على عرشها!

فاختار الأمراء سابور بن شهريران، ولكنه جعل أمره إلى أحد العبيد، فسأله أن يزوجه آزر بنت كسرى، فما كان منه إلا أن زوج العبد بالأميرة!، ولكنها أبت، وقالت للملك: "يا بن عم، أتزوجني عبدي؟!" فأغلظ لها.. وقال: "استحيي من هذا الكلام ولا تعيديه علي فإنه زوجك!".

وكان هذا العبد عبد سوء، فخافته على حياتها، وإنهم ليعدون في القصر للزفاف إذ أرسلت إلى أحد أتباعها، وكان

من أكبر فتاك الفرس، فبثته مخاوفها وأجزلت لـه العطـاء: جواهر وأموالا طائلة ووعدته بالمزيد.. فقال لها: "إن كنـت كارهة له فلا تعاديه، وأرسلي إليه فليأتك، وأنا أكفيكه".

فلما كانت ليلة العرس دعته إليها، فأقبل عليها، فلمـا اطمأن به مخدعها، وثب عليه الفاتك من خلف ستار، فقتلـه، ثم مضت بالفاتك إلى قصر سابور بن شـهريران، فقـتلاه، وجلست مكانه على عرش فارس، وكافأت الفاتـك مكافـأة عظيمة، ولم ينازعها أحد، فقد رضي بها الأمـراء جميعـا، ليفرغوا للدفاع عن المدائن.

والمثنى مازال ينتظر على أبـواب المـدائن، لعـل الخليفة يرسل إليه مددا..

وعاد المثنى يكتب للخليفة، عن أهل فارس وتمزقهم وتهافتهم، وعن تهيبهم المسلمين، ثم أخذ يغري الخليفة بـأن يمدهم بالتائبين من أهل الردة، فقد اختبـر شـجاعتهم فـي معاركه معهم، وعرف أنهم مقاتلون أشداء، وسيكون بعـثهم لقتال الفرس خيرا كله فالفرس يخافونهم، وقد عانوا بلاءهـم عندما حكموهم.. ثم إن هؤلاء التائبين أحد رجلين: إما رجل تاب توبة نصوحا، فهو يتقرب إلى الله تعـالى بالجهـاد، ولا

يرضى بغير النصر أو الاستشهاد. وإما رجل يدفعه إلى قتال الفرس حب المغنم، والمغانم من الفرس كثيرة شديدة الإغراء، ففيها الأموال الطائلة، وفيها الجواهر النادرة، والسبايا الحسان!.. سيبادرون إلى الجهاد إن دعاهم الخليفة، إما ندما وورعا، وإما طمعا.

ولكن الخليفة لا يرد!!...

* * *

فقاد المثنى جيشه إلى الجنوب، حتى إذا بلغ آخر حدود العراق، ترك الجيش على التخوم بين العراق وبلاد العرب، ليجعله في مأمن من غدرات الفرس، واستخلف رجلا غيره على الجيش وعلى الذين بالعراق من المسلمين، وانحدر مسرعا إلى المدينة، ليلقى الخليفة، عسى أن ينجح في الحصول على موافقته، ولربما استعان عليه ببعض الصحابة ممن يعرف لهم الصديق حسن الرأي، وصدق المشورة، والحكمة.

فلما أتى المثنى المدينة وجد في الناس وجوما.

عجبا!! ليست هذه حال أهل المدينة حققت من النصر ما لم يتخيله أحد، وما يعتبره أهل الزمان معجزات!!

ما بال أهل المدينة؟!

وعرف أن أبا بكر مريض، والناس كلهم في إشفاق عليه، يتخافتون المخاوف! فاتجه إلى مسجد رسول الله، ودعا لأبي بكر بالشفاء، ووقف على قبر رسول الله.. ففاضت عيناه! أين أنت يا رسول الله لتشاهد ما حققته أمتك، ولترى مدى ما أظلته دعوتك؟!

وتذكر المثنى يوم لقي الرسول وأبا بكر وعليا، فدعاه الرسول وأشراف قومه لنصرة الإسلام!!

وشرد المثنى: أيغفر الله له فتكاته في الجاهلية؟! كان فاتكا عظيما في الجاهلية!

أيغفر الله له ذلك، بحسن بلائه في حروب الردة، وباستبساله في الجهاد في سبيل الله؟!

أين أنت لتدعو لي الله يا حبيبي يا رسول الله؟!

ومشى المثنى في مسجد الرسول، فوجد المكان الذي تعود أن يجلس فيه الرسول على الحصباء خاليا!!

لقد تعود أن يجلس فيه خليفته من بعد! وإنه اليوم لخال أيضا!!

وأجهش المثنى بالبكاء. شفاك الله يا خليفة رسول الله! شفاك الله فلولاك لما قام للناس نظام، ولفتكت الردة والخديعة والأكذوبة والنفاق بالإسلام!

وتمالك المثنى نفسه، واتجه إلى باب بيت أبي بكر المفتوح على المسجد.. وإن خفقات القلب الشجاع في أعماق المثنى لتتصاعد متلاحقة عنيفة، حتى لقد خشي أن تطرق الأسماع!!

* * *

كفكف المثنى دموعه، وأصلح هيئته، وشد قامته، ومشى مهيبا إلى باب الخليفة..

ودخل الباب، متماسكا وهو يدعو الله" شفاك الله وعافاك يا خليفة رسول الله".

وكان الخليفة في فراشه شاحبا، وقد زاد نحوله، وضعف صوته.. واستأذنه المثنى في تجهيز جيش من المرتدين الذين رجعوا إلى الإسلام، وندموا على ما فرط منهم، وتابوا توبة نصوحا، وأرادوا أن يكفروا عما قد سلف، بالجهاد في سبيل الله، وإن منهم لمن تستثيره الأطماع في الفيء والمغانم والسبايا.

ومهما يكن اختلاف بواعثهم، فهم أنشط إلى القتال من غيرهم!..

وحدثه عما أصاب المقاتلين من عناء ومشقة وملل، فمن الخير تقويتهم بمدد جديد لم تستهلك المعارك المتلاحقة المتوالية شيئا من طاقاتهم أو نشاطهم.

وما زال المثنى بالخليفة حتى استدعى إليه وزيره عمر بن الخطاب، فقال له يا عمر.. إذ أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم، فقد رأيتني متوفى (أي لما توفي) رسول الله ❐، وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله، وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله، وولاة أمره، وأهل الجرأة عليه".

* * *

ما من شيء يستولي على فكر أبي بكر الآن كما يستولي عليه الآن مستقبل الإسلام والمسلمين.. ما خطب الإسلام بعدك يا أبا بكر؟ وما بال المسلمين؟!

لكم مر بالإسلام والمسلمين من أحداث.. لولا أن الله شرح صدرك لحرب المرتدين، ولولا أنك أبيت أن تقبل من أحد الامتناع عن الزكاة أو التفرقة بين الزكاة والصلاة، ولولا

أنك مضيت تحارب المرتدين الشداد العتاة، ما يؤيدك في ذلك إلا علي، ومعه فتيان قلائل، دون كل صحابة رسول الله!. لولا أنك مضيت على بركة الله تجاهد في سبيل الله، لما قام للناس نظام، ولانتصر الشرك على دين الله!! الحمد الله أولا وآخرا.

وتناوحت الذكريات في أطواء نفسه.. لكم هي عزيزة عليه تلك الذكريات!! لا بد من التأمل فيها لاستخلاص العبرة فيما فات، ولاستبصار ما ينبغي النهوض به فيما هو آت..

إنه ليذكر على إيقاع هذه الكلمات تلك البصائر المبشرة في الجاهلية، الداعية إلى سبيل الله.

كان ذلك مع محمد.. ما من ذكرى لك يا أبا بكر إلا ارتبطت بمحمد!!.. يا حبيبي يا محمد!.. صلى الله عليك وسلم.

وفاضت دموع أبي بكر على وجهه المعروق الذي غشي الهزال بياضه المضيء، ودهمه الذبول، بعينيه المقرحتين من طول القيام، وكثرة البكاء.. وعاد السعال يهز بدنه الذي أضعفه المرض، ليقطع الرؤى التي تدفعها الذكريات!

وهدأ عنه السعال، فتلاحقت الذكريات..

كان الرسول جالسا مع أصحابه، وإلى جواره أبو بكر، فأطرق الرسول هنيهة كأنما يتذكر شيئا، ثم قال: "لست أنسى قس بن ساعدة، ممتطيا جملا أورق (رمادي اللون) في سوق عكاظ، وهو يتحدث حديثا ما أحسبني أحفظه!..".

قال أبو بكر: "إني أحفظه يا رسول الله. كنت حاضرا في ذلك اليوم في سوق عكاظ.. ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول:

أيها الناس، اسمعوا وعوا، إذا وعيتم فانتفعوا، إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت! إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا. مهاد موضوع (الأرض) وسقف مرفوع (السماء)، ونجوم تمور (تتحرك)، وبحار لن تغور. ليل داج، وسماء ذات أبراج. يقسم قس أن الله دينا هو أحب إليكم من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟!

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يسعى الأكابر والأصاغر

أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائــــر

يا للذكريات !! ويا ليوم بشروه ببعث صديقه محمد نبيا.

كم من السنوات قد مرت على هذه الذكريات.. ألا إنه أمد بعيد! نحو خمسة وعشرين عاما!!

أتذكر؟! نعم كل شيء واضح مبين أمامي، وكأنما هذا كله قد حدث بالأمس القريب!

كان أبو بكر قبل البعثة في رحلة الشتاء باليمن للتجارة. حكى عما وقع له في رحلة التجارة تلك، قال: ".. فنزلت على شيخ من الأزد عالم قد قرأ الكتب، وعلم من علم الناس كثيرا"، فلما رآني قال: أحسبك حرميا (من أهل الحرم)، قلت: "نعم، أنا من قريش" قال: "وأحسبك تيميا" قلت: "نعم، أنا من تيم بن مرة. أنا من ولد كعب بن سعيد بن تيم بن مرة. أنا عبد الله بن عثمان (وهذا هو اسم الصديق أما أبو بكر فهي كنيته التي غلبت على اسمه)، قال الرجل الأزدي: بقيت لي فيك واحدة. قلت: ما هي؟. قال: تكشف عن بطنك. قلت: لا أفعل أو تخبرني لم ذاك؟ قال: أجد في

العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث في الحرم، يعاونه على أمره فتى وكهل، فأما الفتى فخواض غمرات ودفاع معضلات (دفاع من دفع أي صد، ويقصد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)، وأما الكهل، فأبيض نحيف، وعلى بطنه شامة (حسنة)، وعلى فخذه اليسرى علامة. وما عليك أن تريني ما سألتك، فقد تكاملت لي فيك الصفة إلا ما خفي على؟! فكشفت له عن بطني فرأى شامة سوداء فوق سرتي. فقال: أنت هو ورب الكعبة. وإني متقدم إليك في أمر فاحذره! قلت: وما هو؟ قال: إياك والميل عن الهدى، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى، وخف الله فيما خولك وأعطاك!".

(أسد الغابة)

وما ملت عن الهدى ساعة من نهار أو ليل يا أبا بكر، ولقد تمسكت بكتاب الله وبسنة رسول الله الذي خلفته على الناس، فما عرفت أنه أتى أمرا إلا أتيته، أو نهى عن شيء أو تركه إلا انتهيت وتركته، وما خفت أحدا فيما تحت يديك من أمور الناس إلا الله الذي أعطاك وخولك!.

فلما بعث محمد رسولا كان أول من آمن به من الذكور فتى هو على، وكهل هو أبو بكر.

وتتراكض الذكريات بعد ذلك.. يا الله كم احتمل رسول الله واحتمل معه أبو بكر من قريش! من سادتها وسفهائها، ومما أنزلت بهما من عذاب غليظ.

ثم أذن الله لرسوله بالهجرة إلى يثرب، فسلكا إليها طريقا غير مألوف ولا معروف، هربا من مطارديهم!

إن صور الهجرة لتمر أمام عيني خياله صورة بعد صورة.. لكم كانت رحلة الهجرة مغامرة مضنية حقا!!

جعلت قريش لمن يأتي بهما مائة ناقة! وهي ثروة عظيمة، فانطلق كثير من الفرسان خلفهما! قال الصديق: خرجنا فأدلجنا (سرنا من أول الليل)، فحثثنا (أسرعنا) يومنا وليلتنا، حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فضربت ببصري هل أرى ظلا نأوي إليه؟ فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها فإذا بقية ظلها، فسويته لرسول الله ❐، وفرشت له فروة، وقلت: اضطجع يا رسول الله، فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى من الطلب (الذين يطلبونهما ويطاردونهما) فإذا أنا براعي غنم، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ (أي لمن ترعى الأغنام)، قال: لرجل من قريش، فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، فأمرته

فاعتقل شاه منها، ثم أمرته فنفض ضرعها، ثم أمرته فنفض كفيه من الغبار ومعي إدواة (بالكسر فالسكون فالفتح: إناء أو قربة على فمها خرقة) ، فحلب لي كثبة (القليل) من اللبن، فصببت على القدح (صب ماء على القدح) حتى برد أسفله، ثم أتيت رسول الله < فوافيته وقد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله. فشرب حتى رضيت، ثم قلت: هل آن الرحيل؟ فارتحلنا، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك على فرس له، فقلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا! قال: (لا تحزن إن الله معنا).

حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة، قلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا! وبكيت. قال: لم تبكي؟! قلت: أما والله، ما على نفسي أبكي ولكني أبكي عليك! قال: فدعا عليه رسول الله < فقال: اللهم اكفنا بما شئت. فساخت (غاصت) قوائم فرسه في الرمال، ووثب عنها وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهما فإنك ستمر على إبلي وغنمي في موضع كذا وكذا، فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله <

لا حاجة لي فيها. فأطلق (بضم فسكون فكسر)، ورجع إلى أصحابه، ومضى رسول الله < وأنا معه، حتى قدمنا المدينة، فتلقاه الناس في الطريق وعلى الأجاجير (جمع إجار: السطح)، واحتشد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله، جاء محمد! وتنازع القوم، أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله < أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب (جده لأبيه)، لأكرمهم بذلك".

وقد جعلت ذكريات أيامهم الأولى بالمدينة تمر به متلاحقة، لقد عمد الرسول حين نزل إلى المدينة إلى موادعة اليهود، وتأمينهم على أموالهم وعقيدتهم، ولكنهم ما لبثوا حتى نقضوا الميثاق! ثم آخى بين المسلمين ليسكن النفوس التي اضطربت والتي غشيها الإحساس بالغربة بعد الهجرة من الوطن.. فآخى الرسول بينه وبين علي.

ثم آخى بين أبي بكر ورجل من الأنصار، ثم بين أبي بكر وعمر!

وأقبل الأنصار على المهاجرين، يواسونهم، ويضيفونهم، ويعلمونهم الزراعة ويزوجونهم النساء، ويؤوونهم في بيوتهم.

ومنذ نزل أبو بكر بيت الأنصاري، آواه، وزوجه ابنته، ثم قام الصديق في دار بضاحية للمدينة اسمها السنح، فلما أقطع الرسول الناس دورا بالمدينة، أقطع أبا بكر الدار التي يقيم فيها، والتي يرقد في إحدى غرفها عليلا على شوك الغضى يتقلب، وقد شحب لونه، وخف وزنه، مهموما بمسئوليته عن رعيته..

وأبو بكر رجل أواه منيب القلب، كما وصفه علي

الذي أحبه حتى لقد ولد له ولد فسماه أبا بكر.

إن الصديق ليعرف أنه لن يملأ الفراغ الذي تركه الرسول.. ولكنه عمل، وثابر، وصبر، وصابر وجد واجتهد، ليكون جديرا بخلافة الرسول، وليصبح حقا وصدقا خليفة رسول الله.

ولقد دخل مكة ضحوة لأداء العمرة بعد البيعة بقليل.. فأتى منزله، فوجد أباه أبا قحافة على باب الدار، مع جلسائه، فلما شاهدوا الصديق مقبلا على أبيه قالوا له: "هذا ابنك".

نزل أبو بكر من على ظهر ناقته دون أن يبركها، وأبوه يتجه نحوه للقائه، فقال له: "يا أبت لا تقم" ثم عانق أباه، وقبل بين عينيه، والشيخ يبكي فرحا بلقاء ابنه الخليفة.

وكانت هذه أول مرة يجد أبو بكر نفسه في مكة بدون محمد، كيف سارت الحياة بدون محمد؟!

كيف احتملها بدون محمد؟!. ثم اقبل عتاب بن أسيد أمير مكة وسهيل بن عمرو وعكرمة وكثيرون من أشراف قريش، فسلموا على الخليفة، عزوه في رسول الله < فجعل أبو بكر يبكي، حتى سقطت حبات دموعه على الأرض!

فقال له أبوه: "يا عتيق، هؤلاء الملأ فأحسن صحبتهم" فقال: "يا أبت، لا حول ولا قوة إلا بالله، طوقت عظيما من الأمر، لا قوة لي به ولا يدان إلا بالله".

ثم دخل فاغتسل، وخرج وتبعه أصحابه، إلى بيت الله الحرام، وكلما قابله أحد عزاه في رسول الله، فيبكي، حتى استلم الركن ثم طاف سبع مرات، وصلى ركعتين في مقام إبراهيم.

ثم جلس قريبا من دار الندوة، فسأل الناس: "هل من أحد يتشكى من ظلامة أو يطلب حقا؟" فأثنى الناس على أميرهم عتاب بن أسيد، فطابت بذلك نفس الصديق.

ولطالما قال للناس: "أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله < يطيق، إن الله

اصطفى محمدا على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني.. ألا إن لي شيطانا يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني!..".

ولقد أخذ أبو بكر في سياسته الناس بكل ما سنه الرسول.. كان الرسول يستشير حتى النساء، فلم يترك أبو بكر هذه السنة، ولم يقصر الشورى على كبار الصحابة.

وكان إذا لم يجد في الكتاب ولا في السنة حكما لما يعرض له، سأل العالمين، فيقول للناس: "عرض علينا أمر هو كذا وكذا فهل عند أحد منكم في هذا الأمر شيء من سنة رسول الله؟".

فإذا أجابه أحد لم يرتض قوله، حتى يشهد آخر بصحة الحديث، ثم يقول: "الحمد الله الذي جعل فينا من يحفظ سنة نبينا".

فإذا لم يجد عند أحد ما يحفظه من حكم السنة في الأمر، جمع له الناس فشاورهم في الأمر وحاورهم.

وكان يوصي عماله وأمراء جنده بأن يشاوروا من معهم من الصحابة ولا يخالفوهم!..

ثم إنه سلك في كل أموره مع الرعية سلوك رسول الله، لا مقلدا متجمدا، بل متبعا بإحسان، ومجتهدا مجددا..

وعى قول الرسول: "ليس منا من لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه" وقوله: "ليس منا من بات شبعان وجاره طاو (أي جوعان)".

وشاهد أبو بكر رسول الله ينفق من أموال الفيء والغنائم على مصالح الأمة، فيعد الجيوش ليحمي الدولة الناشئة، وينفق على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فصنع كما صنع رسول الله، وما أراد أن يصنعه، فأقحم جيوش المسلمين أرض فارس وأرض الروم، ليؤمن بلاده أطماع الدولتين، وما عسى أن تعدوا به على المسلمين. وسلم راية الرسول لفاتح عظيم هو خالد بن الوليد.

ورأى الرسول يولي أمور الدولة أصلح الناس، وينذر بالويل وغضب الله ورسوله من تولى أمر المسلمين، فما أقام أحدا على ولاية لمودة أو قرابة!

سار أبو بكر في سياسة الدولة كما سار الرسول، لم يول أحدا لقرابة أو مودة، وفضل الأصلح للنهوض بالأمر، لا الأتقى أو الأسبق إسلاما.. فجعل خالدا أميرا على أبي عبيدة،

لأنه أدرى منه بالحرب وأحذق، على الرغم من أن أبا عبيدة أتقى منه، وأورع، وأعلم، وأفقه، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمين الأمة، وعلى الرغم من أنه يوم السقيفة رشحه للخلافة..

لقد أحب أن تفيد الأمة من كفاءة الأكفاء فيها، حتى إن لم يكونوا هم الأحسن إسلاما أو الأعمق إيمانا، أو الأشد تقوى، أو الأفقه دينا، وحتى إن كانوا يخطئون.. فخطأ من يخطئ على نفسه، وكفاءته للأمة..

ورأى الرسول يكفل حرية العقيدة إذ وادع اليهود وعاهدهم، في أول أيامه بيثرب بعد الهجرة.. ورأى الرسول قد عاهد نصارى نجران على ضمان حرية العقيدة والعبادة، على ألا يفتنوا عن دينهم، وعلى ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، وعلى أن يكونوا في ذمة الله ورسوله يحميهم المسلمون مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم وعيالهم وأموالهم..

فلما ولي الأمر خليفة رسول الله، التزم العهد، وجدده.. وكتب بينه وبينهم عهدا جاء فيه: "هذا كتاب من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله < لأهل نجران، أجارهم من

جنده ونفسه، وأجاز لهم ذمة محمد إلا ما رجع عنه محمد بأمر الله عز وجل في أرضهم وأرض العرب..".

أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وغائبهم وشاهدهم، وأسقفهم ورهبانهم وبيعهم حيثما وقعت (البيع: أماكن عبادتهم من كنائس وأديرة وصوامع ونحو ذلك)، وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير، عليهم ما عليهم (يعني الجزية)، فإذا أدوه فلا يحشرون ولا يعسرون، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته".

ولقد سمع الله يقول لرسوله: (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)، ورأى كيف أبى الرسول أن يكره أحدا على الإسلام، فسار أبو بكر على النهج نفسه، فكان يأمر بالدعوة إلى الإسلام أول الأمر، والإلحاح في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم بالخيار بين الجزية أو المناجزة.. ولقد فهم الخليفة من رسول الله، ومن اجتهاده أن الجزية على أهل الكتاب إنما تقابل الزكاة عند المسلمين.. فهي تؤدي للدولة لتحقيق المنافع العامة، مقابل حماية الدولة، وقيامها بسد حاجات الناس، وكذلك وضع الخراج على الأرض، وجعله كالزكاة حقا للمال..

ورأى رسول الله قد فصل بعد نصر الله وفتحه المبين بين الرجال والأموال، فجعل الفصل في الرجال لولي الأمر، أي للإمام الأعظم نفسه، له وحده أمر الرجال في القتل أو الاسترقاق والمفاداة، أما الأموال فهي فيء يغنمه المقاتلون، والأمر فيه لأمير الجيش بما قضى الله، أربعة أخماسه للمقاتلين، وخمسه لله ورسوله، للمصالح العامة..

وكل الذي اجتهد أبو بكر فيه، فانتهى إلى أحكام طبقها، إنما استلهم فيها منهج الرسول في استنباط الأحكام التي لم ترد في القرآن، تحرى مصلحة الأمة فيما يأخذ أو ينهى عنه.

ثم أقام العدل لأنه بفطرته النقية يرى أن الظلم شرك مبين، وقد سمع الله يقول: (إن الله يأمر بالعدل والإحسانوإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)..

ولقد وعى حق الوعي ما قاله الرسول: إن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وإن المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا!.

كم من الذكريات تطوف الآن برأس أبي بكر الصديق خليفة رسول الله..

لقد رأى رسول الله يتيح لأمراء السرايا التي يبعثها حرية التصرف، ولا يقيدهم إلا في حدود واسعة من مكارم الأخلاق، وقيم الإسلام.. وهكذا كان الخليفة يوصي الجيوش التي وجهها إلى أهل الردة، وإلى دولة الفرس والروم: "لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا (يقطع رأسها فلا تثمر أبدا) ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله، وستمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..".

وقد ترك لأمراء الفتح أن يعاهدوا أهل البلاد المفتوحة على المبادئ التي سنها رسول الله. واتبعها خليفته مع نصارى نجران..

فجاءت معاهدات الصلح بين المسلمين وأهل الكتاب في البلاد المفتوحة على أساس أن الجزية ضريبة مقابل حماية الأنفس والأموال.. وأنهم في ذمة المسلمين أي في

رعايتهم، فمن آذى واحدا من أهل الذمة برئت منه ذمة الله ورسوله، وباء بغضب من الله ورسوله، لا ينال خيرا.

وكان عمال الخراج والجزية أي الجباة، يكتبون لأهل الذمة براءة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم، براءة لمن كان من كذا وكذا (أسماء البلاد) من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد، وقد قبضت الذي صالحهم عليه، وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد، ما أقررتم بالجزية وكففتم. أمانكم أمان، وصلحكم صلح، نحن لكم على الوفاء".

وكان أهل الذمة يكتبون إذا أدوا الجزية: "إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد العبد الصالح والمسلمون عباد الله الصالحون. على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم".

وكان خالد والمثنى وسائر قواد الفتح في فارس والشام، يصالحون على الجزية مقابل الأمن والحماية، إن أبى أهل البلاد المفتوحة الدخول في الإسلام.

فتنص المعاهدة على الجزية، وتحدد مقدارها وفق ما يقدره أمير الفتح، ويرضاه أهل البلد المفتوح، وتنص على

أنهم يؤدون الجزية مقابل الحماية، والأمن، والسلام.. فهم يعطون الجزية لأمير الجيش، على المنعة، فإذا لم يمنعهم فلا شيء له حتى يمنعهم! وإن غدروا بفعل أو بقول، فالذمة منهم بريئة!".

وتتابعت صور أخرى في خيال الصديق، فابتسم!

ذكر ما قاله الأمير الفارسي الذي كان على الأنبار، واحتشد حلفاؤه من أخلاط عرب العراق، فطالبوه بأن يتركهم وحدهم يقاتلون العرب المسلمين الزاحفين من بلاد العرب بقيادة خالد، وقالوا لحاكمهم الفارسي: "نحن العرب أدرى بالعرب، فاتركنا وحدنا نقاتلهم". وما إن التقى الجمعان حتى ذاق أخلاط عرب العراق شدة بأس العرب المسلمين، فحاولوا أن ينجوا برءوسهم، ولكن خالدا وجنده انقضوا عليهم: فريقا قتلوا، وفريقا يأسرون! ولم ينج إلا قليل، وسبى خالد نساءهم وولدانهم.. فرأى صاحب الأنبار أن يستسلم، لينقذ نفسه وأهله، فاشترط عليه خالد أن يؤمنه وأهله، على أن يتركوا متاعهم وأموالهم وحليهم وجواهرهم غنيمة للمسلمين، فقبل.. فلما أبلغه خالد مأمنه بأهله، لامه قومه، فقال لهم: "إني كنت في قوم من العرب ليست لهم عقول، وقضوا على أنفسهم

حين حاربوا وحدهم، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم!".

وتذكر الصديق ما نقلوه إليه، لما تحالفت فارس والروم على المسلمين بقيادة خالد، ومعهم أخلاط من عرب العراق وعرب الشام.. حاول العدو أن يخدعوا خالدا، واستفزوه ليعبر إليهم الفرات، ولكنه أغراهم بالعبور، فطالبوه بالتقهقر ليعبروا، فألزمهم أن يعبروا أسفل من جيشه، فعبروا فملكهم المسلمون... وخاف قواد الفرس والروم وأخلاط العرب أن يفر جندهم تحت وطأة هجمات خالد الخاطفةالملحة

التي عرفت عنه، فربطوا جنودهم بالحبال، وشدوهم بعضهم إلى بعض، وسيق الجنود إلى جهنم الحرب زمرا، حتى إذا جاءوها، أمر خالد فرسانه أن يحاصروا كل زمرة بالرماح، فكان الفارس يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه، فلا يفلت من الزمرة أحد، فإذا جمعوهم قتلوهم!

وتلك حيلة من العبقرية العسكرية أذهلت الفرس

والروم عن أنفسهم، فلما وجدوا صرعاهم غمروا أديم الأرض، نصحهم أحد حكمائهم أن ينجوا بمن بقي منهم، قبل

أن يفنيهم خالد، وقال: "هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم! واالله لينصرن، واالله لتخذلن!".

والفضل ما شهدت به الأعداء.

فلولا قوة الإيمان لما استطاع جند المسلمين أن يفعلوا بالفرس والروم هذه الأفاعيل، فالمسلمون يعرفون لماذا يحاربون، ومعهم وعد بنصر االله، ولينصرن االله من ينصره.. وهم لا يبالون بكثرة العدو، فقد سمعوا االله يقول: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن االله)، وهم يعرفون أنهم جند االله، قد سمعوا االله يقول: (ألا إن جند االله هم الغالبون) و (إن ينصركم االله فلا غالب لكم).

وهم بعد يعرفون عما يجاهدون، ويعرفون ماذا يريدون.. يعرفون الطريق، ويعرفون إلى أين يمضون.. وقد وعى كل منهم ما نصح به الصديق خالدا: "احرص على الموت توهب لك الحياة".

وهم بعد لا ينسون قول خالد حين استنفرهم لما رأى في بلاد الفرس وفرة الطعام، ولما ذاقوا ما يدره الفيء على كل مقاتل: ألف درهم، ثم ألفا وخمسمائة، ثم السبايا الحسان!.

أمام كل هذه الطيبات من الرزق التي أحلها الله لعباده، أذكى خالد حماسهم ليزدادوا اضطراما: "والله لو لم يلزمنا الجهاد في الله، والدعاء إلى الله عز وجل، ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به!..".

وتذكر الصديق بلالا فجأة!! كانت أمنية بلال أن يجاهد في سبيل الله، لا طمعا في السبايا الحسان، ولا رغبة في المعاش، ولكن حبا الله ورسوله، وتفانيا في عقيدته، وإيمانا بأن الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، في جنة عرضها السماوات والأرض.

ولقد أرسله الصديق إلى الشام مجاهدا في سبيل الله

بكل طاقاته الروحية، التي جعلته يحتمل رمضاء مكة المتوقدة، تشوي برملها الملتهب ظهره العاري، ويحمل أثقالا من الصخور فوق صدره، والسياط تشوي جسده، فلا يذكر اللات والعزى، ولا يستعصم إلا بذكر الله، ولا يقول من خلال لهثاته غير ما يؤمن به: "أحد أحد".

ما كان هناك شيء يغريه، لا فيء، ولا مغانم، ولا سبايا حسان، ولا شيء على الإطلاق من زينة الحياة أو

الطيبات من الرزق، لا شيء يطلبه، ويتحمل في سبيله هذا العذاب الغليظ كله إلا طاعة الله ورسوله، ورضا نفسه الزكية، الورعة التقية!

وبمثل هذا الثراء الروحي الهائل، استغنى المسلمون الأوائل! إذ علموا أنهم فقراء إلى الله، وأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة..

كيف حالك يا بلال اليوم مع بني الأصفر!؟

لابد أن لك في الله بلاء عظيما يا بلال!

وابتسم الصديق حين ذكر بلالا.. إنه يعرف شدة بلال في الحق، وقوته في الدين، ويعرف أنه إلى صفاته هذه يحب المرح من غير هزل..

وتذكر ما حدث من بلال يوما بعد حضوره سباقا للخيل، إذ كان يسرع لأمر أهمه، بعد أن شهد سباق الخيل، فاعترضه رجل في الطريق، واستوقفه يسأله: "يا بلال، من سبق؟" قال: "محمد" وانطلق مسرعا، فعجب الرجل، واستوقفه مرة أخرى، وسأله: "فمن صلى" (أي الثاني)، قال: "أبو بكر" قال الرجل: "أسألك عن الخيل!" قال بلال: "وأنا أحدثك الخير".

* * *

وتذكر أبو بكر أمرا أضحكه.. فلم تكن الحياة جهمة، كما قد يتوهم بعض من خلفوا هذا السلف العظيم! بل كان فيها من المرح ما يجلو صدأ القلوب!

قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: "خرج أبو بكر في تجارة ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكانا شهدا بدرا، ونعيمان على الزاد، فقال سويبط وكان مزاحا: أطعمني، فقال له: حتى يجيء أبو بكر، فقال سويبط: أما والله لأغيظنك! فمروا بقوم، فقال لهم سويبط: أتشترون منى عبدا لي؟ قالوا: نعم. قال: إنه عبد له كلام (ثرثار) وهو قائل لكم: إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا علي عبدي! فقالوا: بل نشتريه منك بعشر قلائص، ثم جاءوا فوضعوا في عنقه حبلا وعمامة واشتروه، فقال لهم نعيمان: إن هذا يستهزئ بكم وإني حر قالوا: قد أخبرنا بخبرك! وانطلقوا به، وجاء أبو بكر فأخبره، فاتبعهم فرد القلائص وأخذه، فلما قدموا على النبي ، أخبروه، فضحك وأصحابه منهما حولا (عاما)".

عندما تذكر أبو بكر هذه النادرة ضحك فيما بينه وبين نفسه.

وومضت في ذاكرته نادرة أخرى قريبة العهد، فابتسم..!

فعندما أوغل خالد والمثنى في أرض الفرس، ونكبوها نكبات فادحة، وغنموا مغانم عظيمة، وسبوا أميرات فارس وبنات بيوتاتها، دمدمت الثورة في الصدور، وتداعى الأمراء، ليخلصوا دولة الفرس من الملك الخائر الذي قاد الدولة إلى هذا الهوان.. وشعر الملك بذلك، فدبر أمرا..

وكان ولي العهد أضمر غدرة، ومن عجب أن ولي العهد غادر!! فقد استطاع أن يصطنع إليه حرس أبيه الملك وكانوا من الساخطين! ووثب ولي العهد على أبيه الملك، فاحتل بجند الحرس قصره الكسروي المنيف، وأحاطوا بالملك نفسه، فأرسل ولي العهد إلى أبيه فاتكا باطشا ليقتله.. فلما أيقن الملك أنه مقتول، أوصى الفاتك العجلان بأن يسلم صندوقا صغيرا كان بجوار عرشه إلى ورثته من الذكور لينتفعوا بما فيه!..

فلما طعن الفاتك الملك طعناته تركه يحتضر، وعجل على الصندوق الصغير، ففتحه في لهفة، فوجد أمامه رقعة مكتوبا عليها: "من ابتلع قرصا من هذا الصندوق استطاع أن يتزوج عشر فتيات عذراوات في ليلة واحدة!".. فازدرد الفاتك قرصا، فهلك من فوره، إذ كان فيه سم يكفى بعضه لقتل جمل!

ونظر القتيل إلى قاتله يسقط أمامه، ويهلك قبله.. وكانت هذه أعجب حيلة من حيل الانتقام دبرها قتيل لقاتله!

* * *

وثب إلى ذهن الخليفة سؤال عما يكون من بعده !! وألح عليه السؤال! لقد تغير الناس، إذ درت عليهم الفتوحات فيئا عظيما، فألف بعضهم لين المقام، وطيب العيش!

إن الصديق ليخشى عليهم وعلى الإسلام من بعده! يخشى أطماعهم في الثراء، ويتوجس من خلودهم إلى المتاع، ويخاف أن يستحبوا الحياة على الموت.

وطاف بخاطره أن بعض هؤلاء الذين كانوا يجلسون على الأرض حتى الأمس القريب لا يبالون بما فيها من

أشواك، أصبحوا اليوم يألمون إن لم يكن البساط الذي يجلسون عليه ناعما كالحرير!!

وذكر رسول الله.. كان مس الحصير يوجع جنبه..

الخليفة يخشى على رعيته تعود الترف! ما عساهم يصنعون من بعده؟! سيقابل ربه وشيكا، فما عسى أن يقول عن هؤلاء القوم من رعيته، الذين اشرأبت أحلامهم إلى متاع الحياة الدنيا..؟!

إن حب المتاع يكاد يمس كل أهل بيت.

إن أبا بكر لا يحرم زينة الدنيا، ولا الطيبات من الرزق التي أحلها الله لعباده، ولكنه يخاف المغالاة! فما عسى أن تؤدي إليه؟!.. كيف إذن سيجاهدون؟! ألم يقل الرسول: "اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم؟!". هكذا يجب أن يكونوا، ليخشاهم العدو، وليجدوا فيهم غلظة!

وفكر في ابنه عبد الرحمن، وهو بر ورع تقي، ومجاهد باسل في سبيل الله.. ولكن امرأة حسناء من بني الأصفر توشك أن تغلبه على أمره!

إن رسول الله هو الذي سماه عبد الرحمن، وكان اسمه عبد العزى، وهو شقيق أم المؤمنين عائشة، وقد أسلم يوم الفتح.

كان قد ذهب إلى الشام من قبل في تجارة، فرأى بنت الجودي أحد أمراء الشام، فبهره جمالها، ووجدها لا تتحرك في ساحة قصرها إلا على بساط ثمين، وفي يديها رمانتان من ذهب تلعب بهما!

كان قصر أبيها كغيره من قصور أمراء الشام، من ذلك الطراز الروماني، يقوم على أعمدة، وليس له سور خارجي يحميه، فكان كل ما في ساحة القصر، ومن فيه مباحا لعيون السائرين في الطريق، متاعا يسر الناظرين.

ولقد تعود عبد الرحمن أن يمتع نظره بليلى بنت الجودي، كلما جاء إلى الشام في تجارة، وما أكثر ما جاء.

فلما أسلم وفتح المسلمون بعض بلاد الشام، وقتلوا الجودي أبا ليلى واستولوا على كثير من الفيء، وسبايا من بني الأصفر شقراوات حسان، أخذوا ليلى بنت الجودي في السبايا!.. وكان بعض المسلمين قد عرفوا أنها شغلت عبد الرحمن، قد شغفته حبا! فسلموها له، ثم قالوا للخليفة:

"يا خليفة رسول الله، أعط هذه الجارية عبد الرحمن فقد سلمناها له!" فسألهم: "أكلكم على هذا الرأي؟" قالوا: "نعم: فلما رأى الخليفة إجماعهم على ذلك وافق..

وأقامت ليلى بنت الجودي ببيت عبد الرحمن، فأسرف في الانقطاع لها، حتى نصحته شقيقته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالاعتدال، قالت: "كنت أكلمه فيها وفيما يصنع بها، فيقول: يا أخية دعيني، فوالله لكأني أترشف من ثناياها حب الرمان!".

ولكنه كان إذا خرج من عند ليلى لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وجدها مقرحة العين من شدة البكاء، فيسألها: "ما يبكيك؟ اختاري خصالا أيها شئت فعلت: إما أن أعتقك وأنكحك (أتزوجك)" فتقول: "لا أشتهيه" (أي الزواج)، فيكمل: "وإن شئت رددتك على قومك: فتقول: "ولا أريد" فيقول: "وإن أحببت رددتك على المسلمين" (أي أعدتك لبيت المال)، فتقول: "ولا أريد". فيسألها: "فما يبكيك؟!" فتقول: "أبكي الملك في يوم البؤس!".

وعبثا حاول عبد الرحمن أن يذهب عنها الحزن بحسن معاملته، وعطفه، ومواساته!! فما من مرة عاد من

الخارج إلا وجدها تبكي وتنشج، فضاق بها، وملها، فهجرها مليا! قالت عائشة: "فكنت أكلمه فيها لينثني إليها كما كنت أكلمه في الإحسان إليها. ثم قلت له: لقد أحببت ليلى فأفرطت، وأبغضتها فأفرطت، فإما أن تنصفها، وإما أن تجهزها إلى أهلها! فجهزها إلى أهلها".

وإذن، فإلى أين يمضي المسلمون إن تعودوا هذا النعيم؟! فالعادة توءم الفطرة والطبيعة!.

ودخل عليه أحد المؤلفة قلوبهم، يعوده في مرضه، فإذا عينا الخليفة تذرفان الدموع إشفاقا على الأمة، فقال الرجل: "يا خليفة رسول الله، ألست كنت أول من أسلم وثاني اثنين في الغار؟! فصدقت هجرتك، وحسنت نصرتك، ووليت فأحسنت صحبتهم، واستعملت خيرهم عليهم؟!" قال أبو بكر: "أحسنًا ما صنعت؟" قال الرجل: "نعم والله". قال: "الله!".. وظل يردد" الله الله".

* * *

نعم، فليحمد الله على ما أولاه، وليشكره على ما هداه، وعلى ما حققه على يديه، وما وفقه إليه!!

أين هم اليوم من الأمس؟!

واجتاز الصديق بعيون البصيرة المسافات والآماد.. فقارن بين حال المسلمين يوم بيعته، وحالهم اليوم بعد نحو عامين وثلاثة أشهر.

أما المسلمون فكانوا قد انفضوا بعد وفاة الرسول، وانقضوا على خليفته، وأصبحوا أحياء متناحرة، فبأسهم بينهم شديد! وها هم أولاء اليوم يشعرون بما لم يشعروا به قط منذ توفي الرسول!! لقد أحسوا بأن العقيدة توحدهم. توحد طريقهم، وتوحد أهدافهم.. شعروا بأن الإسلام يجمعهم بعد فرقة، ويلمهم من شتات! وشعر المسلم في أدنى الأرض بأنه أخ للمسلم في أقصى الأرض، لكأن الإسلام أصبح وطنا يغرس في القلوب الولاء، ويثمر قوة الانتماء!

هذه الأخوة في الله جعلت أبا بكر ينصر فيروز المسلم الفارسي على عرب أهل الردة الثانية في اليمن، فأمد فيروز بالعدة والعديد، حتى هزم المرتدين!!

وهذه الأخوة في الله جعلت بلالا الذي كان عبدا حبشيا قبل الإسلام من أحب الناس إلى أبي بكر، ومن أكرم الناس وأعزهم على العرب المتشامخين بالأحساب والأنساب،

حتى ليقول عمر عن أبي بكر وبلال: "أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا" (أي بلالا).

وهذه الأخوة في الله جعلت لسلمان الفارسي في دولة الإسلام مكانا عليا، ووضعته مع السابقين الأولين في مكان الصدارة بين المسلمين، حتى ليقول عنه علي: "سلمان منا آل البيت" وما قالها لعربي من بني أبيه القرشيين!.

وهذه الأخوة في الله جعلت صهيبا الرومي – وهو من بني الأصفر – إماما يؤم كبار الصحابة، ومنهم الذين بشرهم الرسول بالجنة.

وكان الرسول قد بشر عشرة من الصحابة بالجنة، قال عليه الصلاة والسلام: "أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة".

* * *

فتأمل يا أبا بكر فيما صرتم إليه اليوم، وما كنتم عليه منذ نحو عامين وثلاثة أشهر!! يوم عقدت في مسجد الرسول

لأسامة بن زيد لواء القيادة الذي كان الرسول قد عقده قبل وفاته.

تأمل يا أبا بكر هذه الراية السوداء، التي نسج فيها عقاب كاسر، بخيوط آمال أمهات المهاجرين وزوجاتهموبناتهم،

تأمل العقاب راية الرسول، أين هي الآن هذه الراية؟! وأين كانت منذ نحو عامين وثلاثة أشهر، حين زلزلت الأرض واضطرمت على الإسلام، ولم يعد العقاب يرتفع إلا في سماء المدينة ومكة والطائف!! ولولا بسالة عتاب أمير مكة، ونجدة سهيل بن عمرو وعكرمة لاشرأبت الردة في مكة، ولولا أن أحد أشراف الطائف قاموا بأمر الله حق قيامه، لارتدت ثقيف أيضا، ونكس فيها العقاب!

واليوم ترتفع راية الرسول بعقابها الفتي على آفاق شبه جزيرة العرب جميعا! وتتجاوب أرجاؤها المترامية المتراحبة بأذان الإسلام، ودعوة الإيمان!

ويعلو العقاب فيقتحم سماوات الدولتين: فارس والروم، وترفرف راية محمد على العراق والشام، أعز ما يحكمه الأسدان: فارس والروم!.

حمدا الله يا أبا بكر.. وسيفيض جند الله من بعدك إن شاء الله، يضيئون الظلمات الداجية بنور الإسلام، ويحررون عالمنا هذا يا أبا بكر من ربقة الذل، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان! لكي يعيش الناس كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا، لا يستعبدهم سلطان، ولا تستذلهم حاجة! ولكي ينال العامل أجره قبل أن يجف عرقه، ولكيما تسود بين الناس مبادئ العدل والإحسان كما أمر الله، ويتطهر عالمنا يا أبا بكر من الفحشاء والمنكر والبغي، وكل ما نهى عنه الله!.

لن يحقق هذا إلا جند الله، الذين سيسيحون في أرض الله من بعدك، يدكون حصون الظلم، ويهدمون قلاع الاستبداد، ويصوغون بدمائهم الزكية فجر تحرير الإنسانية، وتصبح الأنسام أرق مما هي الآن، فلا تلتهبها بعد زفرات الأرامل وأنفاس المقهورين.

إنك لتشعر بأنك ملاق ربك عن قريب يا أبا بكر! لقد شفك الحزن على حبيبك وأضناك وأضواك، فما رقأت لك دمعة منذ اختار الله على زهرة الدنيا فاختاره الله!.

إنك لتشعر أيها الصديق أنك عن قريب راحل فملاق ربك، والحبيب!.

ولكن ما يجب أن تترك الناس سدى!! وما ترك الله الناس سدى!! "أم حسب الناس أن يتركوا سدى"؟! لا تنس يا أبا بكر أن تستخلف عليهم أصلحهم وأنهضهم للأمر.. وما كان ربك نسيا، إنها لمسئولية أمام الله.. وسيسألك الله عنها يوم الحساب!.

لا بد أن تستخلف يا خليفة رسول الله.. فليكن خليفتك رجلا ينقذ الناس مما غشيهم من حب الترف والنعيم، بعد أن تخيلوا أن الدنيا أقبلت!.. ويلهم! إنها ما أقبلت بعد!! ما أقبل منها غير القليل، وما أبدت من حسنها وزينتها ولذاتها إلا أقل من القليل!.

فكيف بهم إذا أقبلت بكل لذائذها وألوان المتاع فيها؟! كيف بهم إذا ساحوا في الأرض، فملكوا دولة الروم ودولة كسرى جميعا بمعطياتهما من فاحش الثراء، وجميلات النساء، والجنات، والأنهار، والغياض، والينابيع، والمروج، والجبال المتوجة بخضرة الغابات، وبياض الثلوج؟! كيف بهم إذا أقبل عليهم النعيم من الوديان المزدهرة؟!

لا بد لمن تستخلفه من أن يكون قادرا على رياضة الناس على الصبر والجهاد، وعلى أخذهم بشيء من الزهد في الطيبات، حتى لا ينغمسوا في الترف، فما انغمست أمة في الترف إلا شاع فيها الخمول والفسق، وما شاع الفسق في أمة، إلا أتت على بنيانها من القواعد، فخر أبناؤها في الهاوية، كأنهم يساقطون من السماء إلى قرار سحيق!

ولقد حذر الله تعالى أقواما من الترف، فقال عز وجل: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا).

إن الأمة في حاجة إلى حاكم عادل، فعدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان!.

ولكن.. من أصلح الناس لهذا الأمر يا أبا بكر، من تستخلف بعدك؟ فإذا لقيت الله ورسوله استطعت أن تقول إنك وليت أمر أمتك للأمين؟ إن الأمة في حاجة إلى حاكم قوي من غير عنف، لين من غير ضعف.

من هو؟ لقد أثنى الله على عبد صالح، في تزكيته ليتولى أمر أسرة، فقال على لسان بنت شعيب: "إن خير من استأجرت القوي الأمين!".

فما بال أمر الأمة؟!

لا بد أن يشاور أبو بكر الصحابة في الأمر.. ولكنه يذكر أنه سمع عن هذا شيئا عن رسول الله <. قيل: "يا رسول الله من تؤثر بعدك؟" قال: "إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينا زاهدا في الدنيا، راغبا في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قويا أمينا لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا عليا – وما أراكم فاعلين - تجدوه هاديا مهديا يأخذكم إلى الصراط المستقيم".

صدق رسول الله.. ولكن لا بد لك يا أبا بكر من استشارة الصحابة..

وكأنما أنهكه ما هو فيه من هموم الأمة، واشتغاله بمن يتولاها من بعده، فأصابه إعياء شديد، وأخذ ينهج.

ودخل عليه بعض الصحابة، فقالوا له: "لو أرسلت إلى الطبيب" فقال: "قد رآني!" قالوا: "فما قال لك؟" قال: "إنني أفعل ما أشاء!".

وفهم الناس أنه لن يشفى، ولكنه أشفى!

الفصل الثامن والأخير

الشورى، والعدل، والحرية

"وما كان ربك نسيا"..

لم ينس أبو بكر شيئا قط مما تعلمه من الرسول <، ولم يترك شيئا عرفه منه إلا علمه المسلمين..

ولم يكن متبعا متجمد الاتباع، ولكنه كان مجددا، يحسن التفرقة بين التجديد والابتداع، فأجاب على ما طرحتهالحياة عليه من أسئلة، وما استحدثه الزمن من أقضية، بما كان الرسول عسيا بعمله، حريا باستنباطه.

واجه الجديد مما لم يجد له حكما في الكتاب أو السنة بابتكار المجتهد: فهو أحيانا يشحذ عقول الصحابة ليجمعوا على حكم فيقضي به، أو يستنبط قضاء يتحرى فيه هدف الشريعة: وهو تحقيق المصلحة وتحصيلها..

وأحيانا يقر اجتهاد أحد الصحابة، وبصفة خاصة الفاروق عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وكانا أكثر الصحابة اجتهادا.

وقد تعود الصديق كلما اجتهد برأيه أن يقول: "هذا رأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني، وأستغفر الله".

جاء رجلان من الذين كان الرسول يتألف قلوبهم بالعطاء الكثير، جاءا إلى أبي بكر، فقالا له: "يا خليفة رسول الله عندنا أرض سبخة، ليس فيها كلأ، ولا ينتفع بها، فإن رأيت أن تقطعناها، لعلنا نحرثها أو نزرعها، ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم!".

فقال أبو بكر لمن حوله: "ما رأيكما فيما قالا؟" قالوا: "إن كانت أرضا سبخة لا منفعة بها، فنرى أن تقطعها هذين، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم".

فأقطعهما إياها، وكتب لهما بذلك كتابا، وأشهد عمر، وهو ليس في القوم، فانطلقا إلى عمر ليشهداه، فوجداه يهنأ بعيرا له (هنأ البعير: طلاه بالقطران)، فقالا: "إن أبا بكر أشهدك على ما في هذا الكتاب فهل لنا أن نقرأه عليك، أو تقرأ؟" قال: "أنا على الحال التي تريانى، فإن شئتما فاقرءا، وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ فأقرأ" قالا: "لا، بل نقرأ". فقرآه.

فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما، ثم تفل عليه، فمحاه! فتذمرا، وقالا له مقالة سيئة. فقال لهما: "إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ذليل وإن الله عز وجل قد أعز الإسلام. اذهبا فاعملا، وأجهدا جهدكما، لا رعى الله جهدكما إن رغبتما!" (أي عن العمل)".

فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمران، فقالا يستفزانه: "والله ما ندري من الخليفة أنت أم عمر؟!" قال: "بل هو لو كان شاء!".

فجاء عمر وهو مغضب، حتى وقف على أبي بكر، فقال: "يا خليفة رسول الله، أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين! أأرض هي لك خاصة أم بين المسلمين عامة؟!" قال: "بل هي للمسلمين عامة". قال: "فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين؟!" قال: "استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا علي بذلك!" قال: "فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك، أفكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضا؟!" قال أبو بكر: "قد قلت لك إنك أقوى على هذا الأمر مني، لكنك غلبتني!".

وأقره الصديق على اجتهاده هذا، ولم يعد يفضل المؤلفة قلوبهم في العطاء أو الفيء أو المغانم، بل سوى بين الجميع، ذلك أن الزمان تغير، ولم تعد هناك علة أو حكمة لامتياز هؤلاء المؤلفة قلوبهم، فقد أعز الله الإسلام، فلم يعد في حاجة إليهم، بل أصبحوا هم أصحاب حاجة إلى الإسلام!.

ومن ذلك أنه لما أرسل خالد يسأله هما يصنع بأهل قرية في شمال الجزيرة يفعلون فعل قوم لوط، اجتهد علي فأفتى بأن يحرقوا كقوم لوط، فأقر اجتهاده وأمر خالدا بتحريقهم.

ومن اجتهاد الصديق، أنه لما قبض النبي < سمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن، وضربن بالدفوف فرحا، فأنشد رجل منهم جائرا بالشكوى:

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته
أن البغايا رمن أي مرام!
أظهرن من موت النبي شماتة
وخضبن أيديهن بالعلام
فاقطع، هديت أكفهن بصارم
كالبرق أومض من متون غمام

(العلام: الحناء)

فكتب أبو بكر إلى عامله، فأخذهن، وقطع أيديهن.

ومن اجتهاده أن أحد أمراء جيوشه، وجد في بعض أحياء العرب نساء ورجالا من زعماء الردة يحيطون بنساء يرقصن!. وغنت إحداهن بشتم رسول الله < فقام المهاجر بن أمية أمير تلك النواحي، فقطع يدها ونزع ثنيتها، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين، فقطع أميرها يدها ونزع ثنيتها، فكتب أبو بكر:

"بلغني الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بشتم النبي <، فلولا ما سبقتني إليه لأمرتك بقتلها، لأن حد الأنبياء (أي العقاب على شتم الأنبياء) ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم أو مرتد أو معاهد (ذمي) فهو محارب غادر، أما التي تغنت بهجاء المسلمين، فإن كانت ممن يدعي الإسلام، فأدب وتعزير دون المثلة (دون تشويهما)، وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا (أي لو كنت أمرتك بما أوقعت من عقوبة) لبلغت مكروها، فاقبل الدعة، وإياك والمثلة (تشويه الجسم)، فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص".

ومن اجتهاد الصديق قوله: إن الغنيمة لا تضاف إلى الغانمين إضافة الملك، ولكن لهم في الغنيمة حقا ليس لغيرهم ممن لم يحاربوا، من أجل ذلك أصبح للإمام الأعظم وهو ولي الأمر أن يرتب الغنائم، ويقدم أمرا على أمر، ويفضل أحد الغانمين على آخر، ولقد أمر الصديق أمراء جيوشه أن يفضلوا من الغانمين أولئك الذين أبلوا في الحرب بلاء حسنا، وأن يقدموا المجاهدين بقدر بذلهم وبلائهم..

ولقد آثر هو رجلا أرسله إليه خالد، مبشرا بفتح مبين، ونصر عظيم على الفرس، في معركة مضنية، كان النصر فيها يبدو مستحيلا.. فلما أن جاءه البشير بالفتح، ومعه الغنائم والسبايا، أهداه جارية من أجمل السبي..

وحين أرسل إليه خالد في خمس الغنائم طيلسانا فارسيا ثمينا، آثر الخليفة الحسن بن علي بهذا الطيلسان، لأنه سمع من عمر قول الرسول: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة"، ولأن أبا بكر نفسه عرف محبة الرسول لسبطيه الكريمين، ولأنه سمعه يدعو الناس إلى حبهما، ويحذرهم الإساءة إليهما.

والصديق يعرف أن فاطمة وعليا وأبناءهما هم أحب الناس للرسول.. وهو يعرف ذلك بحكم صلته الحميمة بالرسول، وهي صلة لم تتح لأي صحابي آخر.. ولقد سمع النبي يوصي في مرض موته بأهل بيته..

ولقد شاهد أبو بكر والصحابة جميعا رسول الله يقف عند غدير اسمه غدير خم في طريق عودته صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، فيجمع الصحابة، ثم يقول لهم: "ألست أولى بكم من أنفسكم؟" ويكررها ثلاثا، وهم يقولون: "بلى يا رسول الله". فيرفع عليه الصلاة والسلام يد علي بن أبي طالب، ويقول: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار". (الإمام أحمد والترمذي والنسائي).

سمع الصديق هذا بأذنيه، ورآه بعينيه، فأقبل هو وعمر إلى علي فقالا له: "أصبحت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة!"..

من أجل ذلك خص أبو بكر وعمر عليا بتقدير خاص، فلما قيل لعمر: "إنك تصنع لعلي شيئا لا تصنعه بأحد من أصحاب النبي !" قال: "إنه مولاي".

وقد سمع الصديق قوله تعالى في علي بن أبي طالب ثناء عليه: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) وسمع قوله تعالى في أهل البيت ومنهم علي: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)..

- الصواعق المحرقة لابن حجر -

فما الظن برجل رباه الرسول، وكرم الله وجهه فلم يسجد لصنم، ويريد الله أن يذهب عنه الرجس هو وامرأته وذريته، ويطهرهم تطهيرا؟!

وقد سمع الصديق قول الله يوصي بآل البيت: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى).

- الصواعق المحرقة لابن حجر -

وأبو بكر يعي جيدا يوم جمع النبي إليه فاطمة وعليا وبنيهما، فألقى عليهم بردته الشريفة فكساهم بها قائلا: "هؤلاء هم أبنائي" وذلك لما سمع الله تعالى يقول: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين). فلا دليل أقوى من هذا على فضل أصحاب الكساء فاطمة وعلي وأولادهما (تفسير الكشاف للزمخشري).

وقد سمع أبو بكر الرسول يقول: "استوصوا بأهل بيتي خيرا، فإني أخاصمكم عنهم غدا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار" وسمعه يقول: "من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهدا" (الصواعق المحرقة وابن سعد).

ولكم قال أبو بكر للناس: "أيها الناس ارقبوا محمدا في آل بيته" (أي احفظوه فلا تؤذوهم – البخاري).

وأبو بكر يذكر يوم خرج النبي إلى غزوة تبوك، فاستخلف عليا على المدينة، فقال علي: "أتخلفني في الصبيان والنساء؟" وما كان أحد يطرب وينشط للجهاد في سبيل الله مثل علي، وكان أشجعهم، وأوفقهم في الحرب، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدى".

وغزوة تبوك هذه، هي غزوة العسرة التي جهزها وأنفق عليها ذو النورين: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأبو بكر يعرف مكانة فاطمة عند أبيها رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: "فاطمة بضعة منى يسرني ما يسرها" ووصفها بأنها سيدة نساء المؤمنين، وقال لها مواسيا لما اشتكت له شظف عيشها: "أما يرضيك أني زوجتك سيد العرب؟" يعني عليا.

والصديق لا ينسى يوم خيبر، وما كان فيه بين النبي وعلي.

وكان علي تخلف عن النبي في غزوة خيبر، إذ كان به رمد في عينيه. فقال علي: "أأنا أتخلف عن رسول الله < !".

فخرج علي فلحق بالنبي. فلما كان في الليلة التي فتح خيبر في صباحها، قال رسول الله: "لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه". فتطلع الصحابة، وغدوا كلهم يرجو أن يعطى الراية. وفي الصباح سأل رسول الله: "أين علي؟" فقالوا: "هذا علي" فأعطاه رسول الله الراية، فقال علي: "نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا (أي مسلمين)" فقال صلى الله عليه وسلم: "على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدى بك رجل واحد

خير لك من حمر النعم". (حمر النعم: إبل عظيمة حمراء اللون وهي أنفس ما عند العرب).

واتبع الصديق هذه السنة، وتشدد فيها، وشدد على التزامها، ألا يبدأ بحرب، وإذا نزل جند المسلمين بساحة قوم غير مسلمين، فليدعهم قائد المسلمين إلى الإسلام، ويجتهد في أن يهديهم إلى دين الله.

وما بدأ أبو بكر القتال معتديا قط، فحروب الردة كلها كانت دفاعا عن الإسلام، وعن المسلمين، وعن المدينةوأهلها، إذ جعل أهل الردة كل همهم قتل المسلمين، والزحفعلى المدينة للفتك بأهلها، ثم انطلقوا يعيثون في الأرضفسادا، فما كان في وسع الصديق أن يدعهم حتى يقتلواالمسلمين جميعا، ويهدموا الإسلام، أو يعبثوا به، أو يقوضوا أحد أركانه الركينة، بعد أن أظهروا في الأرض الفساد، وأهدروا حقوق الفقراء والمستضعفين.

وما كان له أن يدعهم وهم يهدمون أساسا من الأسس الخمسة التي بني عليها الإسلام.. وهو الأساس الذي يكفل التراحم والتكافل بين الناس: ذلك هو إيتاء الزكاة..

وما جاهد أبو بكر الفرس والروم، إلا لأنهم حرضوا ما يجاورهم من أحياء العرب على الردة وقتل المسلمين، وأغروهم بالوثوب على المدينة، وهدم الإسلام..

وما حارب أبو بكر الفرس والروم، إلا ليحمي دولة الإسلام في شبه الجزيرة من غدراتهم، وعدوانهم المتكرر، وما أسروه وأعلنوه من الكيد للعرب المسلمين.. فكان جهاده الفرس والروم فتحا، حقق رسالة الإسلام في العدل والتحرير والإخاء، وحمى المستضعفين من القهر، وسوء الاستغلال، وذل الاستعباد.

وأبو بكر يفقه حكمة الجهاد كما تلقاها من سلفه العظيم نبي هذه الأمة، وسيد المرسلين..

وقد حفظ أبو بكر القرآن كله في حياة الرسول، وهو ما لم يتح لغيره من الصحابة!! إلا علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وخزيمة الأنصاري، وابن عباس، ثم عدد قليل جدا من كبار الصحابة، ظلوا أحياء بعد حروب الردة.. وكانوا لا يبلغون عشرة رجال، رضي الله عنهم جميعا، من استشهد ومن بقوا أحياء.

وقد حفظ الصديق فيما حفظ من القرآن، وفقه فيما تلقى عن الرسول، ما أنزله الله تعالى في القتال، واعظا للمسلمين ألا يعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين.

تعلم أبو بكر رضي الله عنه أن هدف القتال هو الدفاع عن النفس عند العدوان، والدفاع عن الدعوة في وجه أعداء حرية العقيدة، الذين يصدون عن سبيل الله، ويقهرون بسطوتهم الدعاة، فلا يمكنهم من إبلاغ دعوتهم بغيا وطغيانا وعدوانا، والذين يعذبون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم.

تلقى أبو بكر إذن من الرسول أن الله شرع القتال للمسلمين، وفرض عليهم الجهاد بأنفسهم وأموالهم، دفاعا عن النفس، ودفاعا عن حرية العقيدة، وكلا الهدفين أشرف ما يجاهد في سبيله الإنسان حتى يستشهد.

وكان أول ما سمعه أبو بكر عن القتال قول الله تعالى في سورة الحج: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز* الذين إن

مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور).

فقاد رسول الله أولئك الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، وهزم بهم ظالميهم في غزوة بدر.

كما سمع أبو بكر قول الله الذي أنزله في سورة البقرة: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين* فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم* وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين* الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين).

كما فقه الصديق عن الرسول ما قاله تعالى في سورة الأنفال: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن

انتهوا فإن الله بما يعملون بصير* وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير).

وقوله تعالى في سورة النساء: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا).

كما فقه الصديق ما تلقاه عن الرسول من قول الله تعالى عن السلام في سورة الأنفال: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم* وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين* وألف بين قلوبهم).

وقوله تعالى في سورة التوبة عن مسئولية المسلمين حين ينقض حلفاؤهم ميثاقهم غدرا ومكرا وكيدا: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر لعلهم ينتهون* ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من

الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين).

كما وعى الصديق ما تلقاه عن الرسول مما أوحي إليه في سورة الممتحنة: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكمفي الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين* إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون).

* * *

كان الصديق عندما يريد أن يوقع العقوبة يبحث عن مخرج للمتهم أول الأمر، فإذا لم يجد طبق عليه الحد. ذلك أنه كان يتأسى بالرسول في كل ما يأخذ وما يدع.. وقد وعى الحكمة من قوله ادرءوا (ادفعوا) الحدود (العقوبات) عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة".

وهكذا كان خليفة رسول الله يبحث عن مخرج للمخطئ، متحريا ألا يصاب بريء بأذى، مقررا مبدأ عظيما:

هو أن عقاب البريء شر من إفلات المذنب.. وفي ذلك الوقت نفسه، كان كل من القانون الروماني الذي يطبقه الروم، والقوانين المجوسية التي يطبقها الفرس تنزل العقاب بمن يشتبه فيه خلال تحري الحقيقة.. وويل للمشبوه!! كان المتهم يعذب بالنار، وبآلات التعذيب الجهنمية.. ولم يكن هذا عقابا على جرم ثبت عليه بل بعض إجراءات التحقيق ليعترف!.. كان أسلوب التحقيق هو العذاب، فكيف بالعقاب!..

من أجل ذلك طمحت آمال أولئك المعذبين المقهورين إلى رحمة الله وعدله.. ولقد كان إمبراطور الروم يعذب نصارى مثله، لأنهم يخالفون مذهبه في طبيعة السيد المسيح، في الشرك بالله الواحد الأحد وجعله ثلاثة، وكذلك كان الفرس يعذبون من يعبد النار، وكان كهنة الروم والفرس أفسد الناس خلقا، وأحرص الناس على الحياة، وأبخلهم بالمال، وأشد الحاكمين بغيا واستبدادا وعتوا في الأرض، وكان يقهرون الناس على أن يجعلوا من الملك ممثلا الله في الأرض!

أما دعاة الإسلام، فكانوا أكثر الناس رفقا بالناس، وأحرصهم على هداية الآخرين، وكانوا ورعين متقين،

اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وكانوا ينشرون مبادئ غريبة على الإنسانية حينئذ، ويحملون معهم موازين أخرى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) و (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)، و (إنما المؤمنون إخوة)، و (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)..

فدخل الناس في دين الله أفواجا، لينعموا بالأخوة الإنسانية، وليحققوا من خلال الإسلام حلم العدالة، والمساواة، وحرية العقيدة، وحرية الفكر، وليستمتعوا بهذه الموازين الجديدة للتفاضل بين الناس: العمل والتقوى!

ولقد حرص أبو بكر كلما بحث عن حديث شريف أن يجمع الصحابة ويسألهم، ثم لا يقبل الحديث من صحابي واحد مهما تكن أمانته حتى يوافقه صحابي آخر.

فما يتفق عليه الصحابة يصبح ملزما، فهو إجماع له قوة لا يحق لأحد أن يخرج عنه..

وقد كان لاختلاف الآراء في الفتيا أسباب: أولها هو اختلاف الصحابة في فهم القرآن.. أن يحتمل اللفظ معنيين، كما في قوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة

قروء).. فالقرء يعني الحيضة، ويعني الطهر. وهذا وارد في الأحوال الشخصية ومن هذا الخلاف تشعبت المذاهب.

كما اختلفت الفتاوى بسبب السنة، فبعض السنة كان يأتيه النبي من قول أو فعل أمام الكافة، وهذا لا خلاف عليه، ومن السنة ما يشهد عليها صحابي واحد أو اثنان.. ومن هنا نشأ الخلاف.

كما أن من أسباب اختلاف الفتوى اختلاف الصحابة في الرأي، وكان الرأي هو طريقهم الوحيد لاستنباط حكم لا يجدونه في الكتاب ولا السنة، وكان الاجتهاد بالرأي يعتمد على القياس، أو تحري المصلحة وروح التشريع، وفي ذلك يختلف التقدير.

والصديق يعرف أن عليا كان ألصق الصحابة بالرسول، فهو أفقههم لروح التشريع، كما أن أكثر الصحابة تحريا وفهما لمقاصد الشريعة، هما: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب.

فكان لرأي كل منهما عند الصديق وزن خاص، مهما يكن مخالفا لرأيه، وكانت آراء علي أدنى لرأى الصديق.. فهو الذي وافقه على أن يحارب أهل الردة، ويقاتل الذين

لا يؤتون الزكاة.. وهو الذي أقره على التسوية في القسمة، فالسبق للإسلام جزاؤه على الله، أما المال فهو معاش والمساواة فيه أفضل، بينما كان عمر يرفض التسوية بين من قاتل رسول الله، ومن قاتل معه.. ثم إن الفاروق هو الذي ظل يحاور الصديق أبا بكر، حتى شرح الله صدره لجمع القرآن.. وهو عمل عظيم، أثنى عليه على أطيب الثناء.

وما بال أبي بكر لا يؤثر عليا وينزله من نفسه مكانا عليا، ورسول الله قد أوصى المسلمين بآل بيته، فقال: "إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموها: كتاب الله وأهل بيتي عترتي". ومن أجدر من أبي بكر بأن يأخذ ما آتاه الرسول؟! كذلك ما بال علي لا يرعى وقار أبي بكر، وهو أعلم بمكانه عند الرسول، وأدرى بما صنعه لإنقاذ الإسلام، وجمع كلمة المسلمين؟! ثم إن عليا ليعلم أن الرسول قال: "يا أيها الناس احفظوني في أبي بكر فإنه لم يسئني منذ صحبني" وقال: "لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا..".

ومن أطوع للرسول من علي؟!

وقد ألف علي أن يقول كلما حادثه أحد بني عبد مناف في بيعته الصديق: "إن رسول الله < لم يمت فجأة، بل مكث في مرضه أياما وليالي يأتيه بلال يؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر ليصلي بالناس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر، فأبى وغضب، وقال لها: "أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس" فلما قبض رسول الله نظرنا في أمورنا، فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله لديننا، فأديت إلىأبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب – بين يديه - الحدود بسوطي".

سئلت عائشة رضي الله عنها: "من كان أحب الناس إلى النبي < قالت: "فاطمة" قالوا: "من الرجال؟" قالت: "زوجها" تعنى عليا..

على أن أصحاب النفوس الكبار والقلوب الذكية لم يعرفوا الخلاف في هذا ولا المقارنة بين موقع كل من فاطمة وعائشة وعلي وأبي بكر، رضي الله عنهم، في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد امتلأت النفوس الكبار حينئذ بحب الله، ورسول الله، وآل بيته، وصحابته، وعمرت القلوب بحب الحقيقية والعدل والإحسان، حتى لقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: "لا يجتمع في قلب مؤمن بغض أبي بكر وعمر وحبي".

تلك أمة قد خلت!..

قال النبي لعلي عن أبي بكر وعمر: "سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين". (أحمد والترمذي).

وقد سمعه علي يقول: "رحم الله أبا بكر: زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالا من ماله، وما نفعني في الإسلام مال ما نفعني مال أبي بكر. رحم الله عمر: يقول الحق وإن كان مرا، لقد تركه الحق وما له من صديق، رحم الله عثمان: تستحيي منه الملائكة، وجهز جيش العسرة، وزاد في مسجدنا حتى وسعنا. رحم الله عليا، اللهم أدر الحق معه حيث دار" (الترمذي).

وقد سئل محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي وابن فاطمة، وهو أبو الإمام جعفر الصادق وإمامه وشيخه.

سئل الإمام محمد الباقر عن حلية السيف، قال: "لا بأس به، قد حلى أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيفه". قيل له: "أتقول الصديق؟!" فوثب قائلا: "نعم، الصديق، نعم الصديق! فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله قوله في الدنيا والآخرة!" (ابن الجوزي في صفوة الصفوة).

وقال الإمام جعفر الصادق: "ما أرجو من شفاعة علي شيئا إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله، فقد ولدني مرتين (ابن الجوزي)" فجده جعفر الصادق لأبيه الإمام علي كرم الله وجهه، وجده لأمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأم أمه أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وهذا معنى قوله عن أبي بكر: ولدني مرتين.

لقد كان الناس في تلك الأيام المضيئة بالإيمان، العبقة بمكارم الأخلاق يعرف بعضهم فضل بعض، ويؤثرون على

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويستبقون الخيرات.. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت! ووارحمتا لمن تبعهم بغير إحسان!!

تقدم زيد بن ثابت إلى بغلته ليركب، فأخذ ابن عباس بركابه، فقال زيد: "خل عنك يا بن رسول الله" فقال ابن عباس: "هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا" لأنه كان يتلقى عنه العلم. فقبل زيد يده، وقال: "هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا " وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت!

وزعم بعض الناس أن عند علي بن أبي طالب وبني هاشم كتابا تركه الرسول مع كتاب الله، فقام على في الناس فقال: "ما عندنا كتاب يقرأ إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة" ونشر الصحيفة، فإذا فيها أسنان الإبل، وإذا فيها "المدينة حرم من مكان كذا إلى كذا فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا" (الصرف: التوبة، والعدل: الفدية) وإذا فيها: "ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما (نقض عهده وغدر به) فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا" (البخاري).

وقال علي: "كنت إذا سمعت من رسول الله < حديثا نفعني الله بما شاء أن ينفعني به، وكان إذا حدثني غيره استحلفته، فإذا حلف صدقته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، قال: "سمعت رسول الله < يقول: ما من عبد مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له".

ولكن الصحابة ربما اختلفوا في اجتهادهم، وكان أكثرهم فتيا علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود.

وكان مما اجتهد فيه الصديق ألا يورث الإخوة مع الجد، وخالفه في ذلك عمر، فقد جعل أبو بكر الجد أبا، والإخوة لا ترث مع الأب، ولم يجعله عمر كذلك فورث الإخوة معه، ووافقه زيد بن ثابت.

كما اختلفوا في بعض مسائل الطلاق والعدة..

واختلفوا حول الزكاة، أهي حق على المال، أم هي كغيرها من العبادات وأركان الإسلام واجب على الشخص المكلف؟

فرأى عدد من الصحابة أن مال اليتيم ليس عليه زكاة، فاليتامى أولى بالرعاية والمواساة، وإن كانوا أغنياء!

ورأى علي غير ذلك، رأى أن تحصل الزكاة من أموال اليتيم، لأن الزكاة حق على المال وحده.. والله تعالى حين أوجب الزكاة على المال، ترك لرسوله تحديد قدر المال الذي تجب عليه الزكاة، وتحديد قدر المال الذي يزكى به.. واكتفى القرآن ببيان من تؤدي إليه الصدقات (أموال الزكاة) فقال تعالى في سورة التوبة: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) فهذه مصارف حددها الله تعالى بعلمه وحكمته.

وقد تحرى علي بن أبي طالب العلة والحكمة من فرض الزكاة، فوجدها تزكية للمال، ثم إنها تضييق لما بين الأغنياء والفقراء من هوة تباعد بينهما، وتثير الحقد، وتفسد الحياة جميعا، وتجعل الإخاء الذي نادى الإسلام به مستحيل التحقيق! وهي بعد طاقة مالية ومكنة تتيح لولي الأمر تحقيق المصالح العامة للأمة، وبغيرها لا يمكن سد حاجة، أو تحصيل فائدة عامة.. وهذه الفائدة أرادها الله تعالى بنصه على إنفاق الصدقات على فئات من الأمة، وفي سبيل الله..

فالأمر كله يتعلق بالمال تحصيلا وتحقيقا للصالح العام.. ومال أبو بكر لرأي علي.

* * *

جاءت إلى أبي بكر جدة تلتمس ميراث أحد أحفادها، فقال لها الصديق: "ما أجد لك في كتاب الله شيئا، وما علمت أن رسول الله < ذكر لك شيئا". ثم سأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: "سمعت رسول الله يعطيها السدس". قال: "هل معك أحد؟" فشهد محمد بن سلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر، وأعطاها السدس.

رأى الصديق أن أقرب الناس إلى الرسول لا يحدثون عنه كثيرا، فالصديق نفسه وعمر وعلي، وهم أدنى الناسإلى النبي، وألصق الخلق به، وأكرمهم عليه، وأحبهم له وأعزهم لديه، لم يبلغ جميع ما تحدث به ثلاثتهم عن الرسول عشر معشار ما تحدث به صحابه آخرون لم يكن حظ الواحد منهم من الصحبة مثل أولئك الثلاثة البررة مجتمعين.

وكان الخلاف قد بدأ يظهر في نصوص الحديث، فأدرك الصديق ما لهذا كله من خطر، من أجل ذلك جمع الناس، فقال: "إنكم تحدثون عن رسول الله < أحاديث

تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله، وحرموا حرامه".

ولقد حرص الصديق على أن يعلم الناس كل ما يجب عليهم علمه، لتهذيب عقولهم، وتثقيف قلوبهم، وليصلحوادينهم ودنياهم، فلم يترك شيئا علمه من الرسول، إلا علمه سواه.. حتى سيرة الناس في أموالهم الخاصة!

فقد تعلم من الرسول قول الله تعالى: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)، وقوله تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا).. فقام في الناس، لما حسبوا أن الدنيا قد أقبلت عليهم، يعلمهم القصد بين التبذير والتقتير، وأن خير الناس من اعتدل بين الإسراف والبخل، وكان بين ذلك قواما. ثم قال: "إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم!".

* * *

على أن هناك ما لم يستطيع أبو بكر الاجتهاد فيه، بل ألزم نفسه ما سمعه وتعلمه من سلفه العظيم، وذلك هو تفسير القرآن الكريم.. فلم يكن هناك أهيب لما لا يعلم من

أبي بكر، أما الذي يعلمه فقد كان يرى أنه مطالب بأن ينفع الناس..

من ذلك أنه قال يوما لصحابه: "ما تقولون في هاتين الآيتين: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) و (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)؟

قال أصحابه: "(قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة". قال: "لقد حملتموها على غير المحمل". ثم قال: (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فلم يلتفتوا إلى إله غيره، ولم يلبسوا إيمانهم بشرك. إن الشرك لظلم عظيم".

وسئل عن معنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم). فقال رضي الله عنه: "إن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها، ألا وإني سمعت رسول الله يقول: إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، ورأوا المنكر فلم يغيروه، عمهم الله بعقابه".

سار أبو بكر على هذه السنة، فهو منذ ولي أمر المسلمين، لا يسكت على ظلم أو منكر، أو ما لا يرضى عنه من جلائل الأمور وصغارها، بل مضى إلى أبعد من ذلك

تحرزا لدين المسلمين، ونهوضا بمسئوليته راعيا مسئولا عن الرعية، وإماما مؤدبا.. وما كان يبالي على أي عبد من عباد الله، مهما يعل قدره، شاهد ما لا يرضاه فيمضي إليه ليعظه..

من ذلك أن الفيء والغنائم لما كثرت، وفيها حلل فاخرة كانت للثريات من نساء العجم والروم، وزع تلك الحلل

على نساء المدينة وفيهن أمهات المؤمنين، أزواج النبي رضي الله عنهن، وكان يوزع على السواء، بلا تفرقة بين أدنى امرأة من نساء المدينة، وأزكى واحدة من أمهات المؤمنين.

ونال عائشة رضي الله عنها ثوب من الديباج الموشى، طويل لا عهد لنساء المدينة به.. وكانت الأميرة من أميرات الفرس أو الروم تلبس مثله فتختال به، وتجرجر أذيالها، لا مندوحة لها عن ذلك، ولا حيلة فيه!.. قالت عائشة تصف ما كان منها ومن الخليفة في أمر هذه الثياب.. قالت "لبست ثيابي، فطفقت أنظر إلى ثيابي وذيلي، فدخل أبو بكر فقال: "يا عائشة، أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن؟!" قلت: "ومم ذاك؟!" قال: "أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق هذه الزينة؟!"

قالت: "فنزعته فتصدقت به" فقال أبو بكر" عسى الله أن يكفر عنك!".

هكذا كان الصديق، مؤدبا وراعيا وإمام هدى، زاهدا في الدنيا، وراغبا في الآخرة، لا يفتأ يعلم الناس ذلك.

وكان الناس يسألونه في القرآن فيصحح بعض المفاهيم، ويعلم الناس بما تعلمه وتلقاه عن النبي ولكنه لا يقول على الله ما لم يسمعه من رسول الله.

فكان لا يفسر ما تشابه من الآيات، وهي الآيات التي لم يسمع لها تفسيرا من النبي كالحروف في أوائل بعض السور مثل "الم"، و "الر"، وما إلى ذلك، فلم يشرحها الرسول له، وهي مما اختص الله تعلى بعلمه، فإذا سأل أحد عنها لم يجبه أبو بكر، ولكن عمر كان يزجر هذا السائل في عنف، وربما ضربه، قائلا له: "وما عليك ألا تعلمها؟! إنما تسأل عن المتشابه ابتغاء الفتنة!".

سئل أبو بكر عن شيء من ذلك المتشابه، فقال: "أي سماء تظلني؟! وأي أرض تقلني!؟ وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى!؟".

إن الرسول لم يشرح له القرآن كله، حتى غير المتشابه من الآيات المحكمات..

وأبو بكر يعلم أن عليا قد نشأ في أحضان النبوة، وتعهده الرسول طفلا، فيافعا، فشابا، وزوجه ابنته، وآتاه من علمه.

وكان يعلم أن عليا أفقه الصحابة بالقرآن، فكان يحيل عليه السائلين، ليفسر لهم ما يتحرج هو من تفسيره..

ومن الحق أن عليا كرم الله وجهه كان صدر المفسرين، يليه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وكان علي يقول عن ابن عباس: "كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق!".

وكان ابن عباس مرجعا للصحابة في التفسير، وكانوا يسمونه حبر الأمة، وهو مع ذلك تلميذ للإمام علي.. قال ابن عباس: "ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب". (القرطبي).

أبو بكر الصديق يعرف أن عليا صديق مثله، وإن من بني هاشم لمن يطلقون عليه: الصديق الأكبر، فعلي أول

من آمن بالنبي من الذكور، وهو بعد فتى صغير، أما أبو بكر الصديق فهو أول من آمن بالنبي من الكبار.

وكلا الصديقين الصديقين جعل لصاحبه في قلبه مكانا عليا، وأولاه كل حبه، وكان به حفيا..

وعلى الرغم من أن أبا بكر كان يكبر عليا بنحو ثلاثين عاما، أي أن عليا كان في سن ابنه أو أصغر، فقد حرص أبو بكر الصديق على أن يستشير عليا، ذلك أنه رأى النبي يشاور عليا معه ومع عمر، وعلي شاب في عنفوان شبابه وأوج فتوته، فتعود أبو بكر أن يستشيره يبتغي حدة ذهنه، ويستخرج كنوز حكمته..

ولقد سمعه مرة يعظ الناس في المسجد، فشجعه على ذلك، وأعجبه حسن نظره في الأمور، على الرغم من حداثة سنه، وكان أبو بكر يخشى على المسلمين أن يتوارثوا عداوة الجاهلية، وكان يقول: "العداوة تتوارث" كما قال الشاعر:

سن العداوة آباء لنا سلفوا

فلن تبيد وللآباء أبناء

وأبو بكر ما زال يكابد الإشفاق على المسلمين من إقبالهم على الترف، بعد أن تدفقت الأموال والغنائم والسبايا

الحسان من البلاد المفتوحة، وإنه ليفكر الليل والنهار فيمن يخلفه، فسيتنقذ الناس مما عسى أن يترفوا فيه!

وإنه ليفكر فيمن يسوس الأمة على سنة الرسول من بعده، إذ تجاوبت أعماقه بحكم بليغة سمعها من علي بن أبي طالب، فتمنى لو ظل على يعظ الناس، ويؤدبهم بهذا الأدب الذي أدبه به النبي الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه.

ليت أبا الحسن يظل يفعل كما يفعل الآن يبصر الناس بحقائق الحياة والموت، وفضائل الاستغناء بالله، قبل أن يهلكهم الطموح إلى الغنى..

وتذكر كلمات جليلة سمعها من علي هو يعظ الناس، وتمنى على الله أن يقوي عليا فيستمر على نهج بلاغته وحكمته، ويعمر القلوب بما تلقاه من علم.

وكان علي كرم الله وجهه يوقر الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعززهما ويحبهما حبا عظيما.. حتى أنه لما تزوج بعد وفاة فاطمة امرأته، سيدة نساء المؤمنين، التي توفيت بعد أبيها بأشهر.. لما تزوج علي كرم الله وجهه بعدها أنجبت له امرأته الجديدة ولدا، ثم أنجبت له زوجة أخرى ولدا آخر، فسمى أحد الولدين أبا بكر، وسمى

الولد الآخر عمر، تبركا وتعلقا وتيمنا بالشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعا..

* * *

وكان مما قاله علي بن أبي طالب من روائع الحكمة، والموعظة التي أحبها الصديق، قوله:

- القناعة مال لا ينفد.-

يأتي على الناس زمان غضوض (شديد) يعض الموسر (الغنى) فيه على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك! قال الله سبحانه (ولا تنسوا الفضل بينكم). وتنهد (تنهض) فيه الأشرار، وتستذل الأخيار، ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول الله < عن بيع المضطرين.

- ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجرا ممن قدر فعف! يكاد العفيف أن يكون ملكا من الملائكة!
- ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى، أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

- الدنيا خلقت لغيرها، ولم تخلق لنفسها (أي خلقت لتكون سبيلا للآخرة ولو خلقت لنفسها لكانت دار خلد).
- الغيبة جهد العاجز (الغيبة بكسر الغين أن تذم غيرك في غيابه، وجهد: أي أقصى ما في الطوق).

- الحلم والأناة توءمان ينتجهما علو الهمة. - الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل
(زيادة) عن عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك (لا تغتبه).
- ما لابن آدم والفخر!؟: أوله نطفة، وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه! - زهدك في راغب فيك سوء حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس!
- من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته.
- من اتجر بغير فقه فقد ارتطم في الربا.

- ليس بلد بأحق بك من بلدك، خير البلاد ما حملك.
- الناس أعداء ما جهلوا.

وسئل أيهما أفضل: العدل أو الجود؟ قال: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود حارس خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما.

- الزهد كله بين كلمتين في القرآن: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم)، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه.
- ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغل عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح لعبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة.
- اذكروا انقطاع اللذات وبقاء التبعات.

- الرزق رزقان: طالب، ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها. -

إن أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعيا رجل أخلق (استهلك) بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرته، وقدم على الآخرة بتبعته. -

إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم.

- من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنه شكاها إلى الله، ومن شكاها إلى كافر فكأنه شكا الله. -

إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجلكسب مالا في غير طاعة الله، فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة، ودخل الأول به النار!

- افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئا، فإن صغيره كبير، وقليله كثير. -
من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس.
- الحلم عشيرة (يجمع للحليم الناس فكأنهم عشيرته).
- إن الذي في يديك من الدنيا قد كان له أهل قبلك، وهو صائر إلى أهل بعدك.
- من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام الله بما يجب فيها عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم بما يجب عرضها للزوال والفناء.-
يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا اسمه، ومساجدهم يومئذ عامرة من البناء، خراب من الهدى، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تأوي الخطيئة، يردون من شذ عنها فيها، ويسوقون من تأخر عنها إليها. بقول الله سبحانه:

فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنه تترك الحليم فيها حيران! -

العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه. -

لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا. -

من ضن بعرضه فليدع المراء (الجدال بغير حق والمكابرة).

- أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله.-

عند تناهي الشدة تكون الفرجة، عند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء. -

لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء االله فإن االله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء االله فما همك وشغلك بأعداء االله؟! -

من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهوى جار به الضلال.

- ماء وجهك جامد يقطره السؤال، فانظر عند من تقطره!
- من تذكر بعد السفر استعد.

- آه من قلة الزاد وبعد السفر!

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويراجي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع.. يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض الزاهدين وهو أحدهم.. إن أصابه بلاء دعا مضطرا، وإن ناله رخاء أعرض مغترا.

- لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمان.
- من وضع نفسه مواضع التهمة، فلا يلومن من أساء به الظن!
- من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها.
- الفقر الموت الأكبر.
- قد أضاء الصبح لذي عينين.

– من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

– لا يعاب المرء بتأخير حقه (التسامح فيه)، وإنما يعاب من أخذ ما ليس له.

– امش بدائك ما مشى بك.

– قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير.

– أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده ترفعه .

– إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر.

– البخل عار، والجبن منقصة، والفقر يخرس الفطن عن حجته، والمقل غريب في بلدته (المقل بضم الميم وكسر القاف هو الفقير).

– العجز آفة، والصبر شجاعة.

– خالطوا الناس مخالطة إن متم بعدها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم.

– إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه.

– أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

– إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه.

– عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه.

– من ملك استأثر (استبد).

– من كتم سره كانت الخيرة بيده.

– الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضا عنه!

– لكل امرئ عاقبة حلوة أو مرة.

– المرء مخبوء تحت لسانه.

– هلك امرؤ لم يعرف قدره.

– معاشر الناس، اتقوا الله فكم من مؤمل ما لا يبلغه، وبان ما لا يسكنه، وجامع ما سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه: أصابه حراما، واحتمل به آثاما، فباء بوزره، وقدم على ربه آسفا لاهفا (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).

– أشد الذنوب ما استهان به صاحبه!

– من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

– يا بن آدم رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

– أفضل الزهد إخفاء الزهد.

– من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب.

– ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحة وجهه.

* * *

كان الصديق يحب هذه المواعظ البليغة، بكلماتها القليلة الموحية المؤثرة في النفس، التي تستثير الهمة، وتستنفر العزم.

وكان هو نفسه يصطنع هذه الحكم والمواعظ ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم.. وكان يحب الكلمات القليلة المكثفة المشحونة بالمعاني..

لما هاجر مع الرسول إلى يثرب، لقيه رجل قبل دخوله يثرب، فعرفه، لكثرة ما التقيا في رحلات التجارة،

ولكن التاجر اليثربي لم يعرف محمد ❐ ، فسأل أبا بكر عنه: "من هذا؟" قال: "هذا يهديني السبيل" ففهم الرجل أنه دليل يدله على الطريق إلى يثرب، وأبو بكر يعني أنه يهديه إلى سبيل الخير.

وقد عرف عن الصديق أنه كان يتحرج في كلامه، ويتأنى، كيلا يخطئ، وكانت له حصاة يضعها في فمه خوفا من فلتات اللسان!

ومن كلماته وحكمه ومواعظه:

– احرص على الموت توهب لك الحياة.

– كثير القول ينسي بعضه بعضا، وإنما لك ما وعي منك (بضم الواو وكسر العين وفتح الياء).

– أتريدون ما عند الله بعصيانه؟!

– إن البلاء موكل بالمنطق.

– أكيس الكيس التقوى، وأحمق الحمق الفجور، وأصدق الصدق الأمانة، وأكذب الكذب الخيانة.

– ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر.

– خير الخصلتين لك، أبغضهما إليك.

– إياكم والكذب! فإن الكذب مجانب للإيمان.

– الحب والبغض يتوارثان.

وكان آخر دعائه في خطبته: "اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك". فكان إذا قاله عرف الناس أنه فرغ من خطبته.

- من دعائه: اللهم هب لي إيمانا ويقينا، ومعافاة ونية .

- لا تكتم المستشار خبرا، فتؤتى من قبل نفسك (قبل بكسر القاف وفتح الباء: عند).

- أصلح نفسك يصلح لك الناس.

- أقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله.

- لا تجعلن قولك لغوا في عقوبة ولا عفو .

- أين الوضاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟! أين الملوك الذين بنوا المدائن، وحصنوها بالحيطان!؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور.

- عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وهما في النار،

ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا إخوانا كما أمركم الله تعالى.

- إياكم والفخر! وما فخر من خلق من تراب، ثم إلى التراب يعود، فيأكله الدود!؟

- توقوا دعاء المظلوم، واصبروا فإن العمل كله بالصبر، واحذروا فالحذر ينفع..

* * *

أصبح هم أبي بكر الآن هو اختيار من يخلفه، ليحمل في قوة أمانة المسئولية، ويحقق للأمة ما أراده لها نبيها، وينشر نور الله على الأرض، ويحقق أمل المستضعفين والمضطهدين: أن يسود العدل، وأن يصبح الناس بنعمة الله إخوانا، يعمرون الأرض، ويستظلون معا بمكارم الأخلاق، وألا يتفاضل الناس إلا بالعمل والتقوى..

يجب أن يختار رجلا من أولى العزم، أمينا قويا في غير عنف، رقيقا لينا في غير ضعيف.. كيف تجتمع هذه الخلائق في رجل واحد؟!

يجب على الصديق أن يختار رجلا ذكي القلب، مرهف الشعور، يملك شجاعة الاستقالة إن جربه الناس

فرفضوه، ويملك الحلم والحكمة والصبر والقدرة على العفو إن هم أقالوه.

إن أبا بكر ليذكر من رقدته هذه في فراش مرضه، أنه شعر أول العهد ببيعته أن بعض عبد مناف وبعض الأنصار كانوا يريدون عليا.. فصعد أبو بكر المنبر وقال: "أيها الناس، أذكر بالله أيما رجل ندم على بيعتي لما قام على رجليه!" فتخافت الناس، وهم في عجب، وإذ بعلي بن أبي طالب يثب من بين الناس، شاهرا سيفه، حتى وضع رجلا على عتبة المنبر، ورجلا على حصباء المسجد، فأمسك الناس أنفاسهم، وكأن على رءوسهم الطير! ما عسى أن يقول سيد عبد مناف، وبني هاشم، وبطل الإسلام، وأجسر من ضرب، قال: "والله لا نقيلك ولا نستقيلك! قدمك رسول الله ❐، فمن ذا يؤخرك! قدمك لتوحيد ديننا فمن ذا يؤخرك لتوجيه دنيانا؟!".

ما أروعك يا أبا الحسن! صدق النبي حين أطلق عليك إمام المتقين، وسيد العرب، وحين اختارك على الرغم من فقرك ليزوجك ابنته فاطمة سيدة نساء المؤمنين!!

ولكنك بمنزلة ابن الرسول يا بني!! غذاك طفلا، وسقاك كل فضائله، وثقف نفسك، وعمر قلبك، وأضاء جوانحك بنور اليقين، وما عرفت منذ وعيت يا بني إلا ورع الإسلام، وفضائل الإسلام، وقيم النبوة السامية، وجلال التقوى، وعزة الاستغناء بالله عن كل مغريات الحياة..!

لو أنك كنت يا بني أكبر سنا!! فإنك لتعرف العرب يا سيد العرب! فهؤلاء مشيخة قريش لن يرضوا بإمارة شاب حديث السن!.. أنت لهذا الأمر خليق، وبه حقيق، لفضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك، ولكنك تعلم أن سيفك ما زال يقطر دما من مهج مشيخة قريش!.. وقريش لم تصفح كل الصفح بعد، ولم تنس، وهيهات تنسى!! ما يختلف اثنان على فضلك يا أبا الحسن، ولكن لم يئن بعد الأوان! كل شيء بقدر ومقدار!

وتذكر أبو بكر يوم بيعة السقيفة.. قبل أن يبايعه عمر، قال هو لعمر: "هات يدك أبايعك" قال عمر: "أنت أفضل مني!" قال: "أنت أقوى مني" قال عمر: "إن قوتي لك على فضلك!".

فلتستخلف عمر، فهو ينهض الآن بالأمر معك، وهو أهل للإمارة بعهدك!

إن جيش المسلمين بدولة الفرس ينتظر مددا من أشداء أهل الردة، الذين سينشطون لقتال الفرس إما عن أمل في المثوبة وإما عن طمع في الغنيمة.. لا بد من عزمة كعزمات عمر، وحزم كحزمه لإنقاذ جيش كهذا!

أما جند المسلمين بدولة الروم، فما زالت الإمدادات تترى عليهم، ليفتحوا بقية الشام.. ولقد أرسل أبو عبيدة إلى الصديق يطلب مددا كثيفا ليلقى به جند هرقل الذي ما برح يعد أمراء جيوشه بإمدادهم بجند تضيق بهم الأرض! وكان الصديق قد رد قبل على أبي عبيدة: "لعمر الله لقد أصبحت الأرض ضيقة عليهم برحبها، وأيم الله ما أنا يائس من أن تزيلوه من مكانه الذي هو به عاجلا إن شاء الله، فبث خيلك بالقرى، وضيق عليه بقطع الميرة (التموين)... فإنه ليس يأتيهم مدد إلا مددناكم بمثله أو ضعفه، وليس بكم بحمد الله قلة ولا ذلة.. إن الله فاتح لكم ومظهرهم على عدوكم، ويعزكم بالنصر..".

ولكن هرقل جمع إليه الروم في أطاكية ليوجه إلى المسلمين حملة لا قبل لهم بها عدة وعديدا.. فكتب أبو عبيدة إلى الصديق مستغيثا، فرد عليه: "أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما حشده أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، ما كان من قوم أن يدعوا سلطانهم ويخرجوا من مملكتهم بغير قتال، وقد علمت والحمد الله أن قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت، حب عدوهم للحياة ، يحتسبون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم، وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الهيج (الحرب، كالهيجاء) خير من ألف من المشركين، فإن الله تعالى ذكره معك، وأنا مع ذلك ممدك بالرجال بعد، حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد، والسلام عليك".

كل شيء بخير إذن في ميادين القتال، ولكن لا بد لمن يستخلفه أن يملك القدرة على أن يدير من فوق أرض

المسجد وحصبائه، كل الملاحم العظام التي تنتظر جيوش الفتح..

ومرة أخرى فكر في عمر، وانشرح صدره لاستخلافه.

* * *

وها هو ذا خليفة رسول الله يستلقي في فراشه، يرج السعال العنيف بدنه النحيل، وعيناه المقرحتان من طول القيام، وكثرة البكاء يومض فيهما شعاع خافت، وكأنه يكشف أستار الخفاء، ويقتحم الغيب ليرى ببصيرته خيل الله تطأ عرش قيصر وكسرى، وراية رسول الله ترفرف بالعقاب الجسور على آفاق الدنيا!..

من يستطيع أن يحقق هذه الآمال كلها أصلح من عمر، من ذا الذي يجذب إلى دين الله أفواج شعوب الأرض، بما يملك من قدرة وحكمه وحزم؟!.. من كعمر؟! هو بكل ذلك زعيم، وكم لعمر الفاروق من مناقب وخصائص! تجعله على الرغم من شدته مقبولا عند الناس، لم لا وهو مقبول عند الله؟!

قال رسول الله ❐ عن عمر: "إن الله تبارك وتعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

وقال علي بن أبي طالب: "ما كنا نبعد أن تكون السكينة (أي الإلهام) على لسان عمر!".

ومن مناقبه ما وصفه به النبي ❐ ، إذ قال له: "إيه يا بن الخطاب! فوالذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا (طريقا) إلا وسلك فجا آخر".

ولقد كان المسلمون يعبدون الله سرا حتى أسلم عمر، فسل سيفه وقال: "والله لا نعبد الله بعد اليوم سرا" فما أغمدهحتى جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا!..

توكل على الله واستخلفه، فهو رجل مبارك، حتى لقد قال له الرسول ❐، حين استأذنه في العمرة، فأذن له، قال: "لا تنسنا يا أخي في دعائك"!.

* * *

لقد صح عزم الصديق على استخلاف عمر، ولكنه يجب أن يشاور مشيخة الصحابة المهاجرين والأنصار

المبشرين بالجنة.. وكان أكبرهم سنا عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان.. فدعا كلا منهما على حدة.

فلما جلس عبد الرحمن إلى جوار فراش الصديق قال له: "أخبرني عن عمر بن الخطاب" قال: "ما تسألنا عن أمر إلا وأنت أعلمنا به" قال أبو بكر: "وإن.." قال عبد الرحمن: "يا خليفة رسول الله، هو والله أفضل من رأيك فيه.. ولكن فيه غلظة!" قال: "ذلك لأنه يراني رقيقا، ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيرا مما هو عليه.. ويا أبا محمد (كنية عبد الرحمن بن عوف)، قد رمقته فرأيته إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه".

وسكت برهة ثم قال: "لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا".

وخرج عبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر في سمته الجليل، يعاني فتك السعال به، وضراوة المرض، ووطأة الهزال.. لقد هدته الأيام، وما عرف لذة العيش بعد رسول الله! لقد حزن حتى ظن أنه نفسه تقطعت حسرات، وسيظل حزينا آخر الدهر.. إلى أن يلقاه!

ولكنه يجب أن يؤدي الأمانة حتى آخر خفقة من أنفاس الحياة!.

ودعا إليه عثمان بن عفان، الذي قال عنه الرسول ﷺ، إن الملائكة والله لتستحيي منه، والذي قال عنه علي بن أبي طالب: "ذلك امرؤ اسمه في الملأ الأعلى ذو النورين".

قال الصديق لذي النورين: "يا أبا عبد الله (كنية عثمان)، أخبرني عن عمر" قال: "يا خليفة رسول الله، أنت أخبر به!" قال: "يا أبا عبد الله!" قال عثمان: "اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله" قال: "يرحمك الله يا أبا عبد الله! والله لو تركته ما عدوتك، لا تذكرن مما قلت لك، ولا مما دعوتك له شيئا!".

إن الصديق الآن يكاد يكمل الثالثة والستين من عمره.. سن الحبيب يوم وفاته!.. وقد أضناه المرض، وهد قواه، فلم يستطع أن يغادر فراشه ليصلي بالناس، فأمر بذلك عمر بن الخطاب.

ثم شاور الصديق في استخلاف عمر بعض الصحابة من مشيخة المهاجرين والأنصار فكلهم قالوا كما قال

عبد الرحمن وعثمان.. وقالت الأنصار: الذي يسره عمر خير من الذي يعلنه.

ثم تداعى نفر من الصحابة، لما علموا بأن الخليفة يشاور في استخلاف عمر.. وأجمعوا أمرهم على أن ينصحوا أبا بكر ألا يستخلف عمر بن الخطاب، فقد تتفرق الأمة فيه، لما تعرفه من شدته وغلظته!..

إن الأمة ما احتملت أبا بكر في حدته، إلا لما أنسته فيه من لين الجانب، وإلا لما واسها به من دعته ورقته..

وأقبل الذين لا يرضون باستخلاف عمر، وعلى رأسهم طلحة، قريب الصديق، وهو أحد المبشرين بالجنة، وقد سماه رسول الله طلحة الخير وطلحة الجود، لكرمه الشديد، وسماه الصبيح المليح الفصيح.. وكان أبو بكر يذكر لطلحة بن عبد الله بلاءه في أحد، وهي المعركة الوحيدة التي انتصرت فيها قريش على المسلمين، بعد أن كان المسلمون قد انتصروا، تركوا مواقعهم لما عاينوا نصر المسلمين، وانقضوا على الغنائم مخالفين عن أمر الرسول، فانقضت خيل قريش بقيادة خالد الذي كان متربصا في انتظار فرصة! وكان من شهداء يوم أحد أسد الله حمزة بن عبد المطلب، عم

النبي، الذي فعل بقريش الأفاعيل في المعركة، حتى قتله وحشي الذي استأجرته هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان.. وهو عبد حبشي هز حربته، وقذف بها أسد الله من بعيد في ظهره، فخرجت من الجانب الآخر، وهي مكيدة لم تكن تعرفها العرب، فما عرف العرب في القتال إلا القتال الشريف، وجها لوجه.

فلما استشهد حمزة بن عبد المطلب أسد الله، تضعضع المسلمون، ثم أتت هند بوحشي، وأمرته أن يمثل بحمزة ويمزق جسده، فينتزع كبده، فأخذتها، فلاكتها في فمها مرات، ولقد حاولت أن تمضغها لتشفي كبدها الحري، انتقاما لرجالها صرعى حمزة في بدر، فسميت منذ يوم أحد آكلة الأكباد!

وما رأى أبو بكر طلحة بن عبيد الله إلا تذكر غزوة أحد، وما ذكر أحد أمامه غزوة أحد، إلا تذكر طلحة الذي وقى رسول الله من نبال المشركين، فأصيبت يده وأصبحت شلاء! وكان أبو بكر يقول عن يوم أحد: "ذلك يوم طلحة، أتيناه وهو في بعض الجفار (جمع جفرة: فجوة واسعة في

الجبل كالكهف)، وبه بضع وستون جراحة ما بين طعنة ورمية..".

تداعت هذه الذكريات جميعا على أبي بكر، وهو يرى طلحة بن عبيد الله أمامه.. وهش لمقدمه مرحبا، بقدر ما سمح له ضعفه، فقال طلحة مغاضبا: "ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك؟!".

فثار غضب أبي بكر، واعترته حدة عارمة هزت كيانه هزا عنيفا، ونظر فيمن حوله وأنفاسه المكروبة تتلاحق، وقال: "أجلسوني" فأجلسوه، فنظر إلى طلحة ومن أقبلوا معه، وقال: "أبالله تخوفونني؟! خاب من تزود من أمركم بظلم! إذا لقيت ربي فسألني أقوله له: اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك!".

وخرجوا جميعا وتركوا أبا بكر يعاني وطأة المرض، والهزال.. فلما كان من الغد، شعر ببعض العافية، وعاده عبد الرحمن بن عوف، فرأى على وجهه مخايل الشفاء، فقال: "أصبحت بحمد الله بارئا" (من البرء وهو الشفاء). قال

أبو بكر: "أما إني على ذلك لشديد الوجع، وما لقيته منكم أيها المهاجرون أشد علي من وجعي" وروى لعبد الرحمن ما كان من أمر طلحة ومن معه!

وإنه ليروي له إذ عاوده غضبه، فاهتز بدنه، وتلاحقت أنفاسه، ومزق السعال كلماته، فتقدم عبد الرحمن فجلس إلى جانب سريره، وجعل يهون عليه، قال: "يا خليفة رسول الله هون عليك رحمك الله، فإن هذا يهيضك" (يكسرك من هاض الجناح)..

ولكن الصديق استمر يقول وهو ينهج، موجع القلب، ضيق الصدر: "إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه!".

ومرت أمام عيني الصديق صور المسلمين قبل الفتوحات وبعدها، ومظاهر الترف التي أخذت تشيع غير مبالية بورع الورعين، ولا بمواعظ الواعظين أو تقوى المتقين، وألح عليه إشفاقه على الناس من بعض الأبصار الطوامح إلى الثراء، والمتاع المباح المتاح.. وهو إشفاق ما برح يعانيه منذ آنس إقبال نفر على الدعة ولين العيش، لما

تدفقت عليهم أموال الغنائم والفيء والسبايا الفارسيات والروميات الحسان!

وما زال الصديق يرتعد خشية على أمة محمد.. وتهدج صوته اللاهث تحت وطأة السعال، ونظر إلى عبد الرحمن بن عوف بعينين مثقلتين بالأسى والهلع والدمع... لك الله يا عبد الرحمن! يا من بشرك رسول الله بالجنة، وعممك بيده في إحدى الغزوات، وقال لنا عنك: "هذا سيد من سادات قريش!".

لك الله يا عبد الرحمن! أيها الشيخ الذي كان وجيها عند الناس في الجاهلية، فأصبح عند الله وجيها في الإسلام!! لك الله!! ما بالك لم تترف في غناك العريض؟! بل إنك لتنفق الكثير في سبيل الله، كعثمان؟!

لك الله يا عبد الرحمن! وسلام عليك يوم بعت أرضا لعثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، ووزعتها على أمهات المؤمنين أزواج الرسول بعد وفاته، وما عرفن لين العيش ولا زينة الحياة الدنيا في حياته! فحق عليك ما أسر الرسول به لأزواجه في مرض موته من صفات: "إن

الذي يحن عليكن بعدي فهو الصادق البر الصالح" أيها البر الصالح الصادق من أكابر مشيخة قريش.

أنت أحد القلائل الذين دعا لهم الرسول فقال: "سقى الله ابن عوف من سلسل الجنة".. وأنك بحكمتك وفضلك تستطيع أن تفهم مخاوفي، فتدرك أأنني ما أردت استخلاف عمر من بعدي إلا لخصائص فيه تقدمه وتزكيه، فهو الحازم القوي الأمين الذي لا يخاف في الله لومة لائم.. وما أحوج أمة محمد الآن إلى رجل قوي الشكيمة، من أحباء رسول الله، رجل قوي شجاع، يقمع الأطماع!..

لا هو صغير السن فيتحرج من إمرته كبار السن ممن لهم ضعف عمره، ولا هو شيخ كبير فيستهين به الشباب!.. فمن إذن أصلح وأنسب للخلافة ممن وصفه النبي بأن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، ثم وصفه علي بأنه كاد أن يكون ملهما..

وشعر عبد الرحمن بن عوف بما يعانيه خليفة رسول الله في أطواء نفسه، ورأى اختلاجه، وإلحاح السعال عليه، وشحوب وجهه الذابل، الذي ما زال على الرغم من المرض يشرق بنور الورع!.

فأمسك عبد الرحمن بيد الصديق مواسيا، وقال لـه: "هون عليك يا خليفة رسول الله! فإن هذا يهيضك!".

فاحتد أبو بكر قائلا وهو ما زال ينهج: "رأيتم الدنيا قد أقبلت – ولما تقبل، وهي مقبلة – حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج (وسائد الحرير الفاخر)، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربي (نسبة لأذرييجان ، يعني بساط أذربيجان وهو كالحرير)، كما يألم أحدكم أن ينام على السعدان (نبات صحراوي كثير الشوك).. والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد (أي عقوبة) خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا! وأنتم أول ضال بالناس غدا، فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا! يا هادي الطرق جرت! إنما هو الفجر أو البجر!" (البجر على وزن الفجر: الأمر العظيم، بمعنى: إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت طريقك وهدفك، وإن سرت في الظلماء تخبطت ووقعت في المكروه).

ومرة أخرى تلهث أنفاسه وتتلاحق، ويمزق السعال صدره، ويهز كيانه الهزيل هزا عنيفا، ويرتعد من الحمى..

ورثا عبد الرحمن له، وحبس دموعا أوشكت أن ترسلها عيناه، فتشي بأحزانه!! لك الله يا خليفة رسول الله!!

إنه ليمضي إلى لقاء ربه مهموما برعيته، مشفقا عليها من إقبال الدنيا، كما أشفق الرسول على أمته من قبل! إذا كان نفر من إخوانهم يستمتعون اليوم بما أترفوا فيه من متاع قليل، فكيف بهم إذا كثر المتاع، واتسعت الفتوحات، وأقبلت عليهم الدنيا حقا؟! إنه هو أيضا ليذكر أن الرسول حذرهم من أن يبلوهم الله بالثراء الفاحش!! فلئن لم ينفقوا أموالهم في سبيل الله، ويؤدوا لبيت المال فوق الزكاة ما يمكن ولي الأمر من كفاية حاجات الأمة، وسد ثغورها، والتسوية بين الناس في الطيبات، إنهم إذن في الفتنة وقعوا!!

لقد تعلموا من رسول الله أن المسلمين يجب أن يكونوا كالجسد الواحد، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى؟!

ألم يحفظوا عن الرسول قوله: "من كان آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها"؟!

ما زالت صيحات الزهاد من الصحابة تحذر من الترف، وتواجه أهل الغنى بأن في المال حقا آخر غير الزكاة.

وإن في الصحابة لأقواما إذا أتاهم المال آتوه الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وأنفقوه في سبيل الله، وكانوا فيه من الزاهدين؟! هؤلاء هم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ولكن ما بال آخرين تأتيهم الفتوحات بالغنائم والنعيم والفيء والسبي، فتنتفخ أوداجهم، وتطمح أبصارهم إلى المزيد؟!

أفلا ينظرون إلى عثمان بن عفان، وما ينفقه في سبيل الله!؟ لقد جهز جيشا بأسره لفتح تبوك، عندما هدد الإسلام، وما في بيت المال من مال؟!

أفلا نظروا إليه حين رأي يهوديا يغالي في بيع الماء من بئره لأهل المدينة، فاشترى نصف البئر، وأباحه للناس، فلما تأذى صاحب البئر باعه النصف الباقي، فأصبح البئر كله للناس، يشربون منه ويسقون أنعامهم لوجه الله، بلا مقابل!؟

أفلا يرى هؤلاء الذين تشرئب أطماعهم إلى الغنى، وربما إلى السلطان، أفلا يرون زهد عبد الرحمن بن عوف؟! إن التراب ليتحول في يديه إلى ذهب! هكذا قيل عنه، لكثرة ما يربح من التجارة، ولكنه يوجه أكثر ربحه للمصالح العامة، بأكثر مما طالبه رسول الله، ومما توقعه خليفة رسول الله؟!

ألا يرون إلى عمر وعلي، وكلاهما ينفق في سبيل الله من قوت يومه؟!.. لكم ذكرهم الصديق في مواعظه بما قاله الله تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو).. إن الله لا يطلب منهم أن ينفقوا إلا ما زاد عن حاجتهم، ولا أحد يكره الغنى، وقد علمهم علي بن أبي طالب مما تلقاه عن الرسول من العلم، ومن الكتاب والحكمة: "أنه لا بأس للغنى لمن اتقى!" وأن المؤمن القوي خير من الضعيف، وأن الذي يعمل ويكسب قوته وقوت عياله خير من الذي يسأل الناس، وأن السعي في سبيل الرزق وفي عمارة الأرض عبادة، بل خير عبادة.. فقد مدحوا رجلا زهد الحياة، وانقطع للتعبد، فسألهم الرسول ❐: "من ينفق عليه؟" قالوا: إن أخاه يعمل، وينفق عليه، فقال: "أخوه خير منه!".

لا أحد يفرض الزهد على الناس! ولا أحد يريدهم أن يأخذوا أنفسهم بما أخذ به الرسول نفسه، أو بما يفعله الخليفة نفسه أو عمر أو علي أو زهاد الصحابة الآخرون!.

ولا أحد يحرم زينة الحياة الدنيا، ولا الطيبات من الرزق!

ولا أحد يطالبهم بالرهبانية، فرهبانية الإسلام هي الجهاد في سبيل الله!

وما من أحد يفرض عليهم رأي علي: "إنك لا تكسب من المال شيئا فوق قوتك إلا كنت خازنا فيه لغيرك..".

وما من أحد يطالب أحدا منهم بأن يؤتي ماله كله يتزكى! فقد لام الرسول نفرا قدموا إليه أموالهم جميعا، ورد أموالهم، ولم يأخذ منها غير الثلث، وعلمهم أن من الخير أن يتركوا لورثتهم ما يغنيهم، بدلا من أن يتركوهم في حاجة يسألون الناس، أعطوهم أو منعوهم!

ولقد علمهم علي بن أبي طالب أن الفقر كفر،

وما من أحد يطالب أحدا بالفقر، ولكن بالتعفف عن الأطماع، وبأن يزكوا أموالهم وأنفسهم، ليطهروا قلوب الفقراء مما

عسى أن يفتك بها من حقد على الأغنياء! وليؤدوا لولي الأمر ما يعينه على سد حاجات الأمة، وتوفير الكفاية لكل أبنائها، وبذلك يتحقق المجتمع الفاضل الذي يريده الإسلام! المجتمع الذي يتعاون أفراده على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، والذي يصبح فيه المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، والذي لا ينام فيه مؤمن شبعان، وجاره جوعان!

المجتمع الذي لا يؤمن فيه الإنسان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويشعر كل فرد فيه أنه أخ لصاحبه: لا يظلمه ولا يسلمه كما علمهم النبي!.. هذا المجتمع الذي يؤلف فيه الحب والتعاون والتراحم بين القلوب، فيصبح فيه الناس بنعمة الله إخوانا..!

فمن ذا الذي يستطيع أن يحقق للناس كل هذا في مشيخة قريش، إلا عمر بن الخطاب الذي لا يخاف في الله لومة لائم، والذي وضع الله الحق في قلبه وعلى لسانه، والذي كاد أن يكون ملهما؟!

من ذا الذي اليوم يحقق لأمة محمد كل ما يحبه لها محمد، مثل الفاروق الذي كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا،

ورضاه عدلا! هذا الرجل الميمون، الذي قال عنه الرسول ❐ : "ما رأيت عمر بن الخطاب في نوم ولا يقظة إلا رأيت ذلك اليوم خيرا".

* * *

وآثر الصديق أن يبث صديقه عبد الرحمن ابن عوف كل مخاوفه.. آثر أن ينبه عبد الرحمن بن عوف الصادق البر الصالح، وينبه عمر، إلى ما يتهدد أمة محمد لا من الأسدين فارس والروم فحسب، ولكن مما دهى قلوب نفر من المسلمين: هذا الطموح إلى الدعة والترف والسلطان!

ثم ما بال العصبية الجاهلية تكاد تطل برأسها، يستنفرها ويؤججها المنافقون، والمرجفون في المدينة، والذين في قلوبهم مرض؟!

لقد ألف الله بين قلوب الناس، وجمعهم الإسلام، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، كما قال الرسول ❐.

وأدرك عبد الرحمن أي عذاب داخلي يعانيه الصديق.. إن مخاوفه على الأمة من بعده لتشق عليه، وتكاد

تفترسه، كما افترس بدنه الرقيق حزنه على الحبيب ❐ ، ثم السعال والحمى أيضا..

قال عبد الرحمن وهو يداري آلامه لما يشاهده من تباريح الصديق: "يا خليفة رسول الله، خفض عليك! (أي هون وزنا ومعنى) خفض عليك رحمك الله. فإن هذا يهيضك في أمرك، إلى ما بك من مرض! وصاحبك (أي عمر) كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيرا، وإنما الناس في أمرك بين رجلين: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو يشير عليك، ولم تزل صالحا مصلحا، وقد قمت بالأمر وحدك، فما رأيت إلا خيرا، وإنك لا تأسى على شيء في الدنيا فهون عليك!".

فشرد خيال الصديق في كل ما مر به من حياته.. إنه اليوم في الثالثة والستين: السن التي قبض فيها الحبيب عليه الصلاة والسلام، وخلفه فيها على أمته منذ نحو عامين وثلاثة أشهر.. إنه حقا لا يحزن على شيء فاته.. ولكن.. وتلخص أمامه ماضيه كله في لحظة، كما تعكس القوقعة الصغيرة عالم البحر كله، فتشم منها رائحته، وتسمع من وشوشتها هديره!!

وقال الصديق: "أجل إني لا آسى على شيء من الدنيا، إلا أني وددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السلمي، وأني كنت قتلته صريحا" (وهو الذي خدع أبا بكر أيام الردة وتظاهر بأنه سيحارب معه المرتدين فأمده بمال ورجال، ولكنه خرج يفتك بالناس فلا يترك مسلما أو مرتدا إلا قتله وسلبه، وهتك النساء، فأرسل الصديق وراءه جيشا أوقع به، وحملوه موثقا بالحبال إلى الصديق، فأمر بنار عظيمة فأوقدت في البقيع خارج المدينة فقذفوه فيها حتى احترق).

ونهج الصديق هنيهة، ثم قال: "وددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين (وهما عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح) فكان أحدهما أميرا، وكنت وزيرا.. ووددت لو أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه، فإنه يخيل إلي أنه لا يرى شرا إلا أعان عليه! ووددت أني حين سيرت خالد ابن الوليد إلى أهل الردة، كنت أقمت بذي القصة، فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هزموا كنت مددا لهم!.. وددت أني إذ وجهت خالد بن الوليد **إلى** الشام كنت وجهت

عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل الله!".

وبسط يديه كلتيهما..

ثم أكمل: "وددت أني كنت سألت رسول الله ❒ : لمن هذا الأمر؟ (يعني الخلافة) فلا ينازعه أحد، ووددت أني كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة، فإن في نفسي منهما شيئا".

وانصرف عبد الرحمن أسيفا، يدعو الله أن ينجي أمة محمد، مما يخافه عليها خليفته.

* * *

وأقبل عمر، فكلمه أبو بكر في أمر استخلافه، فوجهه عمر إلى أن يستخلف صحابيا آخر من المبشرين بالجنة، الذين مات رسول الله ❒ وهو عنهم راض، فكلهم أهل للخلافة، ثم قال: "يا خليفة رسول الله، ليس بي حاجة إليها".

قال الصديق: "ولكن بها حاجة إليك!".

وما زال الصديق بالفاروق حتى قبل استخلافه على مضض، لكي يعصم الأمة من الخلاف ويقودها على

الطريق، قيادة القوي الأمين الذي لا يخاف في الله لومة لائم!
ثم أقبل نفر من الصحابة يعودون أبا بكر في مرضه .

وشق على عمر ما يجده الصديق.. فأراد أن يخفف عنه ببعض ما يؤنسه من ذكره.. فذكره مستضحكا ليسري عنه عما وقع لهما معا أيام كان صحابة رسول الله يستبقون الخيرات أمامه!.

قال عمر لبعض الصحابة الذين أقبلوا يعودون الصديق، "أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوما! فجئت بنصف مالي، أكاد أحمله إلى رسول الله ﷺ على رءوس الناس، فقال لي: وما أبقيت لأهلك!؟ قلت: مثله، وجاء أبو بكر بماله أجمع يكاد يخفيه من نفسه، فقال رسول الله ﷺ له: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله! فقلت لأبي بكر: بنفسي أنت وبأهلي أنت، ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقتنا إليه والله لا أسبقه إلى شيء أبدا!".

وضحك الصحابة، وضحك الصديق، وسري عنه، فأضاف أحد الصحابة أن الرسول أبى أن يتصدق أبو بكر

ما عنده، وأراد أن يرد عليه بعض ماله، فبكى الصديق وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟

أين تلك الأيام الجميلة الماضية، عندما كان الجميع يتنافسون على الخير والبذل والعطاء؟!

وقال أحد الصحابة من عواد أبي بكر، فلما رأى الله عز وجل من يبدي الصدقات ومن يخفيها، قال في سورة البقرة: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير).

وانصرف النفر الذين كانوا يعودون الصديق، واستبقى عمر بعدهم، فقال له: "يا عمر لا تذكرن مما قلت ولا مما دعوتك له شيئا لأحد"، وانصرف عمر راضيا مرضيا.

* * *

وأصبح الصديق فدعا إليه عثمان بن عفان، وهو كاتبه، فقال له: "لوددت أني كنت من أموركم خلوا، وكنت فيمن مضى من سلفكم!"..

ثم قال له: "اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ، في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإنه بر وعدل، فذلك علمي به، ورأيي فيه، وإن جار وبدل، فلا علم لي بالغيب، وإني لم آل الله ورسوله ونفسي وإياكم خيرا، فالخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله".

وختم الكتاب، وأمر بأن يجتمع الناس في المسجد.

فلما غص نحو نصف المسجد بالناس قام الصديق منهكا، وامرأته أسماء بنت عميس تسند ظهره حتى أشرف على الناس من بابه المفتوح على المسجد، فقال: أترضون بمن أستخلف عليكم؟! فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، إني قد عهدت عهدا فهل ترضونه؟ فقال علي: "لا نرضى إلا أن يكون عمر". (مختصر الموافقة للزمخشري) قال الصديق: "قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا". قالوا: "سمعنا، وأطعنا".

ودخل على الصديق قبل البيعة أحد صحبه، والناس ما زالوا يتوافدون على المسجد، فعاتب أبا بكر لأنه أصر على استخلاف عمر، وهو فظ شديد على الناس، ثم إن هناك من هم أقدم منه إسلاما!!

فاحتد أبو بكر، وقال وهو ينهج وأنفاسه تتقطع: "لا والله.. هو خيركم! والله لو وليتك لجعلت أنفك في السماء، ولرفعت نفسك فوق قدرك، حتى يكون الله هو الذي يضعك!.. تريد أن تردني عن رأيي، وتفتنني في ديني؟! فوالله لئن بلغني أنك عصيته أو ذكرته بسوء، لأفعلن

ولأفعلن!؟. فانصرف الرجل، وبقي أبو بكر ينتفض من
الامتعاض والضيق مما قاله ذلك الرجل، ومن الإشفاق على مصير أمة محمد من مثله! وكان عثمان وعلي يجلسان في المسجد على باب الصديق، فسمعاه، فأسرعا إليه، ليخففا عنه بعض ما يجد، وهو مازال في حدة غضبه فقال لهما: "لعلكما تقولان في عمر ما قال هذا الرجل آنفا!".

فدهشا، وقالا: "ماذا قال يا خليفة رسول الله؟!" قال: "زعم أن عمر أحدثكم إسلاما! وأنه فظ! وأنه.. وأنه.." قال

عثمان: "بئس لعمر الله ما قال هذا! عمر بحيث نحب من قوته مع سابقته".

وقال علي: "بئس ما قال! عمر عند ظنك به، ورأيك فيه، إن وليته مع أنه كان واليا معك، تحظى برأيه، وتأخذ منه، فامض لما تريد ودع مخاطبة الرجل، فإن يكن عمر بن الخطاب على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت (قصدت)، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير!". وانصرفا، إلى المسجد واطمأن الصديق..

وامتلأ المسجد بالمهاجرين والأنصار، فأمر أبو بكر بأن يقرأ عثمان عهد استخلاف عمر، فلما فرغ من القراءة، أقبل الناس على عمر يبايعونه وهو على المنبر، لم يتخلف عن بيعته أحد، ولا اختلف عليه أحد..

فرفع أبو بكر يديه إلى السماء، وقال: "اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم على الأمر، وأحرصهم على رشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فأخلفني فيهم فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين،

يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعيته".

ثم دخل مستندا على امرأته، فرقد في فراشه، مستريح البال، مطمئن القلب، قرير النفس باجتماع الناس على البيعة لعمر بن الخطاب.

ثم دعا إليه عمر، فقال له: "يا عمر إني موصيك بتقوى الله، إن الله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، إنه لا تقبل نافلة (غير الفريضة من العبادات) حتى تؤدى الفريضة، ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم؟! وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا الحق أن يكون ثقيلا، ألم تر يا عمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم؟!! وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا الباطل أن يكون خفيفا".

يا عمر إن الله عز وجل ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء؟ وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو

ألا أكون من هؤلاء، أين عملي من أعمالهم؟ ألم تر يا عمر أنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء؟! ليكون المؤمن راغبا راهبا، ولا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة؟ فإذا حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك ولست بمعجز الله!.

يا عمر، أبغضك مبغض، وأحبك محب، قدما (قديما) يبغض الخير، ويحب الشر..

وشعر الصديق بالتعب، فأمسك عن الكلام يلتقط أنفاسه، وجاشت نفس عمر إشفاقا عليه، وإشفاقا من خلافته، ومن الأمانة التي سيحملها بعده!".

وكأنما شعر الصديق بذلك فقال: "يا بن الخطاب، إني إنما استخلفتك نظرا لما خلفت ورائي، فقد رأيت رسول الله ❐ وصحبته.. ورأيتني وصحبتني، وإنما اتبعت أثر من كان قبلي، والله ما نمت فحلمت، ولا توهمت فسهوت، وإني لعلى السبيل ما زغت".

ثم استراح هنيهة، وقد بلغ به الإعياء مبلغه، حتى إذا ملك أنفاسه، أمسك بيد عمر، ثم قال: "إن أول ما أحذرك

يا عمر نفسك، إن لكل نفس شهوة، فإذا أعطيتها تمادت في

غيرها!". وشدد قبضة يده المعروقة العجفاء على يد عمر، ثم قال: "يا عمر، يا عمر، احذر هؤلاء النفر من صحابة رسول الله ❐ ، فإنه قد طمحت أبصارهم، وانتفخت أجوافهم، وأحب
كل امرئ منهم نفسه!! وإن لهم لحيرة عند زلة واحد منهم، فإياك أن تكونه!!".

"فإنهم لم يزالوا خائفين لك، فرقين منك (فزعين وزنا ومعنى) ما زلت خائفا من الله وفرقته (بفتح الفاء وكسر الراء أي فزعت منه)، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك!

وهذه وصيتي وأقرأ عليك السلام".

ووعده عمر بالسمع والطاعة، ولبث قليلا معه..

ثم خرج عمر يداري دموعه، وهو يدعو لأبي بكر..

* * *

ودعا الصديق إليه ابنته أم المؤمنين عائشة، وكانت تمرضه مع زوجته أسماء بنت عميس، فقال لعائشة: "أما بعد يا بنيتي، فإن أحب الناس إلي غنى أنت، وإن أعز الناس علي فقرا أنت! وإني كنت نحلتك (أعطيتك) حائطا (بستانا).

وإني أحب أن ترديه علي، فيكون ذلك قسمة بين الورثة، فألقى ربي حين ألقاه، ولم أفضل بعض ولدي على بعض".

فوافقت. وكانت هذه الأرض من أموال بني النضير التي أفاءها الله على الرسول، وكان الرسول قد أعطاها أبا بكر، فأصلحها، وغرس فيها.

ثم قال الصديق لعائشة: "إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم (غليظ طعامهم) في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي".

ثم كرر: "ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لم أصب من هذا المال شيئا! وإن أرضي ملك للمسلمين بما أصبت من أموالهم".

لقد أراد أن يرد كل ما تقاضاه من عطاء عن فترة خلافته.. فلما حمل أحد آل أبي بكر رغبته إلى عمر، قال: "أنا ولي الأمر من بعده، وقد رددتها عليكم!".

* * *

وأصبح أبو بكر فسأل: "أي يوم هذا؟" قالت امرأته أسماء: "يوم الاثنين" فسأل عائشة: "في أي يوم قبض رسول الله ؟" قالت" "يوم الاثنين" قال: "فإني أرجو (أن ألحق به) فيما بيني وبين الليل".

وبرق في فكره أمر فارس والروم بغتة، وومضت في عقله فكرة، فدعا إليه عمر، فقال له: "اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به. إني لأرجو أن أموت من نهاري هذا، فإن مت، فلا تمسين حتى تندب الناس إلى المثنى (وكان المثنى ينتظر إعداد جيش من أهل الردة التائبين) فإن لم أمت من نهاري هذا، وتأخرت إلى الليل، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم! وقد رأيتني يوم توفي رسول الله وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله. وبالله لو أني ونيت (تأخرت) عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا، فاضطرمت المدينة نارا! وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد (أي جنده) إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم".

ووعده عمر بالطاعة فيما أمره، ثم خرج يكتم نشيجه، ويكفكف الدموع السخينة التي أرسلتها عيناه!!

وارحمتا لك، وللمسلمين من بعدك يا خليفة رسول الله!!

وأقبلت عائشة وأسماء بنت عميس، بعد ما انصرف عمر فإذا الصديق مغمى عليه، وقد غامت عيناه، لكأنه يعالج سكرات الموت!.. فبكت عائشة، وأنشدت من الشعر القديم:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ففتح عينيه ونظر إليها معاتبا، وقال: ليس كذلك يا أم المؤمنين! ولكن كما قال الله عز وجل: (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد).

وهمهمت في الغرفة كلمات حزينة:

وكل ذي غيبة يؤوب

وغائب الموت لا يؤوب!

حتى إذا غربت الشمس عن المدينة في مساء ذلك اليوم (الاثنين) لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة، تلا أبو بكر قوله تعالى: (توفني مسلما وألحقني بالصالحين). ولم يقل بعدها شيئا بعد!

ثم غربت حياة أبي بكر، ولكن شمسه لا تغيب أبدا، بما حملها للعالمين من ضياء!

* * *

وارتجت المدينة لوفاة أبي بكر الصديق، ولم تر المدينة منذ وفاة الرسول، يوما أكثر باكيا وباكية من ذلك المساء الحزين!.

وأقبل علي بن أبي طالب مسرعا، باكيا، يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فوقف على باب أبي بكر الصديق، وقال من خلال الدمع:

"رحمك الله يا أبا بكر! كنت والله أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشدهم يقينا وأعظمهم غناء، وأحفظهم على رسول الله ❐ ، وأحدبهم على الإسلام، وأحماهم على أهله، وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وسمتا، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا. صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقا، (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) يريد محمدا ويريدك، وكنت والله للإسلام حصنا، وعلى الكافرين عذابا، لم تفلل

حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف.

كنت كما قال رسول الله ❐ : ضعيفا في بدنك، قويا في أمر الله، متواضعا في نفسك، عظيما عند الله، جليلا في الأرض، كبيرا عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك".

ودخل عمر عليه، فقال وهو ينشج: "يا خليفة رسول الله، لقد كلفت القوم بعدك تعبا ووليتهم نصبا! فهيهات هيهات من يشق غبارك! فكيف اللحاق بك؟!".

وحمل الصديق إلى المسجد في ليلته تلك فصلى عليه عمر بالناس. ودفن إلى جوار رسول الله، رأسه عند كتف النبي ❐ .. فوقفت عائشة على قبره، فكفكفت دموعها، وقالت: "نضر الله يا أبت وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت مذلا للدنيا بإعراضك عنها، وللآخرة بإقبالك عليها، ولئن كان من أجل الحوادث بعد رسول الله ❐ رزءك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعدنا بالعزاء عنك حسن العوض منك، فأنا أنتجز من الله موعوده فيك بالصبر

عليك، وأستعيضه منك بالدعاء لك، فإنا الله وإنا إليه راجعون، وعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لك، ولا زارية على الحياة منك".

فلما أصبح الناس. يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، صعد عمر بن الخطاب المنبر، وهو والناس يعانون معا من وطأة المصيبة في فقد الصديق، ومن هجير أغسطس المتوقد! فخطب عمر الناس، قال: "إنما مثل العرب مثل جمل أنف (يشتكى أنفه وجع الحبل: أي مطيع) اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق!".

وأدرك الناس أنهم على مشرق عصر جديد، وهو عصر صاغ دم الشهداء العظام فجره، وبذل من أجله الصديق عمره!.

* * *

ما كان أحد يتخيل الحياة خالية من أبي بكر الصديق!.

لقد ألفوه نهارهم وليلهم، ألفوا ورعه، وتقواه، وسماحته، وطيبته، ووقروه، وأحبوه.. أحبوا كل شيء فيه، وكل شيء منه، حتى شدة غضبه، وحدته!.

وها هو ذا عمر يسوسهم على المبادئ التي جاء بها رسول الله ❐، وأرساها، ثم جاء خليفته الصديق من بعده، فرفع القواعد من ذلك البناء، وسواها!.

ويا الله، كم واجه خليفة رسول الله! لقد حمل من الأمانة ما يهد الجبال الشامخات، الراسيات، ولكنه أشرق بنور الإسلام يضيء به الظلمات الداجية من حوله، متبعا سنة سلفه العظيم، مجددا فيما يطرق العقول من مستحدثات الأمور.

ولقد قبض الله خلافته ليحمي الإسلام بها، وليتيح للإنسانية كلها نهضة تمكنها من مواجهة الخفاء، ومن السيطرة على قوى الظلام، وتمكن العقل والفكر والفضائل من الانتصار، لتحمي الدنيا من هجير التعصب والجهالة والتخلف، فكانت حصنا حصينا لحرية العقيدة، وحرية الفكر، وحرية الإرادة.

لقد كان بزوغ الصديق قدرا مقدورا لتطرح الإنسانية أثقالها، وليرفع الله عنها إصرها وأغلالها!.

فقد كانت الإمبراطوريتان العملاقتان الفرس والروم تقومان على الحق الإلهي للملوك، فالملك هو خليفة الله في

الأرض، فهو لا يخطئ! وليس من حق أحد المحكـومين أن يحاسب الحاكم! رأيه مقدس، ومن حول هذا الحاكم الفارسي أو الروماني عصابات رجال الدين، فهو قضاء مـن الله أن يذعن الرعايا له، ويرضوا به، وإلا كـانوا كفـارا، آبقـين مارقين!! وحينئذ يضطرهم رجال الدين باسم آلهـتهم، إلـى عذاب غليظ، عذاب يعانون فيه آلام الجحيم، حتى الهلاك.

كان العالم قد استقر على التعذيب، أسلوبا للتحقيـق،

وعلى أن الملك إله، تجسدت فيه روح إله، فهو لا يخطـئ،

ولا يراجعه أحد، ولا يبادره أحد بالمشورة إلا إذا طلبها!.

قوله الفصل، وظلمه عدل!.. أما رجال الـدين فهـم

أنصاف آلهة، وكل شيء إذن مباح لهـم: أمـوال الشـعب،

وراقصات المعابد، وأعراض الرعايا!!

في هذا العصر الداجي الظلمات، يأتي حـاكم لـيس نبيا، ولا هو يتلقى حديث السماء، وإنما هو خليفة نبي، وهو بعد من أسرة ليست هي أغنى أسر بلده، وهو شيخ في نحـو الحادية والستين، خشن الملبس، لا تسطع علـى جبينـه أو صدره جواهر مـا.. تاجـه الحكمـة، صـولجانه الحـزم والرحمة!.

وجهه الأبيض معروق، جسده نحيل، لا يستمسك الإزار على بدنه، لشدة نحوله!

يقف هذا الشيخ المتواضع في أول لقاء له برعيته، وعيناه مقرحتان من البكاء على الحبيب الراحل رسول الله ❐، ذابلتان من قيام الليل في العبادة والرجاء والدعاء، وإن جسده ليرتعد من خشية الله، ومن هيبة مسئولية الحكم! فيقول لرعاياه: "أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم".

ولقد سمع الله تعالى يقول لرسوله: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله)، وتلقى عن الرسول أن الله إنما أمره بمشاورة أصحابه، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، لكي يعلم الناس ما للمشورة من قدر عند الله، وبركة في الناس، ولأن في المشورة تألفا للقلوب، وتطييبا للنفوس، ولكي يسير عليها المسلمون.. وقد حفظ الصديق عن الرسول: "ما ندم من استشار" وقد وعى قول الحكماء: "تعوذ

من سكرات الاستبداد بصحوات الاستشارة". وليس حول الصديق رجال دين، بل أهل علم وتقوى وأصحاب مشورة.

وإن الصديق ليؤمن بذلك كله، بينما كان شعار الأكاسرة والقياصرة قول بزرمجهر: "أردت نصيحا أثق به فما وجدت غير فكري! واستضأت بنور الشمس والقمر فلم أستضئ بشيء أضوأ من قلبي"..!!

وقد كان أكثر ما توخاه الصديق في الحكم هو العدل أخذا بما أمر به الله: (وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل). و (اعدلوا هو أقرب للتقوى)، (إن الله يأمر بالعدل والإحسان).

ثم إن الصديق يتحرى العدل اتباعا للرسول، وامتثالا للفطرة السليمة، وما تلقاه من الحكمة فيما قرأ من الصحف الأولى:

إن الأرض تتزين في أعين الناس إذا كان عليها إمام عادل، وتقبح إذا كان عليها إمام جائر؟.

ولكن الصديق على الرغم من حرصه على المشورة والعدل والإحسان والمساواة بين الناس في قسمة الفيء والغنائم، كان حريصا على ألا يظن أحد به أكثر مما يستطيع، فيقع في خيبة الأمل، فهو ليس نبيا يوحى إليه،

وليس منزها عن الخطأ، وإنما هو واحد منهم، وهو يمرر لهم أنه ليس بخيرهم، وواجبهم أن يعينوه، وأن يطيعوه، كما أن واجبه أن يقوم بأمرهم، وأن يستشيرهم، فلا يقطع أمرا دونهم.. وكان هذا كله جديدا على أسلوب العصر في الحكم، وكم من مرة قال للناس: "أما بعد، فإني وليت هذا الأمر وأنا له كاره، ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه! ألا وإنكم إن كلفتموني بمثل عمل رسول الله ❐ لم أقم به، كان رسول الله ❐ عبدا كرمه الله بالوحي، وعصمه به، ألا إنما أنا بشر ولست بخير منكم فراعوني. فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني، وإن رأيتموني زغت فقوموني، وإن لي شيطانا يعتريني، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني!.

* * *

ولكنه جمع الفضل والقوة، وعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون، مما تلقاه عن الرسول، علمهم أن الله قرن الإيمان بالعمل الصالح كلما ذكر الإيمان في القرآن. والإيمان يقتضي النهوض بالعبادات على أكمل وجه، أما العمل الصالح فهو الجد والكد لعمارة الأرض، والجهاد في سبيل الله، ولنشر

مكارم الأخلاق، وحسن المعاملة، وتحقيق المصالح العامة للأمة.

وعلى الرغم من أن أبا بكر كان يحذر الناس من حدته، ويسميها شيطانا يعتريه، أكبر الناس حدته، إذ علموا أنها تنبع من صفائه وطيبته، ووهج عقيدته.. إن هذه الحدة هي التي قمعت أهل الردة فحمت الإسلام والمسلمين!.

ولكم يدين الإسلام والمسلمون لأبي بكر!

وسيظل الإسلام والمسلمون مدينين له بجمع القرآن، بعد أن قُتِل أكثر حفاظ القرآن في حروب الردة..

لم يحكم الصديق إلا عامين ونحو ثلاثة أشهر، ولكنه حقق فيها انتصارات كالمعجزات، يصعب إنجازها في أعوام طوال!!

ستظل العروبة مدينة له بأنه أول من وحد أقطارها، بعد أن مزقتها الردة الأولى، وإن كانت تعاني عذاب الفرقة ووهنها بعد الردات الأخيرة!.

ستظل الإنسانية مدينة له بقيام العدل، وبفرض الإحسان والعدل والإخاء على العلاقات بين الحكام

والمحكومين، حتى في عصور الظلمات الداجية، في وجه التحكم والقهر والاستبداد!

ستظل الإنسانية مدينة له بحماية حرية العقيدة، وحرية الفكر، وحرية التعبير في زمن التعصب الغشوم، والمظالم الشرسة!!

ستظل القيم الرفيعة والمثل العليا ومكارم الأخلاق مدينة للصديق بأنه أول من نور بها أرجاء العالم، منذ نشر الإسلام خارج بلاد العرب، فأضاء بمبادئه السامية، دجى الليل الحالك الذي كان يغشى دولة الفرس والروم، وهما حينئذ أكثر العالمين!.

وتظل الحضارة نفسها مدينة لهذا الشيخ الجليل، بأنه على الرغم من حزنه النبيل غرس في الأرض بذور العدل والحرية، وسقاها أزكى دماء الشهداء، فآتت من كل الثمرات عطاء جزيلا، حقق عبر التاريخ تقدما عظيما في العلوم والثقافة والفكر والفنون، وجعل الحياة متاعا رفيعا سحري المذاق، وسخر للإنسان قوى الطبيعة، وأغنى وجدان العالم كله من عصر إلى عصر، إذ كانت عواصم الإسلام مضيئة بالمعرفة العليا، وما عداها من العواصم يئن تحت أطباق من

الظلمات، ظلمات بعضها فوق بعض، ولا يقوى على أن يخطو نحو التقدم، إذ الأقدام تغوص في أوحال الجهالة!.

ستظل الحضارة نفسها مدينة للصديق، هذا الشيخ الورع الأسيف صاحب الجسد الضعيف، والعقل الجبار، ذي القوة الروحية الخارقة النابعة من إيمان بالله عظيم.. ستظل الحضارة مدينة له، لأنه بجهاده الرائع، وبالصبر والمصابرة، جعل هذا الكوكب جديرا بأن يحيا فيه الإنسان، سيد الكائنات، وخليفة الله في الأرض، الذي خرت له الملائكة ساجدين.

تم بحمد الله

٢١ رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

١٠ مايو ١٩٨٧م